

أرواح هندسية سليم بركات



دار الكلمة للنشر

١٩٨٧
دار الكلمة للنشر
بيروت

دار الكلمة للنشر

دار الكلمة للنشر

شارع ليون - بناية سلام - الحمراء

بيروت - لبنان

ص. ب. ١٣/٥٢٨٨

تلفون : ٨.٣٧٤٠

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى ١٩٨٧

أطراف صناعية .
 لوحة غير مُنجزة .
 لفافات تبغ .
 طواويس .
 ميناء لم يكن ميناء .
 محاربون متنكرون في هيئة المياه .
 مؤلف عشوائي .
 أحداث لم تكن على موعد مع هذا التأليف .
 قراء يختلقون للمؤلف مكاناً لا يعنيه .
 نسيان، وقطن، وهياكل عبارات، ونباح كلاب، وانقاص، وحيات خفيفة،
 وشهوات، وأدراج، وكهرباء مقطوعة، وزجاج، ومكبرات صوت، وجدُّ يتبع
 حفيده قبل . . . الخ .

الجزء الأول

(مشهد واحد في غيبٍ مقسوم . وبطولة لا تُبرم اتفاقاً مع أحد)

الفصل الأول

يجري الأمور، الآن، في ترتيب هادئ. فالجميع هنا، على السطح الحديدي المخضّر، الذي يعكس إشعاعات خاطفة بفعل رطوبة البحر، ومن ثم تنكسر تلك الانعكاسات إذ تتقاطع من فوقها ظلال تعبر من جهة إلى أخرى.

مدني حديديّ، ذو مستوى محدّد بمربعات تنفر من كل زاوية فيها مسامير مستديرة ملساء، وأعقاب الأحذية الصلبة، في ذلك الليل الكسول المشتّت، لا تملن ثقلها، بل تتواطأ مع الرطوبة الجارفة، فتلمس الأرض الحديديّة دون صخب، كأنها تحاول ألاّ تشوّش على الذي يتشكّر فيه المتمددون تحت الأغطية العسكرية، وهم يدخنون في نهم.

همسات تعلو ثم تخفت. وجبة عشاء رديئة سبقت هذا الهدوء، فيما يشبه الاحتفال، لما تدافع المحاربون صوب قُمرّة في مقدمة السفينة، ثم ناكدوا، من إشارات القبطان اليونانيّة أنهم لن يحصلوا على وجبتهم إذا لم ينتظموا صفوفاً، فانتظموا على مضض. بعد ذلك عادوا، واحداً واحداً، متدبرين، إلى الزوايا الحديديّة التي ركنوا إليها.

أكلوا نصف ما حصلوا عليه، ورموا البقية إلى البحر؛ رموها بقوة، كأنها يحاولون أن يصيبوا بها سفن الأسطول الأمريكي التي تواكبهم، حمايةً، بعد خروجهم من تلك المدينة، بناءً على موثيق، وعهود مشفوعة بالغمز، إلى آخر ما هناك ممّا هناك.

ذلك كان المساء الأول لنفي هؤلاء المحاربين من الشرق إلى الغرب، عبر

بحر واحد، متصل، انعكس، خفيفاً، على السفينة التي نراها - نحن الخمسة - دون أن تنعكس هي عليه، كأنها تتخفى، وكأنها يجازيها البحر فيدعها، متعمداً، تسترسل في ذلك.

بالطبع، دون تمهيد، حين نقول: «نحن الخمسة» فإننا نعني أنفسنا - نحن الخمسة، غير المحسوبين في عداد هؤلاء الذين تثرثر مصائرهم، من فوق الهواء الذي يعلو السفينة، حتى ليكاد رذاذ أفواهاها يختلط برطوبة البحر. غير أننا كنا حيارى إزاء وجود «أ». «دهر» مع الآخرين هناك. لم تبد دهشنا على أية حال، فنحن من روج لا يخالطها دهش، أو دعر، أو فرح، أو ما يشابهها مما يتصف به الكائن المرئي، ذو اللحم والدم والضجر. ولو دهشنا لكان حرياً بنا أن ندهش من وجودنا هنا، فالمهمة التي أوكلنا بها كانت انتهت، منذ انبهار عبارة «أبي كير» على قاطبيها، وفيهم «أ». «دهر». لكنه موجود، الآن، وسط الآخرين، ولذلك نحن موجودون حُكماً.

والخمس - الذين هم نحن - غير مرئيين؛ هكذا، في بساطة، غير مرئيين. وقد جرى توكيل كل خمسة، ممن هم على كشافاتنا اللا مرئية، بأدمي واحد، ليُعَيَّنَ على ما يُفَضِّلُ عليه، أو يستعصي. والأمثلة كثيرة، لن تأتي على الخطير منها، بل على الهين للتيبين: فالأدمي يلتقط، بحدسه، خاطرة الأدمي الآخر، مثلاً. والأدمي يختسب للأمور التي تكون مُنْجِزَةً مِنْ قَبْلِ الغيب فيتدارك أن تصيبه هذه الأمور في آخر لحظة. يقرر أن يمضي، اليوم، من هنا، لا من هناك. يلازم بيته، متوهماً المرض، في أحيان كثيرة، تداركاً لغامض يصيبه، حقاً، لو غادر بيته. يفقد شهيته فجأة. يثور فيتفادى ضربة، أو يبدأ فيتفاداه. أي أن في كل احتساب من جانبه، لتفادي مكروه ما، قَدَّرَ من اشتغالنا - نحن اللا مرئيين - على تدبير ذلك. لكنه، في أحيان يستعصي علينا إجراء تدقيق فيها، يتبصر ما نحن مقدمون عليه في شأن أموره.

على أية حال لن نسترسل في شرح ما ندبره نحن له، وما يشترك هو في تسييره. وغايتنا من هذا السرد كله القول إننا لا مرئيون فحسب، موكلون بـ

«أ». «دهر» كغيرنا. وكُنَّا، في ما أُعِدَّ لنا، موكلين بطفل وَلَدٌ رخو الجمجمة، كعادة المواليد، بيد أنه كبر وظل رخو الجمجمة، حتى عامه الخامس. وكان أهله يوسدون رأسه مخدات من الجانبين لئلا يلامس أي شيء صلب. وفي سنته الخامسة نطق الولد، أول مرة، بعدما اقتصرنا إشاراتنا كلها، في أصوامه الماضية، على ابتسامات شاحبة تنم عن وداع وشيك. قال لأمه: «سانام»، وابتسم. وظل يكرر الكلمة لكل من يقترب منه: «سانام»، فيجامله المقربون منه: «نم»، لكنه لا ينم. ولم يطل الأمر بالولد إذ مات ذات ظهيرة، كما يموت غيره. فحزمتنا شؤوننا اللا مرئية، راجعين، كعادة أمثالنا حين يموت من هم موكلون به، وقد سقطت عنهم مهمة مواكبة أي آخر إلى أبد الأبدن. بيد أننا رُدَدْنَا على أعقابنا، وقد قيل لنا في جهامة: «أنسيتم هناك كل ما كان معكم، وعدتم؟»، فنظر واحدنا إلى الآخر مدعوراً: «وما الذي نسيناه هناك؟».

ليس لنا أن نحاجج أحداً، لذلك عدنا أدرأجنا إلى حيث قبر الطفل ذو الجمجمة الرخوة، فعقدنا أيدينا خلف ظهورنا، لا مبالين بشيء. ومن حقنا أن نكون على تلك الحال، فالأفق فارغ من حولنا: حفنة من القبور، وموتى ضجرون من عظامهم، وزيزان تتهاجك وتتبارى في الظهيرة المساء كحجر في ساقية.

«نم ماذا؟». ليس لنا أن نقول ذلك، لكن أيدينا المعقودة خلف ظهورنا كانت تقولها. وبالطبع جلسنا على الأرض قليلاً، وطُفْنَا قليلاً بالخلاء المحيط بالمقبرة، وعابنا الساء، والعشب اليابس، والجحور الجديدة، والمهجورة، من حول الشواهد، المسكونة بخشاش التراب. ثم تحلقنا، بعد ذلك، من حول قبر الطفل ثانية، عاقدين أيدينا خلف ظهورنا، لا مبالين بشيء، مادامت الأمور، بترتيبها هذا (نموت موت من نحن موكلون به) قد أعفتنا من الإنشغال بتدبير ما ينبغي تدبيره من مصادفات، أو حلها إن تقاطعت مع ما ينبغي إعفاؤه من المصير المحسوب لمن نحن موكلون به.

لقد اعترانا ما يشبه الضجر من هذه العودة. لا. ليس ضجراً بحق، ولا

ينبغي أن نأخذ اللفظ على عمله. فنحن، كلا مرتين، لا يصيبنا ما يصيب
الآدمي. والصخر خصيصة آدمية. فإن نطقنا الكلمة فإنها نطقناها عن محاكاة.
أقولنا: «أحسبنا بالضجر؟». لا. قبر، ونحن موكلون به، فلماذا
الضجر؟ عراء مديد من حولنا، وظهيرة تتدل من السماء بسلاسل متوهجة،
فلماذا الضجر؟ حفنة من قبور، وطققة جمجمة رخوة ستنفجر بعد قليل، فلماذا
الضجر؟ ونحن، على أية حال، لسنا ممن يزنون الوقت، ولا يروّج عنا انقضاء
حادث أو دوامه. وسيان تسرّت الأسور أو انكشفت، فلماذا الضجر؟
والجمجمة، الذين هم كثافتنا غير المتجلية، حسبة لا أكثر، قيمون على معاينة
الآدمي مسترسلاً في شؤون، بتامها وبفصانها. ونحن لا نفرق، بحذس،
بين حادثة كبيرة وصغيرة تماماً يصيب الآدمي، بل نركن في تقويم ذلك إلى الآدمي
نفسه. فإن استرسل، بعد حادثة، على عهده قبلها فهي صغيرة، وإن بات
ينسى إقبال باب بيته إذ بخادره، ويسأل شخصاً ذاته سؤالاً واحداً، مراراً، في
الساعة الواحدة، مع الاعتذار عن نسيان سؤاله، فذلك يعني أن الحادثة كبيرة.
ولما كنا، كلا مرتين، ذوي شأن لا يطوله ضجر، فقد أعفينا أنفسنا من
المسألة التي هي شأن الآدمي في استعراض حركته استعراضاً لا مرج فيه.
والذي نسمعه، الآن، على السطح الحديدي للسفينة التي تقل هؤلاء
المحاربين، المنفيين بمواثيق دولية، هو ذاته ما يجعل اختلاط التقويم أساس
النظر.

إذن، لا حساب على هذا السطح أو ذاك. فني المقبرة التي سترفع
طققة الجمجمة الرخوة فيها، بعد قليل، كما على ظهر هذه السفينة، نقف
نحن، عاقدي الأيدي خلف الظهور، ناظرين إلى المساء المنكب بشفتيه
المظلمتين نفخاً على كؤره المظلم. وكما نصغي في المقبرة إلى ديب الحشاش فوق
العظام، فإننا نصغي هنا، أيضاً، على ظهر السفينة، إلى الإنقسام الأبدي
الذي يربك المياه فتحاول أن تحادأ في صخب، فتلتحم، ثم تنفصم، وقد اغتلى
الزبد، فنوق أن الزبد هو جرح الماء.

لكننا حائرون قليلاً، نحن الذين هيئنا أن نرى الأمور صائرة من حال

إلى حال فلا نحار. والأرجح... ما من أرجح. نحن حائرون قليلاً. فمد
أعلنا، عند قبر الطفل، ضجرتنا، غدونا إلى كثافة يهازجها خليط من طبع
قلبي، وفضول يكاد يعلن ولا يعلن. لذا نحن حائرون، إذ ننظر إلى «أ. دهر»
على سطح السفينة، متمدداً بكامل ثيابه العسكرية، وهو الذي ضاع بين
أنقاض عمارة «أبي كبير»، التي انهارت قبل أن يهاجر محارب واحد تلك المدينة
التي تم الإفراج عنها بمواثيق دولية، وبكفالة، كما يكفل السجين، لشهر
واحد. وكان يقلقنا، إضافة إلى حيرتنا، أنه ينظر إلينا مباشرة، متسعيناً في
هياتنا اللا مرتبة فرداً فرداً، كأننا بات يرانا، بعد سبع سنين من احتجابنا
عليه، وانكشافنا على مصيره ذي الكثافة المروضة.

لا يخفى علينا ذلك، والأمر مقلق. فنحن لم نعهد من ينظر إلينا في
تمن: النظرات تحترقنا، عادة، كأننا نحن ذرات في بُعد المشهد. لكن أن
يشمع فينا كائن مرئي فذلك مربك بحق. و«أ. دهر» ينظر إلينا مباشرة. لا
زغل في عينه، ولا نوس، في الظلام. ولما عُدنا الأيام أدركتنا تقطعاً في العذ.
فنحن، بما أننا على سطح السفينة الآن، كان علينا معرفة أين اختفى «أ. دهر»
منذ أربعة أيام، أي تاريخ انهيار عمارة «أبي كبير»، وكيف ظهر بين هؤلاء
المنفيين، بثيابه العسكرية، محملاً النظر في هياتنا.

حين كانت دفعات من المنفيين تودع المدينة انهارت العمارة، أي في أيام
المواثيق الكبيرة المبرمة، والعهود المختومة بأختام لا شمع فيها ولا مطات. ولما
انتظرنا تلك الأربعة الأيام، والنش والنكش على أتمهما، ولم يظهر «أ. دهر»،
عمدنا إلى مصاحبة المنفيين الآخرين، صاعدين معهم السلالم الحديدية إلى
سطح السفينة الحديدية. وكنا عارفين، بالطبع، أن مواكبنا لهذا المرئي
انتهت، ولن يكون هناك استثناء ثانٍ، كالذي حصل بعد موت الطفل ذي
الجمجمة الرخوة، حينما كان حراً بمهمتنا أن تنتهي، لكننا رددنا على أعقابنا:
«أعدتم، بعد ما نسيتم ما نسيتموه هناك؟». وما الذي نسيناه؟ لا بأس. ظلمنا
حول قبر الطفل أمداً لم نتفكر في حسابه، ثم اختلقتنا عبثاً من الكلام هو رجح
مما نسمع في ذلك العراء من ربيع، وطققات، ودبيب، وهمس مشيعين لموتى

جدد، ورعد، وحش، وتشقق في الأرض، أو انجراف في التراب، وانخساف في حُذبات القبور، وأجنحة شاردة، وركل في حجارة الشواهد فتميل بغتة دون أن تسقط، حتى استوت لدينا جمل متداعية، من نحو: «هاهو. حُد. لا أحد. ما هو. ما هو هذا؟»، فهتف بنا هائف: «اسكتوا»، فهتفنا: «ما هذا؟» فتطايرت من حولنا القبور، والعظام، والشوك اليابس، والزواحف من أفاع وحرباءات، وكذلك القوارض من جرذان، وقنافذ، إلى آخر ما هنالك من خشاش صغير - فقريات وغمديات، كل ذا تطاير، فالفينا أنفسنا كأننا على هاوية لا يرى قاعها، تحت سقف من حطام معلق كغيمة، فلم نطق، بل هرولنا في اتجاه ما بدا لنا تُخاً للبلدة، هلعين، حتى أشرفنا عليها، بل دخلنا أزقة فيها، قبل أن نسائل أنفسنا: «إلى أين؟».

لم يبقَ من السطفل الذي أوكلنا به قبره حتى، فلم يبقَ بعد ذلك؟ ولبرهة هممنا بالعودة إلى البعد الذي يرجع إليه أمثالنا لما يقضون ما عليهم، لكننا نجفنا أن نجبة بالسؤال الممض ذاته: «نسيت كل ما لكم هناك، وعدتم؟». نسينا ماذا؟. لم ننس شيئاً، فلم الخوف؟ قلنا فلنعد، وعدنا إلى «هناك»، فلم يخب ما تفكرنا فيه. قيل: «أعدتم، وقد نسيت ما نسيتوه؟»، فأجبنا في ثقة حذرة: «لم ننس شيئاً»، راكنين إلى أن في الأمر امتحاناً ربياً، تُراد به دعابة، فإذا الصيحة: «ارجعوا. نسيت أن تكونوا لا مرتين».

أنحن مرتين؟ إشكال محض. فما نحن نوغل في الأزقة دون أن يلتفت إلينا أحد قط. وكانت خالية تلك الأزقة بعض الشيء، لكن ثمت مارة مهرولين، بين حين وآخر. وكلما تقدمنا فيها تكشّف لنا أنها تفضي إلى طرق أوسع، وتفضي البيوت الوطية، التي تزدهر فناءاتها بهياكل سيارات رثة، وإطارات المطاط، إلى بيوت أكثر علواً، تزدهر فناءاتها ببعض الشجر، وبآلات أقل رثانة. وتفضي هذه، بدورها، إلى عمارات عالية، وأخرى شاهقة، تنتصب فوقها أذغال من هوائيات التلفاز المعدنية.

أوغلنا كثيراً على ما نعتقد، حتى استوقفتنا عمارة بالمشهد الذي كان

يجري أمامها: رجلان بقناعين، يمسكان بقضبان حديدية يصهرانها بوساطة نافورة من الذهب الأزرق. فيها كانا يلحمان بوابة، أجزاء إلى أجزاء. وكانا يستوقفان كل داخل ليعطياه مفتاحاً. والواضح أنهما إنما عمداً إلى إغلاق مدخل العمارة ببوابة معدنية إسرافاً، ربياً، في ابتغاء الأمان، لأنهما كانا يسترسلان في الإشارات، كلما أعطيا شخصاً مفتاحه، مباعدين بين أذرعهم، ناظرين إلى الأعلى، وإلى الأسفل، كأنها يقيسان المدخل شبراً، وشبراً، ويحذران من الشر المنتظر إذا لم تثبت عوارض هنا، وعوارض هناك. وكانا، في أثناء هذا كله، يهرولان إلى الداخل، محتمين بالجدار الذي يجاور الدرج، كلما سمعا صوتاً يشبه صوت الطبل في كهف، أجوف تحشّشاً، ثم يرجعان، في حذر غير واضح، إلى إكمال عملهما، وهما يرفعان سيقان بنطاليهما، من الركبة إلى ما فوقها، بحركة آلية يحفظان بها مرونة انحناء السيقان إذا قرفصا.

أخذنا فضول لم يكن في طبعنا، فجعلنا نتحلّق من حولهما، ونشيش الحديد، وبخوره، يتصاعدان إلى كثافتنا، إضافة إلى الوميض الذي ينجس حلقات حلقات، فنكاد تتسلّقه إلى أشباهنا في شهوات اللون. وفيما نحن سارحون دوى صوت طبل أجوف جديد، محبوبك من شطايا وغبار ذي طعم حريف، فإذا الرجلان يتراجعان إلى المدخل، مصغيين كأنها دوي آخر موشك على الاتصال بسابقه. وفي برهة، لم تكن خشخشة الدوي الأول قد خمدت فيها، علا ومض ثان، محبوبك من طنين تقشّرت منه جدران المدخل. وانتشر الطنين، من ثم، كسرب هائل من اليعاسيب اثبتت من مجهول إسمنتي، حتى لنظن أننا نسمعه الآن، على ظهر هذه السفينة الكسول، التي تجري فوق موائق يطوبها الماء وينشرها، كأنين خافت لا يوقظ حتى أكثر المحاربين قلقاً في إغفاءة القلقة. و«أ. دهر»، المتمدّد بكامل طوله، على الملاة السمكية التي افترشها، مدخناً أنفاته، لن يعير ذلك الصوت القادم من شرقي المياه، بجسارة ماضٍ خفيف، إلا ما بعيره، من أعماقه، لهيئاتنا، وهو ينظر إلينا مباشرة، دون زغل في بؤبؤيه اللذين نراهما في الظلام المنزلق على السطح الحديدي. وقد درنا نصف دورة على مؤخر السفينة، علنا نكذب وسواسنا، لكن عينيه تبعتها نكراً

الصغير، وكردنا نلمح سخرية هينة فيهما، فتوقفنا موقنين أن الذي يجري، الآن، يجري بدفع من اقتدار الغيب - شقيق كشافاتنا. «ليكن» قلنا. سنوطد سيرورة هي خلاف ما أعددنا أنفسنا له. سنقرب منه سائلين عن هذه السخرية في عينه. واقتربنا كاقترابنا منه في المرة الأولى، أمام مدخل عبارة «أبي كبر»، حين انتشر السطنين كسرب غاضب من اليعاسيب، وهروول الرجالان، اللذان كانا متكبين على لحج البوابة بعضها إلى بعض.

كان «أ. دهر» واقفاً، آنذاك، قرب جدار العمارة الجنوبي، واضعاً يديه على تحصره، ناظراً إلى الشرفات الثماني المتراكبة، وهو يشتم: «أولاد البغل». ويعاين، من ثم، كيساً ورقياً اندلقت منه أشياء رطبة إثر سقوطه على الأرض، قرب قدميه.

لقد لمحتاه قداماً دون أن يشر أكثرنا: كان كغيره، هزياً بعض الشيء، اكتست ملاحه بما يشبه الضجر من حاضره، أو من ماضيه، بل - الأصح - من جسده، كأي آدمي يعلمه جسده الألم وخوف الألم. لكن، إذ توقف إثر سقوط الكيس من إحدى الشرفات، برغم الطنين الذي قشر الرصيف وجدران العمارة معاً، توقفنا نحن أيضاً، مأخوذين بدعابة المشهد. بيد أنه كان يعاين، في غضبه الصياني، تلك اللحظة، مهزلة الميزان الذي يجلّ بالجسد تارة، وبظل الجسد تارة أخرى، وإذ ترجح كفة الظل، بعامه، ترجح كفة الموت: الظل ضد الثقل؛ ضد الكثافة؛ ضد ذاته. و«أ. دهر» كان يعاين كيف يتفق للظل أن ينقلب على جوهره، قبل سقوط الكيس من إحدى الشرفات، وبعد سقوطه، وقد أصمته المسألة والغضب، معاً، عن دوي القذيفة الذي قشر الجدران، وحدا بالرجلين إلى الاحتماء بالمدخل.

في مرج تبّعنا خطاه، غير العجولة، إلى مدخل العمارة. وإذ توقف لبرهة توقفنا. تبادل والرجلين بضع كلمات متقطعة. حذراره ربما. عاتباه على بطئه. عليه أن يركض. الظل يهيء انقلاباته على الرصيف. وقد ناولاه مفتاحاً، أسوة بغيره، فصعد الأدراج، فصعدنا خلفه: طبقة. طبقتان. ثلاث. أربع.

خمس. ست. نعم. ست طبقات، ومن ثم أخرج «أ. دهر» مفتاحه ودلف إلى الداخل، فدلفنا خلفه. وقف أمام باب غرفة الجلوس متفقداً بعينه آثار خراب ما. مال قليلاً، دون أن يبارح مكانه، صوب باب المطبخ. كان على ما يرام. مشى في الممر حتى غرفة النوم. تفقدها من مبعده أيضاً، والتفت إلى الحمام. ما من خلل ظاهر. خلج حذاءه وجلس على بساط أفرد في الممر بطوله، واستند إلى وسادة وحيدة، محدقاً في جدار الممر المقابل، الأبيض، الذي لا يبعد عن ساقيه الممددتين فتراً واحداً.

الممر ضيق، لكن الواضح أنه اعتاد التمدد هناك. الوسادة، ومنفضة السجائر، وكأس فيها بقايا سائل، وتفاحة مقضومة في صحن صغير، كلها تدلّ على أنه منتهي للدخول، هكذا، إلى الممر، والركون إليه، دون العبور إلى أية غرفة خلا المطبخ، الذي كان يتردد عليه - كما رأينا لاحقاً - للتزود بالماء، وبأشياء صغيرة أخرى. وكان للتلفاز موقعه في الممر، أيضاً، في الركن الشمالي، قرب باب الحمام، حيث الموصل الكهربائي الأقرب، الذي يجعل المتعة الممزقة ممكنة إذا تسنى تزويده بتيار لا تمر ساعة إلا يتقطع، أو بحسب تقنين ينسى عماله مراعيه وصله وحجبه. أما فراشه فكان ممثناً للدوي المتعاقب، يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، إذ يتاح انتقاله من غرفة النوم إلى الممر، ومن الممر إلى غرفة النوم،. والأبقي مائة عام في المكان ذاته.

في خفة كان «أ. دهر» ينقل فراشه، مساءً، إلى الممر، متجهاً بقدميه إلى التلفاز إذ يتمدد، وقد توسّد جميع ما يمكن توسّده من حشايا ليبقى رأسه في المستوى الذي يمكنه من الشاشة ذات اللونين، حتى لو لم تكن هنالك كهرباء، أو صور على المستطيل الفضّي المضاء، كما يحصل مراراً، لما ينسى العمال بث الصور، أو يتذرعون بعطل فني. وفي الصباح، أبداً، يرجع الفراش إلى غرفة النوم، ممدداً، كما كان من قبل، على لوح خشبي لصق البلاط. وعذره، في كل هذا، موقع شقته: كل شقة تطل على شرقي المدينة مهددة بقذيفة.

كانت الطبقات الأرضية تُلْأ بالأمر بعض الشيء، فتتحصن بأكياس من

الرميل، أما العليا فليس لها الإمكان ذاته، لذا يلجأ الساكنون فيها إلى الممرات. فحائطان، مثلاً، أكثر ضمانة من حائط واحد، وثلاثة، على الأرجح، آمنة، إذا لم يتحایل الغيب على التقدير، كمثل الذي جرى للعمارة الثالثة إلى جنوب «أبي كير».

لقد سقطت قربها قذيفة ولم تنفجر. ثم انزلت من سرعة سقوطها على بلاط المدخل فاصطدمت بالمصعد الكهربائي، فارتدت على زاوية الدرج، فتدحرجت شبرين غرباً حتى باب القبو. ثم... تَرَكَ تَرَكَ تَرَكَ، درجةً، نزولاً، والتفت على نفسها هناك، في أرض الملجأ تماماً، تحت بصر المتلجئين الذين انقسموا مجموعات على ضوء الشموع، بعضهم يلعب الترد، وبعض يُوَيْخ الأطفال، واقفين وقاعدين. وفي لمحة علا ومض غامر لم يُتَحَ لآيدي أن تحجب منه العيون. بل علا الدوي، فمن يدري ما كان الأسبق: الدوي أم الومض؟. هكذا، فجأة، علا شيء ما، وانتشر، رقيقاً من شدته، فتبادلت الأجساد أعضاءها، في سخاء لا مثيل له: رأس هذا على جذع ذاك، وأحشاء ذاك على صدر هذا.

ربما، والأرجح أن المسألة كانت على هذا النحو، في برهاتها الصامتة الأولى: دارت القذيفة على نفسها، في أرض الملجأ، تحت الأبصار التي خالها أن سهواً ما يلعب لعبته. فقد تكون يد لاهية دحرجتها على مزاح، أما أن تتفكر الأذهان في مجرى سقوطها، من مدخل العمارة، إلى باب المصعد، فالدرج، فذلك أمر لم يُتَحَ لها الومض، أو الدوي، بحسب الذي سبق الآخر، فتبادلت الأجساد أعضاءها.

كنا، نحن الخمسة اللا مرثيين، نفتقد الممر من جهته الجنوبية، أي حيث ينتهي رأس «أ. دهر»، قرب عتبة غرفة الجلوس، ونترأص من هناك حتى باب المطبخ، فيخترقنا، بين الحين والحين، وميض باهت أو باهر، من البابين الزجاجيين المفتوحين شرقاً، حتى لا يتناثرا من الضغط. غير أنها تناثرا، فيها بعد، أربع مرات، في الشتاء تحديداً، وكان يُعاذ تركيب زجاجهما على مضض، كاقصاص من الذات. فالمعلوم، الذي لا يُخفى على أحد، يحمل

أبداً أخبار عصف وقصف، على محاور القتال المشتعلة، والتي ستشتعل، داخل المدينة، وداخل الأزقة، وداخل العمارة الواحدة أحياناً، حيث يدحرج المحاربون القنابل على الأدراج لتصيب من تصيب، ثم يبدأ العراك فيتعاتب الجانبان، ويتصافحان، ليرجع جيران آخرون إلى إشعال المحاور المشتعلة، والتي ستشتعل، داخل المدينة، وداخل الأزقة، وداخل العمارة الواحدة، أيضاً. وكان لعمارة «أبي كير» نصيبها من ذلك بالطبع، كآية عمارة أخرى. لذلك أعيد تركيب زجاج شقة «أ. دهر» أربع مرات، في الشتاء تحديداً، حتى يغدو السكن مُحْتَمَلاً في ذلك العاصف الرطب من المطر والقلق معاً، برغم المعلوم الذي يحمل خبر ضربات مهدم الجدران، لا الزجاج وحده. غير أن العادة هي عادة: يذهب زجاج ويأتي زجاج. تذهب شرفة وتأتي شرفة. يذهب آدمي ويأتي آدمي. ونحن الخمسة اللا مرثيين اعتدنا أن نرى الشاغل المهيمن على المرثيين، في تحصين الحال والملجأ، والتعود على الأقل الأقل، لكن، من وراء كثافتنا المتحصنة بعذابها الشفيف، نسأل أنفسنا أمام المشهد الذابل على سطح السفينة الحديدي: ما الذي سيفعله «أ. دهر» في الجهة الثانية من البحر؟.

سيختار، بالطبع، عمارة ستتهار بدورها. سيختار الطبقة السادسة كعادته، ليرر نومه في الممر. ستكون شقته إلى الجهة الشرقية. القصف يأتي أبداً من الجهة الشرقية. سيصعد الطبقات الست بسطليين من الماء يجلبها من بئر العمارة، واقفاً في ردهة كل طبقة وهو يعاين الساكنين المتصقنين، جلوساً، بالجدران، متأقفاً من مشقة الحال. وهو يتأفف، كل ثانية، من مشقة الحال، في القصف وفي هذات القصف:

- «تبا للشارع، كم هو خال»، يقولها آن تلجأ الناس إلى سواتر الإسمنت.

- «تبا للشارع، كم هو مكتظ»، يقولها آن تسعى الناس، بين الهدنات، إلى شؤونها العجولة.

- «تبا لأهل العمارة، كم هم صانعيون»، يقولها لما تلتئم كل عائلة، كعادتها في تاريخ ما يجعلها عائلة، بالآباء، والأبناء، الصانعيين معاً.

«تبا لسكوتهم» يقولها حين يصعد الأدراج فيراهم جالسين في قلق، وقد احتضن بعضهم البعض، أو أحرص أحدهم الآخر عنوة، كلما أنطقه فرغ وعراه عويل.

هكذا سيصعد الطبقات الست، وقد تأخذ الحال من عجلته فيصعد إلى الطبقة السابعة. سيضع السلطليين على بلاط الردهة، باحثاً عن مفتاحه في أحد جيبيه. سيجد المفتاح. سيدفع به في قفل الباب. سيفتحه. سيحمل السلطليين دافساً بهما إلى الداخل. سيُردف الباب من خلفه. سيحمل السلطليين، ثانية، ماضياً بهما صوب الحمام. سيختلط عليه الأمر، بسبب لون الدهان في الممر، فالشق الشرقية متشابهة في هندستها، لكن لكل ساكن ذوقه في اللون. ولون الشقة الشرقية، في الطبقة السابعة، لا يشبه لون شقته. لذلك سيختلط عليه أمره، وسبحار قليلاً، قبل أن يبصر من يناديه، خارجاً بنصفه من غرفة النوم المواجهة للحمام تماماً. سيتمعن فيه «أ. دهر» ذهناً، ثم ينظر إلى الخلف كمن يبحث عن المدخل الذي عليه العودة منه بسبب خطأ في التقدير. لكن الواقع، هناك - نصفه في غرفة النوم، ونصفه خارجها - سيلح عليه بإشاراته أن تقدّم، وسيتقدم، وقد ترك سطلي الماء أرضاً. سيختفي المنادي قبل أن يبلغ «أ. دهر» باب الغرفة. سيمدّ بعنقه، كمتطفل، إلى داخلها. سيرى الذي ينبغي عليه أن يراه:

سيرى العجلة الخشبية الضخمة، التي تشبه البلاط بلونها، دائرة في مستوى أفقي، في أرض الغرفة، وقد اقتعد الشخص الذي ناداه وسطها الثابت، المنفصل عن الهيكل المسرع في دورته. سيتقدم جسمه الذي سبقه عنقه. ستتقدم خطواته. سيتقدم ظله وفضوله المرتعش. ستمكن عيناه من حصر المشهد حين يجاوز عتبة الباب. سيفتح فمه، هامساً في ذهن تشويه مرارة: «أنت؟».

غير أنه لم يخطئ قط صعوده إلى الطبقة السادسة. ولم يجاوزها، أعجولاً كان في صعوده أم متعسلاً. ويظل وصوله إلى الطبقة السابعة افتراضاً محضاً. ويظل افتراضاً أن يختار عمارة ستها، بدورها، في الجهة الثانية من البحر. لكن

يعن لنا، نحن الخمسة اللا مرتين، تدبير الافتراض على أنه واقع، في ماضٍ ما من هرم الإنسان. ولذا فلنقل إن «أ. دهر» سيختار عمارة بشائطي طبقات، في الجهة الأخرى من البحر. وسيصعد ستاً منها، في الأزمات، بسطلي ماء. ولربما أخطأ الطبقة السادسة فصعد إلى السابعة من عجلته. سيفتح الباب بمفتاحه. سيفتح الباب بالرغم من صغر مفتاحه على قفل ذلك الباب. سيدلف بسطليه، ثم يردف الباب خلفه. سيتجه إلى الحمام، لكنه سيلاحظ اختلاف لون الدهان في الممر. سيتراجع مستدركاً خطأه. إذ ذاك سيناديه شخص ما، بإشارات ملحاحة، من باب غرفة النوم. سيتقدم منه «أ. دهر». سيمد عنقه إلى داخلها مستطلعاً. سيرى الجدار الشرقي مفتوحاً على الأفق الشرقي: قضاء تعرض بعض فسحاته هوائيات التلفاز، ومثدنة واحدة، أما المدى، باتساعه، فلا يحده إلا الجبل الداكن بأزرقه في البعيد الأزرق. سيلفت إلى الشخص الذي استدرجه في نساؤل مكتوم: «أنت؟».

هذا ما قد نحاول تدبيره في الجهة الثانية من البحر. لكن العرف يقتضي منا ألا نتفكر في تدبير أمر لمن انتهى أمره. فالذي ينتهي يتهي، وكذلك مهمتنا. أما أن يظهر بعد أربعة أيام من انبهار عمارة «أبي كبر» على سطح السفينة هذه، فذلك يثير قلقاً فاحشاً. وبعد هذا كله، ما الذي نفعه نحن، هنا، على سطح السفينة الحديدي؟ أئمت للصرخة - التي ردتنا على أعقابنا: «ارجعوا. نسيتم أن تكونوا لا مرتين» - شأن بالذي يجري؟

نمت مغالطة في تفكيرنا لسيرة العلوم، وصلينا أن نساأل أنفسنا في الذي جرى بعد انبهار عمارة «أبي كبر»: أعدنا إلى حيث ينبغي لنا العود بعدما انتهى من نحن موكلون به؟ نذكر رجوعنا، إثر موت الطفل ذي الجسممة الرخوة، إلى منشأ أمرنا، فقبل لنا «ارجعوا» نسيتم ما نسيتموه... لكننا لا نلمس إشارة من قبيل هذه بعد انبهار العمارة. وكان حرياً بالأمر أن يتم على نحو محسوب. كان نعود من حيث جئنا، وقد انتهت المهمة، فتقبل عودتنا، أو تجري الصرخة المعهودة: «ارجعوا نسيتم». ونحن نعلم، يقيناً، أننا لم ننس شيئاً.

لكننا هنا الآن، على ظهر السفينة الحديدي، مصغين إلى تهتُّك المياه، وعيوننا لا تفارق عيني «أ». دهره المحدثين، كأنها يعبث، صامتاً، بكل الذي فاته من أموره وأمورنا، معاً، كأنها يقهقه فتختلج كثافتنا. نعم. نحن في جهة وهو في جهة، وبعد حين من الوقت سيلقي بمفاتيح بيته إلى المياه، وذلك ما سيحصلنا أكثر. سيرفع عن جسده المتمدّد ملاءته العسكرية السمكية، متقدماً، في الفجر، إلى سياج السفينة. سينظر صوب الغرب. سيتقرى مفاتيح بيته، ومكتبه، بيده، عابثاً بها في وداعة المستسلم، وسيرفعها إلى عينيه، متاملاً، ثم يرخي أنامله فتسقط، على مهل، في المياه.

ستكون سقطة المفاتيح هينة على جنب السفينة، بسبب الزيد المتسارع، لكنها ستجد لنفسها موقعاً تستثيره بسقطتها. وستنبعث حلقة صغيرة في الزبد، قبل أن تطويها حلقات أكثر بطشاً. وستنحدر المفاتيح، بعد تلك الحلقة الزرقاء، إلى سكونها تحت الطبقة القلقة، تحت القلق، تحت النسيج المتمزق الذي يدعى سطحاً. ستنحدر المفاتيح إلى سكونها. سينحدر هو إلى الأعماق، متهايلاً كالفقاعات، وقد صيرته المياه مُشكِلاً كحارقة لا يجد المكان سيلاً إلى الاعتذار عنها.

نعم. ستنحدر أشياء كثيرة إلى الهاوية الزرقاء، إنها ستنبعث، نحن الخمسة اللا مرئيين، بسياج السفينة، براحتنا التي لم تنسب، من قبل، بشيء، خائفين من تلك العواية المتبرجة، فجراً، وسط الزُّرْقَة المُحَكَّمَة كَحَبْلٍ في شهره الرابع. فنحن لا نريد أن ننحدر بدورنا، كالمفاتيح، إلى الأعماق. لقد وجدنا أنفسنا على ظهر السفينة، فجأة، وسبق على ظهرها، متفكرين في الأربعة الأيام الضائعة من تقويمنا المحسوب، بينما لا تفارق أنظارنا «أ». دهره، والفجر يمين، رويداً رويداً، على الجهة الثانية من البحر. لكن الفجر لا يبدد شيئاً، أو يوضحه، في هذه الجهة، مثله مثل الفجر في الجهة الأخرى، والفرق أن المفاتيح رُميت إلى المياه، هنا، قصداً، غير أنها كانت تسقط، هناك، من الذعر، إذ ترخي عنها الأيدي. ولما كان في المستطاع أن يستغني المرء عن مفاتيحه، في هذه الجهة، لأنه لن يجد باباً، فقد كان في المستطاع الاستغناء

عنها في تلك الجهة أيضاً. فطلقة واحدة، إذا أضعت مفاتيحك، كفيلة بتمزيق آيما قفل، والجدار الذي يلي القفل أيضاً. فالأسلحة راحة. الأسلحة تجعل التوازن ممكناً بينك وبين القفل، وبينك وبين جارك، وبينك وبين الحياة. لهذا، ريباً، وضع «أ». دهره فوهة البندقية في قفل المصعد، وأطلق النار. وقد تساءلنا: لماذا قفل المصعد وليس قفل الباب؟

عليه أن ينتظر هبوط المصعد، أو صعوده، ليرتقيه، لأن المصعد لا يُدَاهَم. غير أنه تجاوز تقديرنا واقتحم المصعد فلم يجد فيه أسداً. خلع الباب فوق على هاية هي مجرى العلبة الحديدية التي تقل السكان من الأسفل إلى الأعلى، في العمارة ذات الطبقات الشافي. وقد أطلق رشقاً من بندقية الآلية على ظلام الهوة فاهتزت الأسلاك الشخينة، وجاوب الصدى نفسه.

حدث ذلك، مرة، حين دخل ردهة العمارة ووجد المصعد لا يتزحزح عن الطبقة الرابعة، بدليل الإشارة المضئية التي تدل على وجوده هناك. ضنط زراً أخضر فما جاوبه المصعد. دار حول نفسه شامخاً، ثم قرع الباب ذا الشق الزجاجي قرعاً عنيفاً. دار ثانية حول نفسه أخرس كظله الأخرس. توجه صوب الدرج وصعد قفزاً. وصل الطبقة الرابعة فألقى باب المصعد غير مردود. والمصعد لا يصعد أو يهبط ما لم يكن بابه مردوداً. وكان، بحق، مصعداً قديماً، ينبغي ركله بقوة حتى يصطفئ بابه. فأصغر حصاة في ردهة المبنى التي لم يكنسها أحد من زمن سحيق، كفيلة بجعل الحركة الآلية للإقفال عسيرة. نعم. ركل الباب فكسر الحاجز الزجاجي الذي يتوسطه عمودياً، ثم أكمل صعوده قفزاً حتى الطبقة السادسة، فأخرج بندقية الآلية من شفته واقتحم باب المصعد.

غير أننا تفكرنا طويلاً في أمر ذلك اليوم. إذ كان عهدنا بهذا المصعد أنه يشتغل يوماً وينقطع لشهور: تسقط قذيفة أطلقت من المِحْلَة بسبب خطأ في قراءة الاحداثيات، أو تسقط قذيفة على المِحْلَة بسبب صواب في قراءة الاحداثيات، فيستسلم المصعد.

مصعد مستسلم، هو والدويّ أبداً على موعد، فلماذا اشتغل ذلك اليوم الذي أعقب وصولنا إلى العمارة، وكان مطلقاً ميتاً، فعبّرنا الدرج خلف «أ. دهر» إلى الطبقة السادسة؟

حدث ذلك مساءً، نعيّ إطلاق النار على الهاوية المظلمة لمجرى العلبة الحديدية في العمارة، فنُدّ صوت نباح من الأعماق كأنها اشتعلت، حناجر مائة كلب، فشم «أ. دهر»: «إخرسي يا بنات البول»، ولم يسائل نفسه، بالطبع، في أمر ذلك النباح الصاعد من الأعماق، بل حَسَبَ نفسه بعدما شتم ثانية، ثم رفع إحدى يديه يسدّها أذنه، في محاولة لحجب ذلك المدير الموحش، ولما لم تستقم له محاولته أفرغ ما تبقى من طلقات في قفل بابه هو، لا في ظلام العلبة الحديدية، فارتد الباب قليلاً وقد انطحن القفل وما يحيط به من خشب. إذ ذاك رجع خطوتين صوب المصعد، وألقى ببندقيته إلى الفراغ المظلم، صارخاً: «إخرسي»، ثم سدّ أذنيه براحتيه، ودخل الشقة التي سند بابها من الداخل بقارورة الغاز، وألقى بنفسه، بعد ذلك، على سجادة الممرّ الرثة، في إعناء مكتوم، دافئاً وجهه بين ذراعيه اللذين توسّدهما. وقليلًا قليلًا يرفع ذلك الوجه، حين تهدأ رثته لا قلبه، التي يفصلها عن أرض الممر نسيج حائل اللون، فاتر كحديث زوجين أنجبا كثيراً، ناظرًا إلى التلفاز الراكن إلى الزاوية قرب باب الحمام، بشاشته البيضاء المظلمة، مطبلاً في تحديق، تماماً كتحديقنا على ظهر السفينة هذه، حيث ترتخي يده فتسقط منها المفاتيح إلى المياه، في الجهة الثانية من البحر، منحدرًا إلى كثافة لا نعبأ إن كانت تشبه كثافتنا، لأننا، في حدود ما نحن عليه من هيئات، لم نتلقف مفاتيح ساقطة من الأعلى، كالتى تتخلق عليها المياه، الآن، وتفتتح لها، في دورة متعاقبة، فقاعة إثر فقاعة، قبل أن تستقر هناك، فوق الشعلة الرطبة لذاكرة الأعماق. أما هو فليفت بعنقه المتعب إلى جهة اليابسة، غرباً، بعدما أطال التحديق في الشرق الذي ارتخت بداء عن زيد السفينة، كأنها جاهد أن يوقفها طوال الليل. وقد التفتنا بدورنا، كمن تحرّر قليلاً من ذلك الثقل الذي توزع علينا، وعلى الشرق، معاً، بدفع من عيني «أ. دهر»، فألفينا الرصيف الكبير يقترب، وقد توسّطته عمارة على

شاكلة «أبي كير».

لكننا التفتنا إلى أعماقنا، من جديد، باحثين في أمر الأربعة الأيام التي تلت سقوط عمارة «أبي كير»، ولماذا ظهرنا نحن و«أ. دهر» معاً على ظهر السفينة هذه.

إنها أربعة أيام، وفيها ما فيها من حيوات، ونهب، ونسيان، وعصف، وخصام، وقطيع، وخبر، وكسر، وإغواء، وإبرام، وتقويض. أربعة أيام سرقنا بأنامل مأكرة، رغبة كرخاء هذا الفجر الشهواني، الذي شطر المعلوم بين باسيتين: ميناء المدينة هناك، ورصيف الأرض الأخرى هنا.

نعم. انهارت عمارة «أبي كير» طبقة عن طبقة. تقوّضت كأنها يدٌ كبيرة أموت على كعبه من سُوسم، فنفر بعض الحطام خارجاً، والبعض ارتدّ إلى داخل. والحديد، وحده، بقضبان الرقيقة الملتوية، كان يشير إلى فداحة لم يحتملها البنيان الذي بدا، قبل ذلك، جَسُوراً في وقفته، برغم ما تطاير من خزانات المياه على سطحه، وما تهاوى من سُرفات، وما انبعج من زجاج.

انهارت العمارة على الهواء وعلى «أ. دهر»، فها الذي مكّنه من صعود هذه السفينة؟ من الذي أحضره في هيئته الكاملة هذه، ولم ينس أن يحضر مفاتيح البيت، والمكتب أيضاً؟ من مكّنه من الحركة المتفتنة في أنامله لترتخي، هكذا، في دعة فخيمة، عن المفاتيح فتتهوي إلى الفرج المكين، هناك، في القاع الأنثوي؟

انهارت عمارة «أبي كير»، ولم يسلم محيطها، في قطر يجاوز أربعمائة متر، في المحلة التي عاد إليها قاطنوها، إثر الهدنة الدولية، والمواثيق المعلومة والمجهولة، التي ألقت بالمحاربين المخدولين إلى الجهة الثانية من البحر.

القضبان الحديدية مندلفة كالأحشاء. الغبار يقهقه، والمتحلّقون الكثر، الداهلون والفضوليون، ينحتون على الأنقاض محذّقين، أو يكتُمون أفواههم بالأيدي. والأصوات منقسمة على أنواعها من حول الهيكل المهذوم. ففيها كانت آهات الحسرة، ودمدمات العويل المكتومة، ورطانة النوح، وبُغْنة الأسف والحرق، وحروف الخلق المدربة على المواقف، مضافاً إليها، جميعاً، إبهات

التجسدة والتوسُّل من الأطراف، بدءاً بالكتف وانتهاء بالأنامل، مروراً بالأهداب وانتهاء بالأقدام التي تتحرك أمشاطها في الأحذية، بينما تبقى الأعقاب ثابتة على الرصيف، أو ترتفع، رُمَّةً، لتخبط خبطاً خفيفاً كما حَرَدَ الأطلاق.

نعم، فيما كانت الأصوات تتواتر من حول الهيكل المهذوم، كان النباح، في الوقت نفسه، يتواتر تحت الهدم، متعالياً، كأنها فُضْتُ اختتامٌ عن مائة حنجرة لمائة كلب. غير أن أحداً لم يُحر ذلك النباح سؤالاً، حتى بدا لنا - نحن الخمسة الراكنة كشافاتنا إلى شهواتها - أنهم تعودوا ذلك، وهم عارفون بمكمن الأمر ومصدره، فأزمننا أن نخض عن الأمر كله، فالذي صيَّر غاية توكيلنا فُتْدَتُهُ العِمارة كما تُفْتَدُ المصادفة هندسة الأكيد، وغدونا في حلٍّ من التبعات التي تلي صمت الحَيِّ، صمت عضله وخللاياه؛ صمت مثوله الأحق بين يدي الشهوة الرحيمة التي يُشْغِلُها بانكساره، أبداً؛ كأنها يُمعن، ببطولة النهاية، في تأكيد غديهِ المقامر بها لا يملك. فكيف انبثقتنا، معاً، على ظهر هذه السفينة؟

إنه يتطلع صوب الميناء الآن، كالآخرين تماماً، ويتحرك الحركة ذاتها التي يحدثها الآخرون: إنهم يقتربون من حافة السطح المسيج، فيتكثون على القضبان الأفقية، مدخنين، أو متلمسين جيوبهم وعبئهم نصف مغبضة في الفجر، كأننا يتأكدون من ممتلكاتهم الصغيرة المطوية في فوضى. لكن السفينة كانت كلها اقتربت بهت المكان، وأحى الميناء تدريجاً، فالفينا عِمارة «أبي كبير» وحدها، وشرقاتها إلى المياه. مدخلها إلى المياه. البوابة الحديدية على حالها، والزجاج غير مهشم، وثمت أزرار مضاءة على يمين المصعد الذي يلوح في ظل المدخل. وقد تفرَّسنا في الوجوه، جميعها، عسى نجد فيها حبرة كالتّي غرَّتنا من التبدُّل البين، فما رأينا فيها إلا الدَّعة الشاحبة.

ولما استقرَّتْ هُلْبَةُ السفينة في القاع، واستقرَّ هيكلها لصق الحافة الإسمتية، لم يبارح أحد مكانه، ولم ترتفع يد عن القضبان التي تسبيح السطح أفقياً. وحده «أ». دهره استدار دورة صغيرة ليعبر الشخص الوقوف خلفه، ثم تقدَّم إلى الجسر المصْفَح الذي وصل السفينة بالرصيف، ونزل في هدوء، متجهاً

صوب بوابة العِمارة. ولما أدركها أخرج بضعة مفاتيح من جيبه، ولم تكن تشبه، في لألئها، تلك المفاتيح التي ارتحت أنامله عنها فتلقفتها المياه. نعم. كانت شفيفة ذات ألقي، أعادها إلى جيبه حين دلف من البوابة، فتتبعناه. وقد وقفنا من خلفه إذ وقف، متجهاً بعينيه إلى الأعلى، حيث أزرار المصعد المضاءة تومض عكساً كدليل على هبوط العلبة الحديدية. وأن استوى مثولها فتح الباب وأوى إلى الركن المرتع المنور بضوء شحيح فأورنا إلى العلبة من ورائه. بعد ذلك صعدت العلبة الحديدية إلى الطبقة السادسة، حيث شفتها، فأخرج مفاتيحه، ثانية، وفتح الباب، ثم دخل فدخلنا. وحين أوصده خلفه أنجبه، هرولةً، إلى غرفة نومه، التي بدت مفتوحة على جهة الشرق، فما يجد امتدادها إلا سور الشرفة الواطي. وقد قصد «أ». دهر» ذلك السور، من فوره، فاتكأ عليه بصدره، ناظراً إلى أسفل، في لَهْفَةٍ مَنْ يَحْشَى قِوَاتِ امرٍ عليه. واستقام، من ثم، يعلو وجهه رضى خفيف.

ولما أدركنا سور الشرفة، بدورنا، ناظرين إلى أسفل، لم يُفْئِنَّا مقصده: كان يطمئن على وجود السفينة هناك. وقد كانت هناك، بحق، ضخمة، مديدة، أكثر عرضاً من المبنى، ومن رصيف المبنى الذي بات أشبه برصيف ميناء. فيما بدا الشرق، برُمته، مفتوحاً على أحواض رؤوس بعيدة، استدخلها، بعد حين، سفن كثيرة لم تُخَفْ علينا وجهتها أن رأيناها عابرةً، شرقاً، وكنا عابرين بسفینتنا تلك غرباً. و«أ». دهره يعرف ذلك؛ يعرف أننا كنا نتأمل برهةً، في تمحده تحت ملاءته العسكرية، على ذلك السطح الحديدي، ونأمل السفن الجارية عكس اتجاهنا برهةً أخرى. وكان هو، أيضاً، يَرِنُ المشهد على نحو ما كنا نَرِنُ به المشهد: عين علينا، وعين على السفن، متممداً، هكذا، ولغافته المشتعلة لا تفارق شفتيه. وقد عن لنا أن لعبة ما تتواقف مع هذا اليقين الصارم في أنه يرانا. ولكننا جَرْنَا حين نزل «أ». دهره الجسر الحديدي، الذي وصل السفينة بالرصيف، ولم يلتفت إلينا، وأبقى رأسه مطاطاً إذ صعدنا معه المصعد.

يقيناً، منذ أمد لا نعرف مداه، حاولنا أن نلفت انتباه هؤلاء المرتين، بها

ملكنا من حبل، فما قدرنا. لقد غيرنا، مراراً، في أماكن وسادة الطفل ذي الجمجمة الرخوة، فظننت أمه أن الأمر حصل بسهولة منها. وسدّلنا كثيراً في أماكن حذاء «أ. دهر»، وأدوات حلاقته، ومنامته، فظن في الأمر شروداً منه. حتى أننا غيرنا في ساعته، فعزّا ذلك إلى ساعته. وكدنا نغير بعض السنين من عمره، كأن نؤجلها، أو نعجلها، فأدركنا أن لديه من المقدرة ما يبرر ضياع ألف عام، واستحداث ألف عام، فحجبنا أنفسنا عن ذلك.

سيكون لنا يقين آخر إذا صرنا مرثيين، لكن «أ. دهر» حزين، وها هو ينظر، الآن، من شرفته، في الطبقة السادسة، إلى سطح السفينة الذي ينخفض عن مستوى شرفته بمقدار قليل، ويكاد يوصى للمحاربين في ثيابهم الخضراء، والمرقطة، لكنه يكتفي بنقل بصره بين الوجوه، في حنوّ. أما هم فكانوا ينظرون، لا إليه فحسب، بل إلى الشرفات جيعاً، كأنها توشك السفينة أن تبلغ بهم الميناء، في الجهة الثانية من البحر.

بيد أن المياه متهاوجة، قليلاً، لصق رصيف الميناء هنا، وكانت رحيّة على رصيف الميناء هناك، في الفجر الذي يشبه هذا الفجر، برطوبته التي تضيء على الجلد ثقلاً. وكان في استطاعتنا رؤية رموش عينيه مبتلة بللاً لا يرى إذا لم ينعكس عليها شعاع جانبي، غير أننا رأينا البلبّل ذاك، من مكمننا الذي يبعد عنه امتاراً قليلة، على سطح السفينة، في الليلة التي سبقت الفجر المهيمن الآن، لا بأثر من شعاع ماء، بل بالذي عكسته عيناه بتحديةهما فينا. وفيما نحن بين ظنننا ويقين، آنذاك، من أنه يرانا، لمحنا تلك السفن التي كانت تجري معاكسة، والتي سترسو، فيما بعد، في الأحواض الكبيرة المفتوحة على البعيد، شرقاً، حيث سيمنح حصرها، من شرفة «أ. دهر».

نعم. سترسو، من ثم، بأشكال أخرى، على غير ما كانت عليه حين قُدمت. وقد تعقبناها، في الليلة التي سبقت وصولنا إلى «أبي كير» على سفينتنا، متهادية صوب الشرق، بظلال معكوسة في ظلام المياه، واضحة في الأعماق باناسها الملتصين. أما على مستوى السطح الرمادي الداكن، المديد من حولنا، فلم يكن لتلك السفن أثرٌ منظور، حتى أننا كنا نرى، على جهتين، البوارج

الأمريكية سارحةً على اتجاهنا ذاته، بحسب مواثيق أوكلتها بحماية المنفيين هؤلاء، في ارتجال لا يرى الإنسان إلا ارتجالاً.

كنا نجري وسفن الحماية المضحكة غرباً، ونجري السفن الأخرى شرقاً، متقاربين، تتأملنا مياه واحدة، غيرة قليلاً، على جهاتها أجمعين، بدلالة أنها كانت تنهيء الموانئ الغربية على صورة الشرق، فيما أن نخرج «أ. دهر» من عبارة «أبي كير»، هناك، حتى تبلغها هنا. أما الجهتان الأخريان، بالرغم من أننا لم نَر تقابلاتهما، ونماهيتهما، فلا يفوتنا أن الشمال - مثلاً - مرآة أعماق الجنوب، لا ظاهرة. والجنوب هو سطوة الشمال الظاهرة، لا الخفية.

ما هم إن قدرنا على التوضيح أم عجزنا، لكن الثابت في مقادير الأمور أنها كانت تجري على هذا النحو العقل المنتظم، الصارم أيضاً. ولا تضيرنا المبالغة في وصف الجهة الغربية من البحر، قبل أن يتبدّل المشهد المفتوح على رصيف الميناء إلى مشهد مغلق بعمارة «أبي كير». فقد كنا نرى الهلبة تغور إلى مستقرها بين صخور القاع، ونسمع المحركات تهدأ بضربات من سوط المروض الذي لا يرى، أما المحاربون، الذين بدأوا يتململون واحداً بعد الآخر، في رقادهم، ويستوون جالسين، دون أن تفارق جسامهم أعظيتهم العسكرية السمكية، فقد ألقوا نظرات باهتة أحدهم على مَنْ يجاوره، وعادوا فَنَضَوْا الأغطية، وطووها دون عناية، باحثين في جيوبهم عن تبغ اشتعلت لفافاته تباعاً، في هدوء. وكانوا، كلما استكمل الصباح نسجه المضاء، تدرجاً، يتجمعون أكثر فأكثر على سياج السفينة، من الجهتين الشمالية والجنوبية، وقد انحنى سوادهم، بأعناق ملوية صوب الميناء، يستقرون الغيب المفتوح على ضباب معتكر المزاج.

وبهمة لم يكن فيها فضول أو عجلة طوى «أ. دهر» غطاءه العسكري، بدوره، دون عناية، كالآخرين، وتركه على السطح الحديدي، متجهاً إلى مؤخر السفينة لينحني بصدرة على السياج، ناظراً إلى الزبد الذي يتداعى. ودار، بعد ذلك، على عقبه، ليُسْقِط مفاتيحه في المياه؛ مفاتيح بيته ومكتبه، ولينظر إلينا، من ثم، نظرة من أنجز المهمة، فحزنا، بحق، في ذلك، كحزبنا

الآن وهو ينظر من شرفة بيته إلى السفينة الراسية قبال عمارة «أبي كبير»، والمحاربون لا يغادرونها، معنيين تحديقاً في شرفات الطبقات الثاني، كأنها ينتظرون إشارة تنزل الجسر الحديدي الذي سيعبرون عليه إلى الجهة الأخرى من أعمارهم.

نعم، تقريناً الشرفات الثاني للعمارة، متكئين بصدورنا، مثل «أ. دهر»، على سياج شرفة بيته، ناقلين أبصارنا من الأسفل إلى الأعلى، فبدا كل شيء على حاله: الرصيف المُحْفَر - حيث رست السفينة - بأثار قذيفتين، وشرفة الطبقة الثانية التي انبجج حديدتها.

وحين غادر «أ. دهر» الشرفة، عائداً إلى داخل المنزل، تتبناه، فلم نجد ما تغير: التلفاز في الركن، قرب باب الحمام. سجادة الممر الرثة علاها غبار خفيف، بل كثيف. فهي كانت مغبرة منذ زمن، على أية حال. امرأة الحمام - التي تقشر طلاء الزئبق عن ظهرها، فباتت صورة الوجه لا ترى إلا مقطعة - مالت قليلاً. إذ انفصل مسمار صديء عن إحدى الحافات بفعل الارتجاج ما. الخشب الممزق من حول قفل الباب، المنتهك برصاصة، معاذ جبره، على نحو سريع، برقع مخلخلة من خشب رقيق متشق. الستائر، ذات الرقائق المعدنية المقعرة، المتوازية عرضاً، والمتراصفة واحدها فوق الأخرى، حيث تسندها حبال رقيقة تمر من فتحات في أطرافها، فتغلق أو تنفتح، إذا شُدَّت تلك الحبال إلى أسفل. أي، الستائر هذي، كانت متكورّة إلى الداخل، بنفخ قوي من قذائف أصابت سطح المبنى المقابل، ذي الطبقتين فحسب، وقد سدَّت السفينة مرآة الآن.

الأشياء الأخرى غير ذات شأن: نعمني باب المطبخ الخارجي، مثلاً، الذي ظل مفتوحاً خشية انكسار زجاجه. وباب البراد المفتوح، بدوره، لخلوة من أي شيء. الكنبية الخضراء، على الشرفة، وقد تمزق بعض حواشيها. زجاجه الجعة الفارغة متكئة على إحدى الزوايا دون أن تسقط تماماً. حبل الغسيل المعقود من وسطه الذي تقطع ذات مرة. والرطوبة ذاتها، الوديعة كهرة، والمكتنزة التي تلتهم المعلوم والمجهول، معاً، بضمها الذهبي، تترنص

بالمكان كذلال يرتص بأمية.

و «أ. دهر»، الذي يتكفي، إلى الداخل، يفتعد سجادة الممر، مستنداً بظهره إلى الحائط الشرقي، ناظراً يميناً إلى شاشة التلفاز المطفاة، ثم يلتفت شيئاً صوب الباب وقد غلّت من خلفه ضوءاء غير معهودة، لأن العمارة كانت مقفرة، لأميد، بسبب القصف اليومي الذي جعل السكن مستحيلاً في تلك المنطقة، بينما سلمت مناطق أخرى من المدينة، نزح إليها من نزح.

في توحش نهض «أ. دهر» من مجلسه متجهاً صوب الباب. فتحه ومدّ عنقه مستطلماً، فآلفى أولاد الجيران الخمسة يستعرضون ظواهرهم، فعراه بعض الدهش. وإذ لمح الأولاد على ذلك التحرقفوا من ضوضائهم تحجلين، فبادرهم:

- متى رجعتم؟

فنظر واحد منهم إلى الآخر، ثم طأطأوا مبتسمين. فكرر سؤاله، لكنهم انسلبوا إلى باب شقتهم، وطرقوه أجمعين، في عجلة، ففتحتهم أمهم، فدلّفوا في ارتباك. وإذ لمحها «أ. دهر» وكان يتتبع بعينه الأولاد المنسلين، بادرها بدورها:

- متى رجعتم؟

فرفعت المرأة عينيها إليه، وقد مدّت عنقها ناحية بابها، ثم ابتسمت محيية، كأنها تشتم من سؤاله مزاحاً. وإذ كرر سؤاله ذاك، ردت المرأة وابتسامتها على حالها:

- رجعنا إلى أين؟

فرفع حاجبيه: «إلى هنا»، وأشار إلى شقتهم بيده. فسأله المرأة ضاحكة:

- وأين كنا؟

فاكتست ملاحه بعض ارتباك، قطعه فجأة مالك العمارة، دالفاً من باب المصعد:

- «مرحباً أختي»، حياً المرأة في تهذيب، والتفت إلى «أ. دهر»، مبدئاً ترحيبه

المتكلف:

.. أووه. كيف حال يدك؟

فنظر «أ. دهر» إلى يديه معاً مستغرباً: «يدي؟». وتطلع إلى مالك العمارة مستوضحاً أي يد يقصد، فالتفت الأخير إلى المرأة التي لم تبارح الباب:

- لم أر زوجك منذ مدة، أهو على ما يرام؟

فردت المرأة: «إنه مشغول قليلاً. يتأخر في المجيء»، لكنه في خير.

فألوى مالك العمارة عنقه، وهو لم يزل واقفاً لصق المصعد، صوب «أ.

دهر»، وغمزه بإحدى عينيه، فابتسم الشاب مجاملة، فتقدم منه الرجل الشاحب من أثر مرض السكري، ذو السترة البيضاء أبداً، وحك إبهامه بسببته، بعدما رفع يده إلى مستوى ذقنه، كإشارة يُشتمُّ منها معنى النقود. فهزَّ «أ. دهر» رأسه متسائلاً عن مغزى ذلك، فبادره مالك العمارة في همس متكلف، بدوره:

- عليك ايجار شهرين لم تسدّدهما.

فما كان من «أ. دهر» إلا أن يتطلع إلى المرأة هناك، شمال شقته، وإذا ألفاها راكنة إلى مدخل بابها ابتسم دون داع، وطلب من ذي السترة البيضاء الدخول. ولما صار الرجل الشاحب داخلًا بادره الشاب مستدركاً:

- أي شهرين؟

فألوى الشاحب برأسه إلى إحدى الجهات، هامساً: «أووه» كمن يعاتب شخصاً على سوء ذاكرته. غير أن «أ. دهر» تجاهل ذلك، سائلاً سؤالاً يلح عليه:

- أيشغل المصعد؟

فتفرس الشاحب فيه برهة، ثم تطلع إلى المصعد المواجه للباب قائماً، من خلف كتفه:

- «كان يتعثر بسبب رداءة التيار الكهربائي، لكنه لم يتوقف بالطبع»، واستدار برأسه إلى «أ. دهر» مكرراً كلمة «بالطبع». وأردف مستدركاً:

- أحدث خلل ما؟

فرجع «أ. دهر» ذراعيه، مفروقتين على جانبي جذعه، في توسلٍ مُستهجن:

- من دون كهرباء لا يشتغل المصعد. وشهران دون كهرباء يعني أن المصعد تعطل شهرين. اليس كذلك؟

ثم التفت شمالاً، ويميناً، في تساؤل فكّ:

- لا تملك مضخة كهربائية تخص المبنى إذا انقطع التيار.

لقد كان شأن العديد من العمارات تدير محولات كهربائية تستخدمها، من آن لآخر، بسبب الشلل المتعاقب الذي استحکم في مرافق الطاقة، والهااتف، والمياه، خلال سنين الحرب المعلومة، حتى التاريخ السابق بشهرين لصعود «أ. دهر»، ثانية، إلى عمارة «أبي كبير». غير أن الرجل الشاحب أشار إلى خصيتيه، على نحو مازح، ثم استرسل بيده فأمسك بهما وسط فخذه:

- هنا المضخة الكهربائية.

وضحك حين رأى بعض الاستحياء على ملامح «أ. دهر»، مردفاً:

- لماذا نحتاج إلى مضخة والتيار لم ينقطع؟

ولما لمح عيني «أ. دهر» الغائبتين برغم تحديقهما فيه، حاول إبداء شهامة مُعْتَصرة:

- لا عليك. كلنا إخوة. قسّطُ بدّل الشهرين على سنة. كل شهر يدفع

عشر ليرات زائدة. ها؟

وصفق يديه، ثم عفدهما، كفّاً إلى كفّ، كمن أنهى مُشكِلاً مستعصياً، مضيقاً، في استطراد:

- «سألوا عنك اليوم»، وأشار برأسه يميناً، فالتفت «أ. دهر» تلقائياً إلى

حيث أشار الشاحب، فاصطدمت عيناه بالخائط الأبيض، فاستدرك متسائلاً:

- من تقصد؟

- «أهلك»، ردّ الشاحب: فنذت همسة استغراب من بين شفقي «أ.

دهر»:

- «أهلي؟»، وأعقبها برفع كتفيه: «أهلي؟»، وأرخى فكّه كأن في الأمر

سوء فهم مضحك. ولما وجدَ وجهَ الرجل الشاحب على هيئة جادة، ردّد: «أهلي؟؟»، واستوضح: «أين هم؟». ثم ابتسم، فابتسم الرجل الشاحب أيضاً، وقد أمال عنقه في تطلعٍ مازح:

- «ربما هربوا»، وسوى عنقه، بعد ذلك، ناظراً إلى عيني «أ. دهر» مباشرة:

- «صارحني، أنتم متخاصمون؟

فتفرّس فيه الأخير: «أنا وأهلي؟»، وأردف دون انتظار جواب:

- وماذا تنتظر من أناس على بُعد كهذا؟

ثم أطرق، كأنها الرجل الشاحب على علم بالمسافة التي تضمّنتها كلماته. بيد أن مالك العمارة أشار بياهم يده اليمنى جنوباً، مختصراً الحوار:

- ليسوا بعيدين. لا تقل لي ذلك. سألوا عنك. هم جيرانك. أنتم متخاصمون؟ أنا مستعد لبذل وساطتي.

فلجّم «أ. دهر» ابتسامة ساخنة كادت تصعد من زاويتي فمه إلى خديه، وسأّل الرجل الشاحب: «أين هم؟»، في فضول واضح، فلم يجبه مالك العمارة، بل دار على عقبيه، بعد وقوفٍ استغرق المحاورة كلها في الممر الموازي لباب المطبخ، وخرج من شقة «أ. دهر». وإذ صار على بعد خطوتين من العتبة المواجهة للمصعد التفت إلى الداخل، حيث وجه الشاب المتأمل، وأشار إليه:

- اتبعني

ثم التفت إلى يمينه فألقى المرأة، ذاتها، واقفة في باب شقتها، كأنها لم تغادر إلى الداخل كل تلك اللحظات، فبادرها، ثانية: «كيف حال زوجك؟»، ولم ينتظر جوابها المعتاد، إذ نزل الدرج فتبعه «أ. دهر» بعدما أردف الباب خلفه، وحيّاً المرأة بدوره: «كيف حال زوجك؟».

على الدرجات، نزولاً في ما يشبه القفز، تتالت من خلفها كلمات المرأة: «مشغول. زوراء مساءً إذا استطعتم»، وأردفت جملتها تلك بلفظة «الباب»، كأنها قصدت أن باب شقة «أ. دهر» لم ينغلق، لأن اصطفاقاً ثانياً علا في ردهة الطابق السادسة، وتردّدت كلمة «تمام» مترافقة مع قيامها، هي، بإغلاق

الباب. أما الرجلان فتابعاً انحدارهما على الأدراج، حتى وصلا مدخل العمارة، فاستدارا صوب الدرج الذي ينحدر نزولاً إلى القبو. وكان «أ. دهر» يتبع المالك، بطريقة آلية، غير أن حركات الرجل الشاحب كانت تنم، في كل برهة، عن دعوة الشاب إلى اللحاق به، وقد غرّت وجهه مسحة واثقة. وفي النفق المعتم الذي سلكاه، وسط نباح مكتوم يعلو من جهات تختلط على الأذن، سأل «أ. دهر» الرجل الشاحب:

- لم أفهم إلى أين نحن متجهان؟

فرد الآخر، ماضياً قُلماً:

- إلى العمارة المجاورة. أهلك هناك.

فتوقف الشاب من فوره: «اسمع». ولما رأى الشاحب متقدماً، كرّر:

- «اسمع». أبتغي أن نتوجه إلى العمارة المجاورة من هذا النفق؟»

وأردف: «نستطيع بلوغها من الشارع أيضاً. أليس كذلك؟».

فتمهل الشاحب، وهو يكاد يمتزج بظلام النفق وبالنباح المكتوم، القادم من مسافة ضائعة:

- «ألا تريد أن تراهم؟ هههم، فرد «أ. دهر» من فوره:

- لا أهل لي في هذا البلد يا صاحبي. أهلي ليسوا هنا. وأنت

حيّرّني..

فاستدار الشاحب عائداً صوبه:

- «ليس أهلي من سألوا عنك»، قالها ساخراً. «وليسوا أهلي أيضاً ردّ

«أ. دهر» في سخريّة بمائلة. فوضع الرجل الشاحب يديه تحت إبطيه، في

مواجهة الشاب، بطريقة يُشتم منها نفاذ صبر، متمتماً:

- أترجع؟

فأجابه «أ. دهر»:

- نرجع بالطبع، إذا كنت مصرّاً على مزاحك. أهلي في بلد آخر. في بلد

آخر.

كنا، نحن الخمسة اللامرئيين، نصغي إلى محاورة محبوبة كهذه، في

مسافة النفق، لكن النباح، الصاعد من مكمن أعمى، ألهانا قليلاً عما حوَّضنا فيه :

- «أنا راجع» قال «أ. دهر»، فصاح الشاحب :

- «إرجع إذا شئت. ضيَّعت وقتي معك». وهم بالرجوع من حيث جاء، فاعترضه الشاب :

- «أنت جاد؟ أهلي في العمارة الثانية!!»

- «انظروا ردَّ مالك العمارة، وقد ألوى عنقه متأثراً. واسترسل :

- «كم عمرك؟». ومن غير انتظار لجواب «أ. دهر» رفع يده عالياً :

- «عمرك لا يعني. أنت في عمر ابني.

وتوقف ملتقطاً نفساً : «أنت في عمر ابني لو تزوجت قبل...»، وبدأ يعد

على أصابع يديه في ظلام النفق المضاء بضوء شاحب، متسرب من حيث لا

ندري : «لو تزوجت قبل...»، ردَّد، فاختلف ما تبقي من جملته بالنباح الذي

اشتد، بغتة. فشَدَّ مالك العمارة «أ. دهر» من كم قميصه، وهو ما يزال

متمتماً : «نعال»، فانهدر معه الشاب إلى خواء النفق على مهل، وقد عمد إلى

التملُّص من يد الرجل الشاحب دون أن يحرز نجاة.

بعد تقدُّمها خطواتٍ محدودة همهم «أ. دهر» :

- «دع كم قميصي. سيتمزق»، فاعتذر الشاحب : «أوه. معذرة.

نكاد نصل»، وأرخى أصابعه من كم القميص.

نعم. أرخى أصابعه وعاد يشمها كعادته. وهو يشمها، بحق، كلها لمس

شيئاً، في تلقائية متصلة. وهذا ما فَرَّجنا على رؤيته مُدَّ دخل الشاحب إلى ردهة

الطبقة السادسة من عمارته : أردف باب المصعد خلفه وشمَّ أصابعه. حيَّ المرأة

الخارجة برُبَّع جذعها من الباب، وشمَّ أصابعه. سلَّم على «أ. دهر» وشمَّ

أصابعه. حكَّ أذنه وهو يحدث الشاب، وشمَّ أصابعه. أحكَّم رباطه عنقه.

دون داع، وشمَّ أصابعه. ولما بلغا، هو والشاب، قبو العمارة الأخرى، عجز

النفق، رفع أصابعه إلى أنفه قبل أن يهمس :

- «من هنا أفضل»، مشيراً إلى النفق من خلفه. ثم تمتم :

الشارع...، وتفرَّس في وجه «أ. دهر» مضيقاً : «أكنت تريدنا أن تأتي هذه

العمارة من الشارع؟». وهزَّ رأسه ساخرًا :

- لا مدخل إلى قبوها إلا من هنا.

وإذ لمح فضول «أ. دهر»، وهو يتطلع من حوله مستكشفاً ذلك المكان

الضيق الشاحب، بادره : «من هنا»، وقرَّع على باب لم يكن يُرى، بسبب

ثمائل لون صفيحه الصديء مع الجدار الصديء، فرد صوت مختنق، من

الداخل، بلغةٍ يعرفها «أ. دهر» : «من هناك؟»، فأجفل الشاب، ثم ارتدَّ، ثم

دار على عقبه مهولاً من حيث أتى، نافخاً في ما يشبه الذعر :

- أهلي ليسوا في هذا البلد.

ولم يتوقف في أثناء رجوعه إلا برهةً أشعل فيها لُفافةً، على عجل، دون

التفات إلى الرجل الشاحب الذي جأز بغتة :

- شهران. لي شهران في ذمتك، وأريد بدل الاستئجار الآن.

غير أن «أ. دهر» أكمل انسحابه حتى قبو عمارة «أبي كبير»، وصعد

الأدراج إلى المدخل، حيث المصعد، فضنط الزر، وانتظر في توتر واضح، ولما

جاره الشاحب، خارجاً من القبو، لم يلتفت إليه. وإذ لمس صاحب العمارة

كنته، ملفتاً نظر الشاب إليه، ومهذِّباً من انفعاله في الوقت ذاته، انتفض «أ.

دهر»، وابتعد خطوة :

- ماذا تريد تحديدًا؟ أي شهرين رأي أهل؟

وركل باب المصعد قبل أن يهَمَّ بمواجهة الرجل، متحفزاً كأنها

سيصفعه. غير أنه جدد قليلاً، ناظرًا إلى كفه التي استرعت بالدم الذي صيفها،

فمسح بها على الخائط، وتطلع إلى راحتها عسى يجد جرحاً فما وقع على خدش

فيها. فمسح بها على الخائط ثانية، تحت بصر الرجل الشاحب، الذي همَّ

بالصرخ بما يفعله «أ. دهر» من تلطيخ لردهة عمارته. وإذ استوى المصعد

نازلاً، فتح الشاب بابَه ودخل، فلم يلحق به مالك العمارة، بل همَّهم وهو

يخبط الأرض بحداته :

- تنكروا لهلك!! يا لك...

وكانها لم يشف ذلك غليله، فأردف :

- كُلُّهُمَا. كُلُّ الشَّهْرَيْنِ. كُلُّ بَدَلٍ اسْتِجَارَ الشَّهْرَيْنِ. كُلُّ الشَّهْرَيْنِ الْقَادِمِينَ أَيْضاً إِذَا أَرَدْتَ.

والوَيْ بِحَنَقِهِ صَوَّبَ مَخْرَجَ الْعِمَارَةِ سَاخِرًا، فَقَدْ أَدَّى مَا تَوَجَّبَ عَلَيْهِ كَشْهْمُ جَعْلِ الْكَلَامِ الرَّصِينِ، مِنْ هَذَا النُّوعِ، شَاهِدًا عَلَى حِكْمَةِ رَجُلٍ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ. وَهُوَ يَتَبَاهَى، قُطْعًا، بِكَوْنِهِ يَقُولُ كَلَامًا كَهَذَا دُونَ دِرَايَةِ بِالْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ. نَحْمُ. لِطَامُ شَاخِبٍ كَجِلْدِهِ الشَّاحِبِ.

.. و «أ. دهر» بِمَضْيِ صُعْدًا فِي الْعَلْبَةِ الْحَدِيدِيَّةِ، الْمَضَاءَةُ مِنْ سَقْفِهَا، دُونَ أَنْ يَرْفَعَ بَصَرَهُ عَنْ رَاحَتِهِ الْمُدْمَاةِ مِنْ أَثَرِ جَرَحٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ. وَهُوَ يَقْلِبُ رَاحَتَهُ، وَسَاعِدَهُ، وَغَضْضَهُ أَيْضًا. بَلْ يَقْلِبُ رَاحَةَ يَدِهِ الْأُخْرَى، وَسَاعِدَهَا، وَغَضْضَهَا أَيْضًا، ثُمَّ يَنْظُرُ إِلَى صَدْرِهِ، فَبَطْنَهُ، فَسَاقِيَهُ، عَسَى يَقَعَ عَلَى جَرَحٍ يَتَكَشَّفُ مِنْهُ سَبَبُ وَجُودِ دَمٍ عَلَى رَاحَتِهِ. غَيْرَ أَنَّهُ صَرَفَ النَّظَرَ عَنْ الْأَمْرِ كُلِّهِ حِينَ وَصَلَ الطَّبَقَةَ السَّادِسَةَ، فَتَرَجَلَ مِنَ الْمَصْعَدِ، وَغَبَرَ الْبَابَ الَّذِي فَتَحَهُ إِلَى شَقَّتِهِ. ثُمَّ مَضَى، فِي هَدْوِهِ، إِلَى الشَّرْقَةِ، فَتَبَعْنَاهُ، نَحْنُ الْخَمْسَةُ بِكَثَافَتَانَا الْمَلْجُومَةِ، مَلْفَقِينَ بِصُدُورِنَا، مِثْلَهُ، عَلَى الْحَاجِزِ الْحَدِيدِيِّ، نَظَّارِينَ إِلَى أَسْفَلٍ. لَا. بَلْ إِلَى مَسَافَةٍ أَقْرَبَ إِلَى مَدَى الشَّرْقَةِ ذَاتِهَا، حَيْثُ السَّفِينَةُ لَمْ تَزَلْ عَلَى حَالِهَا، قِبَالَةَ مَدْخَلِ الْعِمَارَةِ، وَالْمَحَارِبُونَ يَدْخُلُونَ لِفَافَاتِهِمْ عَلَى سَطْحِهَا، وَهِيَ لِفَافَاتٍ سَيَسْخَقُونَهَا بِأَحْدِيثِهِمْ بَعْدَ قَلِيلٍ، دُونَ أَنْ يَلْقَوْا بِأَعْقَابِهَا إِلَى الْمِيَاءِ.

هَكَذَا كَانُوا يَفْعَلُونَ حِينَ اعْتَلَوْا هَذِهِ السَّفِينَةَ. لَمْ يَكُنْ يَنْتَظِرُونَ وَصُولَهُمْ إِلَى حَافَاتِهَا، مِنَ الضَّجَرِ، فَيَلْقَوْنَ بِأَعْقَابِ لِفَافَاتِهِمْ إِلَى السَّطْحِ الْحَدِيدِيِّ، ثُمَّ يَدْعُوكُونَهَا بِالْأَحْذِيَّةِ. أَمَا «أ. دهر» فَكَانَ يَدْعُوكَ بِحِجْرَةِ الْفَافَةِ بِيَدِهِ، عَلَى السَّطْحِ ذَاكَ، فِي الْمَرِّ الَّذِي شَكَّلَهُ الْمَحَارِبُونَ الْمُتَمَدِّدُونَ، عَفْوِيًا، لِيَفْسَحَ بَعْضُهُمْ فِي الْمُرُورِ لِبَعْضٍ. وَكَانَ النَّسِيمُ اللَّيْلِيُّ يُؤَجِّجُ الشَّارَّ النَّارِيَّ وَيُدْحِجُهُ، حِينَ تَفْتَتِحُ حِجْرَةَ الْفَافَةِ، إِلَى مَسَافَةٍ قَلِيلَةٍ قَبْلَ أَنْ تَحْبُو. وَمَا مِنْ عَيْنٍ نَصَفَ مَغْمُضَةً، أَوْ مَفْتُوحَةً عَلَى وَسْعِهَا، اكْتَرَتْ أَنْ شَبَّتَ نَارًا، مِنْ جَرَاءِ ذَلِكَ، فِي الْمَلَأَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْمَبْسُوطَةِ مُتَرَاصَّةً عَلَى مَدَى السَّطْحِ.

عَيُونَ كَثِيرَةٌ كَانَتْ تَنْظُرُ إِلَى أَحْدِيثِهَا، أَوْ إِلَى السَّمَاءِ، أَوْ الْمِيَاءِ، وَعَيْنَا «أ.

دهر» إِلَيْنَا: عَيْنَانِ تَتَفَرَّسَانِ فِي هَيْئَاتِنَا، فَتَظُنُّ أَنْ الْحَقِيقَةَ شَكْلٌ مَغْلُوبٌ عَلَى أَمْرِ الْحَقِيقَةِ. وَأَنْ كُلَّ شَيْءٍ آخَرَ مَكْرُورٌ، حَتَّى هَذَا الصَّبَاحُ الْمُتَشَبِّهِ بِنَفْسِهِ أَمَامَ سَفِينَةِ تَرْسُو، فَجَاءَتْ، عَلَى مَقْرِبَةٍ مِنْ عِمَارَةِ «أبي كبير»، كَأَنَّ الرَّصِيفَ كَانَ مَهِيًّا مِنْذُ مَا لَا نَذَرِي، وَكَذَلِكَ الْبَحْرُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْجَهَةِ قَطْ.

ثُمَّتُ شَبَّهَ قَاسِمٌ يَنْجَلِي - رَوِيدًا رَوِيدًا، وَسَطَ النُّظَرَاتِ الْمُتَبَادِلَةِ - بَيْنَنَا وَبَيْنَ «أ. دهر»، عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ هَذِهِ، الَّتِي يَلْقِي نَظْرَةً عَلَيْهَا مِنْ شَرَفَةِ الطَّبَقَةِ السَّادِسَةِ، وَيَتَرَاوَجُ بَعْدَ التَّأَمُّلِ فِي يَدِهِ الْمَلْطُخَةِ بِالدَّمِ، كَأَنَّهُا يَسْتَدْرِكُ شَاغِلًا صَغِيرًا فَاتَهُ. وَلَمَّْا يَصِيرُ إِلَى الْبَابِ الْخَارِجِيِّ يَفْتَحُهُ، وَيَخْرُجُ بِنَصْفِهِ مُتَجَهًّا بِوَجْهِهِ صَوْبَ بَابِ الْجِيْرَانِ، فَيَرَى الْمَرَأَةَ مَا تَزَالُ مَطْلُفَةً بِنَصْفِهَا. فَيَبْادِرُهَا سَائِلًا:

- مَتَى رَجَعْتُمْ؟

فَتَبْتَسِمُ، كَأَنَّمَا تَنْتَظِرُ سُؤْلَهُ: «كَمْ مَرَّةً سَتَكْرُرُ مَا تَقُولُ؟ نَحْنُ لَمْ نَفْادِرْ. أَنْتَ لَمْ تَفَادِرْ». وَبَادِرْتَهُ، مِنْ ثَمَّ:

- لِمَاذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ الْبَارِحَةَ؟

فَزَمَّ «أ. دهر» عَيْنَيْهِ، مُرَدِّدًا: «الْبَارِحَةَ؟ الْبَارِحَةَ؟».

أَيَّةُ بَارِحَةٍ تَقْصِدُ الْمَرَأَةَ، وَقَدْ وَصَلَتْ السَّفِينَةَ إِلَى جَوَارِ عِمَارَةِ «أبي كبير» هَذَا الصَّبَاحِ، وَلَا فَرْقَ إِنْ كَانَ الْوَقْتُ ظَهِيرَةً، الْآنَ، أَوْ أَكْثَرًا. وَلَئِنْ الْمَحَاوِرَةُ بَدَتْ فَكَاهَةً فِي تَصَوُّرِ «أ. دهر»، فَقَدْ أَخَذَتْهُ حَالٌ مِنْ عَيْثُ رَقِيقٍ:

«فَعَلْتُ ذَلِكَ نَكَايَةً بِ»، وَعَقَّدَ حَاجِبِيهِ فِي دَعَابَةٍ ظَاهِرَةٍ، مُرَدِّدًا: «نَكَايَةً بِالْمَصْعَدِ»، وَقَهَقَهُ: «مِنْذُ مَتَى اشْتَغَلْتُ مَصْعَدَ إِبْلِيسَ؟».

وَلَمَّا أَلْفَى الْمَرَأَةَ مَعْنَةً تَحْدِيقًا فِيهِ، عَلَى نَحْوِ مُسْتَقْرَىءٍ، أَطْرَقَ بِرْمَةً: «أَحَقًّا كُنْتُمْ هُنَا الْبَارِحَةَ؟»، فَأَطْرَقَتِ الْمَرَأَةُ بِدُورِهَا، هَامِسَةً:

- يَنْبَغِي عَلَيْنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّنَا كُنَّا هُنَا.

- «وَمَاذَا يَحْصُلُ إِذَا لَمْ نَتَذَكَّرَ أَنَّنَا كُنَّا هُنَا؟» سَاءَ لَهَا «أ. دهر»، فَهَمَّهَمَتْ:

الْمَرَأَةُ:

- سَنَكُونُ فِي وَضْعٍ حَرِجٍ.

- «سَنَكُونُ مَحْرُجِينَ مَمَّنْ؟» سَأَلَهَا فِي نَفَادٍ صَبَرٍ، وَارْدَفَ: «نَحْنُ لَمْ نَكُنْ

هنا يا جارتى. ما من أحد كان في هذه العمارة.

فانسلت المرأة إلى الداخل حين استوى المصعد في ردهة الطبقة السادسة، وكأنها أدركت بغريزتها أن زوجها قادم. وكان زوجها، حقاً، هو الذي دلف خارجاً من العلبة الحديدية، فحياً الشاب بإيالة خرساء، وقرع جرس باب بيته ففتحت امرأته التي لم تكن قد ابتعدت خطوات إلى الداخل، بين برهة إغلاقها الباب وقدم زوجها. وقد أغلق «أ. دهر» باب شقته، أيضاً، بعد تلك الإيالة الخرساء من جاره، ماضياً، في حركته المعتادة، إلى الشرفة ليستطلع السفينة الراسية قبالة العمارة، فتنبهناه، نحن الخمسة ذوي الكشافات المغلقة، متفكرين - من جديد - في أمر الشبه البين بيننا وبينه.

إنه لا يشبهنا، يقيناً، إذا تفرسنا في تفاصيله. ونحن غير معنيين بعقد مقارنات بين حاجبيه المعقودين، اللذين يخفيان عينيه فلا يرى غير يؤثرهما السبيلين أبدأ، وبين ما لنا. ولا يهمنا أن نعم النظر في أنفه الأخرى، وفمه المزموم، وكففيه المرفوعين، وما تبقى من أعضاء مهملة على جذع مهمل. بل نعني، في التشابه، ذلك الإيغال الأعمى في التكرار. أما التشابه بين الآخرين فقد أحكم على نسق لا تخطئه بصيرة، ولا تتردد فيه عين. وبقدرة ما كان لكل شخص توأمة في عمارة «أبي كير» والعمارات المجاورة. وهو توأم وجد هكذا، في برهة ضائعة من وجود الآخر الحقيقي.

وقد أشكل الأمر عليهم، قاطبة، فنسبوا الأمور إلى الأصول مرة، وإلى الأشباه في كرة أخرى، حتى أن الأشباه التي ظلت، طويلاً، صدى لحركة الأصول، أعلنت عصيانها الخفي على الأشكال الحقيقية، فبدت الأمور متداخلة، عبثية، وهذا ما جعل أم صديق «أ. دهر»، الذي يقطن الطبقة الخامسة، في إحدى الشقق الواقعة إلى جهة الجنوب من العمارة، متذمرة، أبدأ، على سبيل المثال، من سلوك ابنها المنكب على الرسم بشكل محموم، دون التفات إليها، وهي القادمة لزيارته من الساحل الشمالي البعيد، بينما كان ابنها الحقيقي يبحث عن عمل في بلد أوروبي.

اشتكت مراراً إلى «أ. دهر»: «ألن يتوقف؟ خاطبته حماك الله»، فينزل

الشباب إلى الطبقة الخامسة، على الدرج، هاتفاً حتى قبل أن تقع عيناه على باب شقة صديقه، في آخر الممر المعتم:

- «إنها أمك يا حمار»، فلا يرد المنكب على الرسم، الذي وسع من رقعة الأقمشة البيضاء الخام، فتوزعت على كل متر، مشدودة إلى إطارات خشبية ذات ركائز، أو متهدلة، بينما تناثرت مواسير الألوان الصغيرة، وطلاسات الترينتين، في الزوايا، حتى تجاوزت الباب إلى الممر الخارجي.

لقد حاولنا، نحن الخمسة، أن ننبه «أ. دهر» إلى أن ما يراه ليس إلا شبه صديقه، فلم نفلح. صرختا. خبطنا الممر بأقدامنا. ركضنا الترينتين، ودعمنا مواسير الألوان حتى انبعجت، فلم نفلح.

حاولنا، بحق، أن ننبه «أ. دهر» إلى الشبه المنحني بجذعه الطويل على القماش المؤطر، راسماً كلاباً تعض الجدار كأنه لحم حي. غير أنه لو أصغى قليلاً لسمع التباح ذاته، المنبثق من أساسات عمارة «أبي كير». لكن نقاد صبره كان يلهمه، وهو القادم إلى صديقه بلجاجة أم صديقه إذ هي تنفت أسفها، كالعادة، على أبناء هارين من شبكة أمومتها.

وكان إذا اقترب «أ. دهر» من صاحبه، وقد تنبعت الأم اللجوج، وتنبعناه - نحن، التفت إليه المنكب على الرسم التفاتة خالية من أي تعبير، محدقاً فيه كأنها في فراغ أبعد من جسد «أ. دهر»، فيحاورة الأخير حواراً لا يبدي الرسام أكثر ثألاً له، مكتفياً، بين جملة وأخرى من محدثه، بضربة نازقة من الفرشاة الطويلة على أفق القماش، كأنها يقاطعه دون كلام، بينما يمضي «أ. دهر» في رسالته الرقيقة كصبيح من أم تقف خطوات على مبعدة منه، منتظرة أن تسفر الوساطة عن ذراعين مفتوحين من ابنها، بحسب أعماقها المشغولة أبدأ على أن هذا الكائن الخالي من لحم، ودم، ونزق، وظل، وحاقة، وكأبة، هو ملكها، بل فلذة لا من كبدها، إنما من إشارة على أمومتها أن تبديها أمام الله فيمثل الابن برقة الغزال - إن كان غزلاً في عينيها - وبطاعة الطفل إن رأت فيه طفلاً إلى أبد عظامها.

غير أن المنكب على فراغ القماش، المتأهب لإغواء اللون في إقتدار

واضح، لم يكن يمثل لبطش الأمومة في الممر، ماضياً بوساطة «أ. دهر» إلى انكسارها على رائحة الترينتين.

على هذا النحو كانت تُشكّل الأمور، كما أسلفنا من ذكر التوائم المتشابهة، والأصول والأشياء. لكن مثلاً كمثال صديق «أ. دهر» لم يكن شيئاً إذا قورن بالذي فعله شبيهه الأعرج، القاطن الطبقة الثانية من عمارة «أبي كين». فقد حضر، بغتة، صبي في الثامنة من عمره، مدعياً أنه ابن الأعرج. قرع باب بيت الرجل ففتحت امرأته، وهي تحاول إبعاد أولادها الستة، المندفعين من الداخل يركل أحدهم الآخر. ولبرهة ما، كلمحة تحمل تأملاً لم يكن وليد لحظته، تفحصت أعين الناظرين الفضولية الجسد الصغير، من رأسه إلى ساقه بنطاله، فبادرهم الصبي مبتسماً:

- أين أبي؟

ووسط دهش العائلة من السؤال الذي بدا موجهاً إلى غيرهم، خرج الأعرج من المصعد، متقدماً من الصبي كأنها هو على موعد معه: «حبيبي»، وفتح ذراعيه، ثم احتضنه، متجهاً بعينيه إلى زوجه وأولاده:

- «لا تعرفونه؟»، ومضى به إلى داخل الشقة، بعدما فتحت العائلة ممراً لها بين أجسادها القلقة.

كانت تلك لعبة صغيرة لأحد الأشياء ذلك اليوم، الذي تساقطت فيه خمس قذائف فقط، على ضواحي المدينة. وخمس قذائف لا يؤذيها، في تاريخ أحكم على نفسه رتاجاً من لحم آدمي، حتى أن الناس بدت مطمئنة إلى مستقبلها، فخرجت من الملاجئ تتمرن على التنفس، والتأمل المرح في أسلاك الكهرباء المقطوعة، والشرفات المنهارة، والذباب الأزرق المنتشر عقب العفن الذي أصاب ما تحويه برادات الدكاكين المغلقة من أثر الانقطاع الطويل للكهرباء.

نعم. مضى شبيه الأعرج بالصبي إلى الداخل، فلم تتبّع تفاصيل ما جرى هناك، لأن «أ. دهر» ركل، بغتة، إحدى لوحات صديقه المنصوبة على عارضين خشبيين، ليس في الوقت الذي كان شبيهه صديقه منكباً على الرسم،

وهو يجاهد للقيام بوساطة بين الرسام وبين أمه، بل في وقت آخر لم تكن المدينة فيه على موعد إلا مع خمس قذائف، قتلت اثنين، فبدت الناس مطمئنة إلى مستقبلها، وقد تعودت أن يجاوز الرقم، في العادة، مائة قتيل، ومائة وثلاثة جرحى. والثلاثة المضافون إلى المائة زيادة معهودة دلالة على فكاها ينبغي التثبيت بها. على أية حال، ما ركله «أ. دهر» كان رسماً يمثلُه هو، وقد تدلّت من لحمه العاري مفاتيح شتى: كبيرة وصغيرة، صدئة وذهبية؛ بينما بدت حدقتاه سائلتين كأنها فُتَتَا. وفي ثورته تلك لم يكن من حوله أحد: نعني صديقه أو شبيهه صديقه، ما خلا صاحب العمارة الشاحب، الذي حذق في الممر، حيث اللوحات المنصوبة في فوضى على دعائم، فزَم عينيه مستجلباً ذلك الصخب في ظل الرواق المعتم، ثم جاوزه إلى ما تنأى إليه من الطبقة الثانية:

- «أنت كلب».

يصرخ:

- لا تستحقين أولادي.

نعم. شهدنا - نحن الخمسة ذوي الكشافات الملونة - ذلك، وشهدنا دخول الأعرج الحقيقي إلى الطبقة الثانية، إثر مصادفة رُتبت خروج شبيهه بدقائق. والمصادفة تلك مُبرمة على نحو صارم، فلا يحصل أن يتقابل الشبيه والأصل في مكان واحد قط. ويحصل، بعامة، أن ينكر الشخص الأصل فعل الشبيه حين يُسأل، لذا تتكرر الإشكالات بين قاطني العمارات. غير أن الأعرج، حين دخل ردهة الطبقة الثانية، وألقى عائلته متجمهرة خارج باب الشقة، بعدما واكب شبيهه الخارج بنظرات مستغربة، لم يسألها عن وقوفها ذاك، بل مضى داخلاً وهو يتمايل بسبب ساقه القصيرة. وإذا حاذى ابنة المزعوم، الواقف وسط أولاده الآخرين، احتضن رأسه، جانبياً، هامساً:

«إنهم يحبونك»، كأنها يُطمئن نفسه لا الصبي. ولما استدارت زوجه صوبه، في عصبية قلقة، أمسك بيدها رافعاً سبابته إلى شفتيه: «اسكتي».

«اسكتي». هذا ما قاله، فأشكّل الأمر علينا، لأنها المرة الأولى التي

نعهد الشخص الأصل يتبنّى أفعال الشبيه، حين أخذ الأعرج على عاتقه،

بطريقة مرسومة، أن يكون ذلك العصبي من صلبه.

نعم . « أنت كلب »، ذلك ما سمعه « أ. دهر » وصاحب العمارة الشاحب، معاً، فنسي الأخير، لبرهة، أن يسأل الشاب عن بَدَل الشهرين المزعومين، ثم نطق الكلمات ذاتها، للمرة اللامعلومة:

- متى ستدفع لي؟

فأجابه « أ. دهر » للمرة اللامعلومة: « أدفع ماذا؟ »، ثم رفع صوته في تأكيد مُحْزِن:

- لم تكن هنا. ما من أحد كان هنا.

ولمَّا أدرك عقم المحاولة هداً على مضض: « ألا يمكن تقسيط المبلغ؟ » قالها للشاحب الذي فاجأه: « استمع »، فأصغى « أ. دهر » إلى النباح يتصاعد من الأساسات، رويداً رويداً، جارفاً صراخ المرأة التي تشتت زوجها في الطبقة الثانية.

لقد أضحي ذلك النباح جزءاً من المكان؛ جزءاً مكتملاً للأنين الصادر عن باب المصعد، ولاصطفاق الأبواب من العصبية التي ورثتها الحرب للأيدي، وللصراخ - أيضاً - الذي يشعل الحناجر في أوقات لا تحتاج الحناجر فيه إلى مِرْآن، وللريح إذ تنحدر الدرجات إلى مدخل العمارة، ومن ثم تنزل على الدرجات المفضية إلى القبو، فتطلق صفيراً خافتاً في النفق الذي يصل عمارة « أبي كبير » بالعمارة المجاورة، التي قاد الرجل الشاحب « أ. دهر » إليها للقاء أهله.

نعم. حاول « أ. دهر » أن يسلك ذلك النفق، مرةً، بمفرده، لا متعقباً النباح المنتصب بجدران النفق كرتوية ما، بل الصوت الذي سمعه صادراً من وراء باب في آخر الظلام لما قرعه صاحب العمارة، حين تجوَّلاً معاً، وكان شبيهاً بصوت أبيه. وقد حاذر أن يلمس الجدران بأيٍّ من يديه، مذ استرعى بصره السائل القرمزي النافر كخبيبات عرق، تحت ضوء مصباح اليد الشاحب ببطاريته المستعملتين طويلاً. غير أنه لم يقع على الباب ذاته في نهاية الممر. كنا نعرف أنه لن يهندي إلى الباب ذاته في الظلام الذي قاده مالك

العمارة إليه، بحثاً عن هائلته. وقد اقتضى منه الأمر أن يقرع الجدران كلها، برغم حذره، في البداية، من ملامستها، حتى لا تتلطح يداه بالدم الصاعد من مكمن لا يدر به إلى المسام الإسمتية. وبسرعة بعد أخرى بات يقرعها باليدين معاً، ثم بالذراعين، من المرفقين إلى الأصابع المفرودة كأجنحة بلا ريش، ويصدره بعدئذ، وبقدميه، رافعاً صراخه المختق: « أبي. أبي. » يشفتين انزلقنا عن وجهه الشمعي في ضوء مصباحه الذي ثبته تحت حزامه، لصق معدنته، وزجاجة المضيء إلى أعلى، فبدا أصفر، ضائع الملامح بالظلال المرتسمة من ذقنه على فمه، ومن شفثيه على متخريه، ومن عرني أنفه على منتصف حاجبيه، حتى اختلطت القسّسات، وبيانت الأخاديد الرقيقة أكثر عمقاً، متصلة، كأنها هي جزء عابث من ظلام النفق الكثيف.

كدنا نقول له، بكثافتنا، إن المسألة أهون من أساءه الباذخ في صراخه ذاك، ولا يحتاج الأمر إلى قرع على الجدار بنقل أعضائه في ذلك الجسد الناحل. فالحكاية هي أن يدفع الجدار دفعاً خفيفاً، لا أكثر. وقد أشرفتنا أن نهمس: « إدفع. إدفع الجدار ». والجدار تحت يديه اللتين تنزلقان على الدم. « إدفع » نقولها صارخين فلا يصله صراخنا. « إدفع » ونضرب بأقدامنا أرض النفق، فينبعث النباح الكثيب من كل مكان. وإذا نتعب من ذلك نترك الأمر لتدبير « أ. دهر » الحائر في حركاته. غير أن تقديرنا لا يطول، فإذا بـ « أ. دهر » يدفع جدارين متقابلين، في النفق، وقد تكشف الشرقى منها - بإنياره - على الميناء الذي انوجد، فجاءة، قبال عمارة « أبي كبير ». وكان في المستطاع، من الثغرة تلك، رؤية حيزوم السفينة الحديدي، بلونه الأخضر المسود في المياه، وسماع حوارات المحاربين على السطح الذي لا يرى. أما الجدار الغربي فأنكشف - بإنياره أيضاً - على مدنى يشبه اللحم العاري: أرض انبسطت كألياف عضلية، وآثار خطوط جراء من دم، وموج على مبعده أمتار يترجرج في مكانه مثل صدر يتنفس عميقاً. وبرهة بعد برهة توافد أناس مهمومون من وراء أكمات ارتفعت - هنا وهناك - على أشكال رثات وأكباد ضخمة. وكانوا، في تقدّمهم من « أ. دهر » يشكلون حلقات متنافرة، دون أن ينظروا إليه، ثم

يجلسون القرفصاء على الرمل الدموي (أو ما بدا رملاً دمويًا)، منهمكين في قرع الأرض الوردية اللون كلحم طازج بالأنامل، كأنها يتخاطبون، بينما ألقى شفق ما بظلاله شفيفة من نثار ذهبي على المكان.

في هدوء وقف « أ. دهر » يتأمل تلك الأنامل في قرعها الرتيب على المكان الرخو، واضعاً يديه في جيبي بنطاله، ثم استدار بوجه خال من أي تعبير صوب الثغرة التي تقدم منها، هاماً بالرجوع، فألقى مائل العنق الشاحب واقفاً في مدخل الجدار المرموم، يبرزه البيضاء ذاتها، وكتفيه المرفوعين على نحو متعب.

إنه مكان لا يليق بهدوء كهذا الذي يلف الاثنين، بل يلف أعماقهما، وهما يسبحان الطين الغريب لأنفاس الجالس على الرمل الدموي (أو ما بدا رملاً دمويًا)، كأنها تتقاطع في رئاتهم أصوات آلات تدار باليد. غير أنها أمعنا النظر أحدهما في الآخر، وابتما ابتسامة العارف بالذي جذب كلاهما إلى ثغرة الجدار. بعد ذلك تقدما حتى كاد مقدم حذاء الشاب يلمس حذاء الرجل الشاحب، فتوقفا.

- « إذن... » قالها الشاحب، فرد « أ. دهر »:

- نعم.

ثم نظرا، معاً، إلى الجمع الجالس حلقات متناثرة على الرمل الدموي، مَهْمِهْمِينَ:

- نعم. إنهم في هذه الجهة.

ثم عادا غابتسا الابتسامة ذاتها، ناظرين إلى الحلقات البشرية في المدى المضاء بشفق ما، يلقي بظلاله الذهبية الموحشة على المكان. ومن دون أن يلتفت مائل العنق إلى « أ. دهر » الواقف على شبر منه، مستديراً إليه بظهره، تتمم:

- قبلت.

فاستدار إليه الشاب بعنقه فقط:

- قبلت ماذا؟

فلم يرفع الرجل الشاحب عينيه عن مستوى كتف الشاب، محدقاً في

الحلقات الأبعد لبشر جالس على الرمل الدموي:

- بدل آجرة البيت. قصدي أن تقسط الشهرين.

فأزور الشاب عنه بوجهه بعدما كان ملتفتاً إليه بعنقه فقط، ناظراً بدوره

إلى الحلقات البشرية المتناثرة:

- ظننت أننا اتفقنا على ذلك.

وتقدم، بغتة، إلى أمام، كمن يتجول في حديقة بيته، وأشار بيده

اليسرى إلى الجالس، بحركة متدرجة من يمينه إلى شماله: « هؤلاء... »، ثم

أخفض ذراعه ليضع يده في جيب بنطاله:

- من سيأخذ منهم بدل استئجار المكان؟

فأجابه الشاحب من خلفه، في إستغراب:

- أياخذون منهم بدل استئجار، هنا؟

فانفض « أ. دهر » ملتفتاً إليه، يادي الجهد في تخفيف صرخة تكاد تخرج

ملء فمه:

- ولماذا تأخذ بدل استئجار على شقق عمارتك؟

ولأول مرة صعد الرجل الشاحب ببصره من كتف « أ. دهر » إلى وجهه،

بعينين تلمسان يقيناً ما:

- كيف تساوي بين صمارتي وبين هذا المكان؟

إذ ذاك رفع الشاب حاجب عينه اليسرى في سخوية ظاهرة: « أعمارتك

أجل؟ »، فرد الشاحب: « لا » في استنكار، مضيقاً:

- « ما هذه المقارنة؟ هؤلاء موتى، وأنتم أحياء، مشيراً بيده اليمنى صوب

جهة النفق الشمالية، حيث عمارته، وهو يعني قاطنيها بالطبع. وحدق في

الشاب: « أنتم. أنتم » مكرراً الكلمة، كأنها يأسف على تأجير الشقق لهم،

فاحتدم « أ. دهر »:

- « أهذه شقق؟ هذه أحذية ». وتقدم من الرجل:

- أنت بلا أصل مثل مصعدك المعطل دائماً. أنت بلا أصل مثل الكهرياء

المتقطعة في عمارتك. أنت ابن فقيرة.

فتجمد الرجل الشاحب من المباغطة الصارخة لشتائم الشاب، ثم هُذِلَ كتفيه، وأطرق:

- «إسمع. أنت مؤذنب. أعرفك مؤذنباً»، وأرسل عينيه إلى عيني «أ. دهر» : «لماذا تشتمني؟»، رافعاً يده اليسرى مقاطعاً كلاماً لم يقله الشاب: «اشتمني. لا بأس»، وأغضى ثانية: «صدري رحب»، قالها في هدوء متكلف برشح ثلثاً: «لماذا أنت محتد؟». فأغضى «أ. دهر» دون أن يبارحه اغتلاء أعماقه، والتفت من جديد إلى الحلقات البشرية التي غصت في تسلسل هندسي. قائلاً:

- لم تكن هنا. أنت تعرف. شهران وعمارتك خالية. أنت تعرف. عمارتك لا تستأهل السكن على كل حال.

وعض على طرف شفته السفلى:

- أين كنت أنت؟ مخبئاً في قبر؟ ألم تر الشارع الشرقي، الذي يمر بالمسجد هناك؟

وابتسم مشفقاً على انقراض الأبنية التي أشار إليها، وقد مسحتها غارات الطيران في أواخر أيام تلك الحرب الذهبية: «طاروت. طارت» قالها «أ. دهر» مخفّضاً نبرة صوته:

- «شهران وعمارتك خالية. شهران والشارع هذا خالٍ، والشارع ذاك، والمسجد الذي طار، والمثدنة التي هوت فوق مدفع الهاون، على السطح». وضحك: «كان الصدى قوياً قوياً على سطح المسجد لما يطلقون القذيفة من هناك».

كان على «أ. دهر» أن يتراجع إلى عمر شفته حين يصعد محاربو المثدنة بمدافع الهاون إلى سطح المسجد. فالقذيفة، التي تطلق بدويّ يملأ قفل باب به بالرنين، تجلب، على نحو مدروس، قذيفة من جهة المدينة الشرقية. هكذا. قذيفة بقذيفة، وقتيل بقتيل. وإذا تدخلت جهات ثالثة، من أمم كثيرة دخلت المدينة بموائيق اتفق عليها الخاسرون قبل الراحين، بمدافعها، كأنها تمسك إلى الأبد بزمام المصير المشتعل، كان على قتلى كثيرين أن ينتسبوا إلى هذه الجهة

مرة، أو إلى تلك الجهة ككرة أخرى، بحسب ما يترجح من كفتي الميزان. أي، تحديداً، ما من غلبة إلا للموت. أما إنتصار الأحياء فمؤجل بنعمة الإرث الحائل من غدر مهزوم سيّلي غذه المهزوم، في تعاقب هندسي، حتى يومكم هذا، أو ذاك.

نعم. قال «أ. دهر» للرجل الشاحب: «كان الصدى قوياً»، فوافقه مالك العمارة بهزة من رأسه، ونطق متأففاً: «ما من شيء يُغري إلا بالموت». فردّد الشاب كلمة «الموت» رافعاً حاجبيه:

- «ألسنت سعيداً؟»، قالها، فأجابته الشاحب:

- سعيد مُم؟ لا صحة. لا نساء.

فردّد الشاب كلمة «نساء» في مرج: «نساء. آه. ألا ينفع مالك؟»، وغمز صاحب العمارة، فأغضى الشاحب في أسى لا يخلو من إفتعال، هامساً: «تباً لليال». فاستدرك «أ. دهر» أمراً يدغدغ مرارته: «ولماذا تسألني بدل إيجار الشهرين، إذأ؟».

حين سأل الشاب سؤاله ذاك انتفض الشاحب المصاب بالسكري:

- لأنني لم أمت بعد. أنا لم أمت.

فطاطا «أ. دهر» ضجراً من المحاورة، ثم التفت إلى الحلقات البشرية في مدى الرمل الدموي (أو ما بدا رملاً دمويّاً)، فإذا به يشبهنا - نحن الخمسة اللامرئيين - في تلك اللحظة، بثيابه الفضفاضة المتهذلة على جسده الناحل، وهو يلتفت ضجران من أن يرى؛ ضجران من محاورة الشاحب، ومن أعماقه، معاً. ضجران من وجوده في المستوى ذاته الذي يصل البحر - إذ تفتق عنه الصبح، يغتة، قبالة عمارة «أبي كبير» - باليابسة الدموية، حيث الحلقات المتقاربة لياكل أناس جالسين، لا ينتظرون شيئاً، ولا يُقدّمون على شيء، حتى بدت جملة صاحب العمارة «هؤلاء موتى» أقرب إلى حصر الوصف.

كانوا موتى. كانوا موتى المصادفات. فإن سأل أحدنا الآخر: «من موتى المصادفات؟» - وهو سؤال لسنا حريّين بطرحه إلا افتراضاً - لرفع كتفيه مُشفقاً من مغزى السؤال الساخر في ظاهره، فالكل يموت مصادفةً: بسكينة

قلبية. بطلقة. برفسة حمار. سقوط من شرفة، بمؤامرة من الأقربين. بيأس ينميه الشخص ذاته كلبلاب يتسلق السياج. لكن هؤلاء موتى مصادفات بفارق صغير عن المصادفات الأخرى. وهم، بعامة، من قتل القصف، الذين لم يتفكروا في الموت، في برهات اشتعال المدينة كجحيم يهيء ذاته على نحو يليق باسمه.

كثيرون لجأوا إلى ما بقيهم ذلك الومض المصاحب بشار حديدي قاتل. كثيرون توجسوا الصمت الذي يتقدم القصف فاحتاطوا. كثيرون شمو صباحات المدينة فضللوا الموت المقتضخ في تعبه الغافلين.

كان الموت كثيره من المحاربين الذين احتاطوا لكل شيء، فبدوا مدججين - في هذا الطرف أو في ذاك، وفي الاستراحات القصيرة أيضاً - بأسلحة تتفاوت بين فتابل يدوية تصيب جمعا، ومسدسات تصيب أفرادا، وبنادق آلية للجمع بين المفرد والعديد، وربما - في بعض الأحيان - بالآلات ذات صوت مكتوم، لا تريد إجفال المارة، أو النائمين، في تهذيب ولياقة فيضيان بكرمهما. نعم. هكذا احتاط الموت، بدوره، لما يؤمله نقيضا للترف الحي الذي يفتقده الضائع.

.. وما الذي توحجه المدينة هذه غير التشويق؟ بدأت حربها بكلام عن خوف الأقوياء من الضعفاء، وبخوف الشرقيين من الانتساب إلى شرقهم. ثم امتد الأمر إلى أن يقطع المقيمون في شرقي المدينة الأعضاء التناسلية لمواطنيهم المقيمين في غربها، إذا اشتبهوا فيهم، على نحو اعتباطي. وتطور التشويق الملعن بطريقة حسابية، يوماً بعد آخر، إلى الخطف على الهوية، بحسب اللفظ الأعجمي، أو العربي، للأسماء. ولما وقوا الفكاهات الصغيرة هذه حقها عمدوا إلى قصف عشوائي - من تلك الجهة أولاً، فجارتها هذه الجهة تالياً - على كل مكان، حتى المسابح الشعبية في الجهتين، والمقابر، والحدائق الخالية، والشطوط الصخرية التي لا يؤمها إلا الصيادون، وكذلك تكتات الجيش قبل أن ينقسم بعضه على بعض، وبعد إنقسامه. وطاول القصف، من الجهتين، أيضاً، الأسواق المكشوفة لبيع الخضار، في ترتيب كمن ينصب فخاً لنار:

يجمعون عن إطلاق القذائف يوماً، فتهرع الناس لشراء الخضار، فينهمر المطر الناري، بغتة، فتطير العربات الخشبية، وتختلط الأقدام المبتورة بالخس وبالفجل، أما الأحذية الممزقة فتبقى رهن مصوري الصحافة المنكوبين بازدياد أشغالهم، حتى أن بعضهم يختفي في هذه الجهة من المدينة، على أثر تصوير متراس مهجور. ويختفي البعض الآخر في تلك الجهة، بسبب تصوير عمود كهرياء مرق.

وتطورت أساليب التشويق، من ثم، فتدخلت الدولة - باستخباراتها المدنية والعسكرية - قبل خروج الدولة على القانون، وخروج القانون على الدولة، شرطياً شرطياً - على خطوط المتحاربين المدروسة، نسفاً في شرق المدينة ونسفاً في غربها، تالياً لهذا على ذاك بطلقة من هذه الجهة أو تلك، وخطفاً هنا أو هناك، ليبلغ الهياج مرتبة الشيطانية.

أكلوا الدولة فأكلتهم الدولة. واختلط الأكل، والقضم، والعصّ الخفيف، والحشن، وترتيب الخوازيق، بعدئذ، حتى بدا الكل متجانساً في لمبته، مع غلبة خفيفة لهذا الطرف أحياناً، وغلبة خفيفة لذاك الطرف في أحيان أخرى، وخسارة دائمة - بالطبع - للأرواح المتجولة في الجهتين، على شكل لحم وإسمنت ومياه (قذائف كثيرة أصابت البحر وفق إحصائيات محكمة).

غير أن التشويق المرسوم في تصاعده لم يتوقف عند هذا الحد، فانقسمت المدينة شطرين: شرقها ضد غربها. نعم. ارتفعت المماريس الرملية الهائلة في الجانبين المتقابلين، ومن أعينته الحيلة في إقامة متراس، بأسرع ما يمكن، لعم عمارة فاسقطةها بسد الرؤية على قناسة هذه الجهة، أو قناسة تلك الجهة. وتبذل التشويق، من ثم، فاختلطت هندسته، فإذا بالشطرن الواحد من المدينة يرسم على شكل وسط تجاري، وضواح بحسب طوائف ذلك الشطر. وإذا الوسط ينقسم شوارع شوارع، والشوارع إلى أرقة وزوارب، والزوارب إلى عمارات، والعمارات طوابق وشققاً متجاورة، ينظر قاطنوها بعضهم إلى بعض في غضب، يتحدى الواحد منهم هوبة الآخر الحزبية المرتسمة على جبينه.

وتشظى الواقع، بعدئذ، فخرج الكلُّ على الكل: الحديد على العمارات، والمواسير على الأرصفة، وأسلاك الكهرباء على الريح، والمقابر على الحدائق، والرغيف على الجوعى، والماء على المضخات، والشكل الأنقى على جوهره الأنقى. أما الشعارات، التي انبثقت على أطراف المتجددة كل عام، فلا تسلم عنها: إنشقاقات أودت بنصفها، أو بكلها. ووقفت الأحزاب، ذات الرثة الواحدة، متقابلة كأزرار السترة العسكرية، بسلاح إلى أمام، وسلاح إلى وراء. وتدرجت الطروحات من قومية مغالية إلى ما يبسرُّه الله؛ ومن أمية مغالية إلى ما يبسرُّه القومي، أو ما يبسرُّه الله؛ ومن إقليمية إلى ما تبسرُّه قوات الأمم المتحدة؛ ومن طائفية ناهضة، توأ، إلى ما تبسرُّه الاشتراكية؛ ومن اللغة إلى الفراغ الصامت؛ ومن الكلمة الواحدة إلى الحرف؛ ومن قارئ الحرف إلى الأمي.

وتدرجت الأسلحة، بالطبع، في أثناء ما كان يسري من هذا كله، متوافقة شعاراً خفيفاً بسلاح خفيف، وشعاراً وسطاً بسلاح وسط، وشعاراً ثقیلاً بسلاح ثقیل، صعوداً أو نزولاً بحسب الأحوال الإقليمية، والدولية، كما زعم المفكرون في الأقبية التي لا يطاولها القصف المتجدد أحياناً عن آخر، واختأ عن أخت. ثم اكتسى الهواء فوق شطري العاصمة صفيراً تُعَرَّف هويته به: هذا هواء «غراد» (إذا اختضَّ الهواء، وتخلخل وتفازق، والتحم على فحيح مرعب. وصاروخ «غراد» هو الأثقل بحسب ما يتجادلون). هذا هواء «هاون» (إذا طاول الصدى المترجرج مداخل العمارات، وتسلى الأذراج إلى عظام الأحياء المتكويين في عمرات شققهم).

نعم. كان «أ. دهر» يشتم كلها عكراً جلوسه في ممر بيته صاروخ «غراد»، أو قذيفة «هاون»، في الأيام التي سبقت الانقطاع الكبير للكهرباء، حتى انهيار عمارة «أبي كير». كان يشتم التلفاز الموضوع في ركن الممر الشمالي، قرب باب الحمام، بينما يستند على ذراعه، وقد قطع الممر بجذعه عرساً، ثانياً ركبتيه إلى جهة صدره. وعروض التلفاز ذاك تتدرج، في تدبير ثقیل، بين مسلسلات محاية غارقة في أخلاق لا تخاطب أحداً قط، وبين مسلسلات أجنبية

تُعاد الحلقة الواحدة منها عشرين مرة سهواً، دون اعتذار أحد قط. أما ما تبقى من وقتٍ للعرض، على الشاشة الصغيرة، فكان حُكراً على مديعات تظهرن بعد خبرٍ عن مقتل مائة، بكامل حلّيهن، ثم يبذلن تسريحات شعورهن إثر استبدال الواحدة بالأخرى، لبرهة، ريثما يذاع خبر مقتل مائة آخرين، بإنفجار سيارة ملغومة، أو بنسف عمارة يُقصدُ منه تهديد دولة لا سفارة لها في البلد هذا. «كلهم موتى»، قالها «أ. دهر» ساخراً، وهو يلتفت إلى الحلقات البشرية المتكومة على الرمل الدموي، شرقاً، وأردف: «كلنا موتى»، في الآن الذي كان الرجل الشاحب يهيم فيه بمغادرة النفق، إثر ترديده لكلمة «لم أمت بعد»، فتوقف صاحب العمارة متطلعاً إلى الشاب، وقد ضيق ما بين جفونه كمن يتشوف خيالاً بعيداً:

أريد إيجار الشهرين حتى لو كنت ميتاً.

فتمتم «أ. دهر»: «سادفع لك عن أربعة أشهر»، وهو يتلمس مكاناً قرب أنقاض الجدار، ثم جلس على الأرض، مطوّفاً ركبتيه المطويتين بذراعيه، في لا مبالاة صارخة. وتمتم ثانية: «سادفع لك عن سنة، سادفع لك عن بقية موتك، وعن موت زوجك أيضاً».

كنا ندرك، نحن الخمسة اللامرئيين، ما الذي رمى إليه «أ. دهر» بذكر زوج صاحب العمارة، التي شككت طويلاً في رجولة الشاحب (هذا ما أذاعته على نحو أكيد، فردّه الكل إلا الذين يقطنون عمارته، خشية رفع بدلات الإيجار). وقد إحتفظت فديفة، ذات يوم، قطعة قطعة، أمام غرفة نومها، في الدُسكرة التي تقطنها مع زوجها، والخدام السمرء القادمة من شرق بعيد، أسفل الهضبة المشرفة على الساحل جنوباً. وكان الشاحب، إذ ذاك، يساعد الخادم في تقطيع عجین الخبز الخاص بمرضى السكري، في المطبخ المزود بفرن لا تملكه العامة.

نعم. طارت زوج مالک العمارة عضواً عضواً، فيها استلقى، هو، فوق المرأة السمرء، إثر انفجار القذيفة، فغطاها بعض الطحين، وبعض الغبار. وقد بقيا طويلاً على النحر ذاك، مستلقين أحدهما فوق الآخر، بعد دفن القتيلة

بأيام، وكان يصرخ: «موتي. موتى»، ناظراً إلى شبح امرأته الذي يتخبط قرب السرير، في غرفة النوم ذاتها، التي سرقها القذيفة منها، كأنها ينتقم لفحولته وهو يواقع الخادم، أكثر شحوباً بفعل التعب، والغرق الملتصع على بشرته المغممة. وكان شبح القتيلة يبادل، في مروءه، ابتسامة الشك ذاتها في فحولته، وهو يعرج، لأن جامعى أشلاءها المرتبكين نسوا قدمها بين أوراق اللبلاب الجافة، الذي صعد السور الشرقي.

في اللحظة تلك بوغت الرجل الشاحب من كلمات الشاب، فأحجم عن مغادرة النفق، عائداً خطوات إلى حيث «أ. دهر» وقد اقتعد الأرض المفروشة بحطام الجدار، صارخاً في اختناق:

«لا تشتمها. أعني ما أقول»، رافعاً سبابته إلى فمه مهتداً، فلم يُعره الشاب أي التفات، باقياً على حاله في تطويق ركبتيه بذراعيه. ولما اقترب صاحب العمارة أكثر، غامراً جانب الشاب الأيمن بظله الطويل، اختفى ما كان يتفوه به، بعد ذلك، في اللغظ الموحش الذي ارتفع، قليلاً قليلاً، من صوب الحلقات البشرية الجالسة على الرمل الدموي. ثم قامت الحلقات، فجأة، متوجهة، كأنها تتواعد الواحدة الأخرى، فقام «أ. دهر» بدوره.

لقد أربكنا أن ما يتفوه به موتى المصادفات يستعصي على فهمنا، وحيثنا أن الرجل الشاحب والشاب بصغيان إلى المجادلة الصاخبة بين الحلقات البشرية، هناك، وميزان برأسيهما موافقين، أو يتذرمان، مما يجعلنا نقرب أكثر من أولئك القتل، فأدركناهم يتخاصمون في اختيار القضاة.

كانوا على أهبة المرافعة عن مיתاتهم. وكان واحدٌهم إذا شهد الآخر ليدعم كلامه خذله الآخر، مرافعاً عن نفسه فقط، حتى انقسمت الحلقة الواحدة على كيانها، فتنافر المجتمعون، مهتدين، قبل أن تُعقد محاكمات أو ما يشبه محاكمات. ثم تواجهاوا خبط عشواء، رافعاً، كل شخص إلى من يواجهه، في كفيه، الشظايا التي قتلته، كأنها تجري مقارنات، وحساب فروق في الأوزان. وكان المدين أصابعهم كثير من ذلك المعدن المُشغلي يكومون بين أرجلهم ما لا يقدرّون على حمله بالأيدي، حتى أن بعضهم حمل الشظايا

الكبيرة بين أسنانه، فبدأ مضحكاً، وهو يجاهد، بكل عضلة في وجهه، للاحتفاظ بها معلقة. وكان واحدٌهم، إذا أعيتته حجته، وبراهينه من الشظايا المعدنية، ضرب الرمل بعقب قدمه، فينبثق الدم ساخناً. وهو يشير، بعد ذلك، بأصابعه إلى ما انبثق من السائل الأحمر، داعياً به حججه. فإلتفت «أ. دهر» إلى الرجل الشاحب هامساً: «الحق معه»، فيمتعض صاحب العمارة على عادته الشاحبة كجلده: «دعه يلحس هذا» ويشير إلى مؤخرته.

كان على موتى المصادفات، أجمعين، أن يتبركوا بمؤخرة صاحب العمارة لكثرة تربيده الكلمات الحكيمة تلك كلها هس «أ. دهر»: «ألا ترى؟ دمه أكثر سخونة. الحق معه»، مشيراً، بالتسلسل، إلى من يضربون الرمل بأعقابهم العارية فتنتطبع حمراء فيه، أولاً، ثم يمتلئ الأثر - قليلاً قليلاً - بالدم.

غير أن صاحب العمارة لم يُطل بقاءه، فاستدار عائداً، عبر النفق الذي بات مضاءً، بعد سقوط جدارين: شرقاً، على المياه والسفينة الراسية قبال عمارة «أبي كبر»، وغرباً، على الرمل الدموي، والخصومة غير المُدرّكة بين الحلقات البشرية المتشابهة في مיתاتها. أما نحن فلم تكن علينا العودة إلى أي مكان إذا ارتضى «أ. دهر» أن يطيل مكوثه هناك. لكننا، بحكم ما أعطينا من إشراف مفتوح، حتى الضجر، على مصير من نحن موكلون به، نعرف الحركة التالية التي سيقدم «أ. دهر» عليها:

سينظر الشاب من حوله، زاهداً في الإقدام على أي شيء. وما الذي سيقدم عليه، بآية حال، سوى أن يخطو في اتجاه النفق؟ وإذا يخطو، أول خطوة فيه، شمالاً، صوب قبو عمارة «أبي كبر»، سيلتفت، في إهمال، إلى حيث حيزوم السفينة البادي من الثغرة الشرقية. ثم سيمضي، مسرعاً بعض الشيء، حتى القبو، وسيصعد بضع درجات تفضي إلى بهو العمارة. سيضغط، في البهو، على زر المصعد فيألفه معطلاً، فيسلم أمره إلى قدميه ترقبان به حتى الطبقة الخامسة التي سيستوقفه فيها صخب غير اليق، وروائح خليط من ترينتين والوان كأنها أهرقت بكثرة. سيرج، غرباً، على الممر الذي ينتهي آخره على باب صديقه الرسام. سيُسندُها بما يرى في الفراغ المُحكّم كنسيج القماش،

إذ ستصدم ساقيه تلك الكلاب الهاربة من أعياق اللوحات، وهي تنهش ما اقتطعته من الجدران الشبيهة باللحم. وستعثر، خطوة بعد أخرى، بالجثث الصغيرة المتساقطة، بدورها، من مسافة اللون في الرسوم الزيتية؛ وهي صغيرة بالنسبة المَعْدَّة لها كأحجام على القماش. أما الألوان الباقية، التي تسند الأفق، في ما وراء الأشكال من كلاب وجثث، فستتحل - في فراغ الممر الممتد، برهة بعد أخرى، كذاكرة داهية في التلويح - إلى فقاعات طائرة تنفجر فينبثق من كل فقاعة شهيق، كأنها كانت مخلقة عليه. وفي مدى الشهيق، الذي يبسط فراغاً من شهوة على فراغ الممر، سيخرج شبه صديقه الرسام من باب الشقة بنصفه، مبتسماً تحت قشرة رقيقة من دم يغطي أكثر جذعه، وبعض وجهه ويديه. وستخرج أم صديقه، أيضاً، من وراء الشبه، وهي ثمة نصف جذعها خارج باب الشقة، مبتسمة، بينما تمسك بإحدى يديها فرشاة حمراء، ومواسير ألوان صغيرة مبعوجة من الضغط عليها.

سيُسَدُّ «أ. دهر» قليلاً بالأعضاء البشرية المتناثرة تحت اللوحات. سيُسَدُّ بالنباح الأخرق الصاعد لا من حناجر الكلاب المرسومة الهاربة، بل الصاعد من أساسات العمارة، في اختناق يمسّ العظم قبل الأذنين. سيتفوه بكلمات عمياء، وهو يتراجع من ممر الطبقة الخامسة. سيرفع يديه، بغتة، يسدُّ بها أذنيه إذ تتعالى أصوات قذائف تصيب العمارة مباشرة، فتختض الأساسات كأنها هي ملأى بسائل ما.

كنا - نحن الخمسة ذوي الكثافات المفتونة - نسمع ذلك الخفيض في الأساسات كأنها أقبلت ريحاً أو أدبرت ريح. وقد تسنى لنا أن نرى ما تحويه الجدران الكتيمية، والأعمدة، حين انهارت العمارة، قبل ظهور «أ. دهر» على سطح السفينة المتجهة غرباً، بأربعة أيام. نعم. تقوُّص الهيكل فنشرت القضبان الحديدية من كل مكان، متوازية أو متقاطعة كجبال الشباك. ومع القضبان انفجر الدم ساخناً، حياً، فأدركنا أن ما كان يختض داخل إسمنت «أبي كير» لم يكن غير هذا السائل الأحمر، المصحوب بنباح بارد ترفعه يدا الغبار إلى شرفات الأبنية المجاورة، وإلى جماجم الأحياء الذين تحلقوا، من ثم، وهم

يسدّون أنوفهم، وأفواههم، خشية شهقات تنفرغ في الحناجر كالسعال. غير أن «أ. دهر»، الذي انهارت عليه العمارة، مثله مثل غيره من قاطنيها، سيظهر بعد أربعة أيام على سطح السفينة الحديدية تلك، ناظراً إلينا في تمذده تحت ملأته العسكرية وهو يدخن ثُفافته.

ما هم. فلتتبعه الآن، حيث تصاب العمارة بقذائف مباشرة، فيضطر «أ. دهر» إلى سدّ أذنيه من جراء الدوي، منحنيّاً نصف انحناءة. ومن ثم يكمل صعوده إلى الطبقة السادسة، يفتح الباب على عجل ويدخل. يستند إلى الجدار الشرقي للممر بظهره، متنفساً في تقطع. وينزل، بعد ذلك، قليلاً قليلاً، حتى يعدو مقرفصاً، آخذاً ركبتيه بذراعيه إلى صدره، وينظر بطرف عينيه إلى التلفاز القابع في الركن، ما بين باب غرفة النوم والحمام، دون أن يلتفت إليه بوجهه كله.

كان جالساً على النحو ذاته حين انهارت العمارة. وما من سبب كان يدعو إلى البقاء في الممر، إثر الهدنة المعلومة، والمواثيق الدولية التي تضمن هجرة المحاربين في أمان عن المدينة. نعم. أمان يشمل البحر واليابسة؛ أمان كرتة ستمزق فيها بعد.

لقد بقي الأقلون، في آخر أيام تلك الحرب المديدة، في مواجهة كل شيء، حتى أنفسهم، وهم يعرفون المقدار الذي جعل الحيلة، في ذلك الشرق، منسوجة على أتم ما تكون، كسجادة الصلاة المعلقة إلى جدار بيت لا صلاة فيه. وقد غادر هؤلاء الأقلون المدينة، على سفن، وفي البر، بمواثيق لم يبق منها إلا اسمها. وفي أثناء ذلك الخروج، درج الناس على أن ينعموا بأمان مكثوم، قدرة فقهاء الأحزاب بأزلي، والخاللون باستعادة النظام المتخلخل سلطته بما لا يزيد عن الضروري لاستعادة النظام سلطته، ليغرل، بيد من زقيق، ما خلفته الحرب من إمارات، وتعددية، وأساتذة تصدروا التعليم بقوة طوائفهم، ودكاكين لبيع الأقمشة والخضار، لصق الشاطئ المَعْدُّ - منذ أول الحليقة - لاستقبال السياح ذوي الأنوف المنمّشة؛ ليغرل عربات بيع الأطعمة المقلية، وباعة الثياب المستعملة، وهم يمدّدون بضاعتهم على جانبي الشارع

التجاري الضخم وسط القسم الغربي من المدينة.

أما الدولة فأعدت - بعد تقدير ضباطها ذلك الأمانَ تقديراً تراتبياً - ملفات الأمن العام، والخاص، وما دون الخاص وما فوقه. واتصلت بالطيارين على الأحزاب، والحركات، والقوى، وبالمقيمين فيها أيضاً، لتتدارك أي خلل قد يتبقى بعد رحيل من يرسلون.

نعم. أماناً ما. أماناً أيام مشغوعة يُعدُّ الكلُّ فيه للكلِّ ولانعة وسياقته، إلا «أ. دهر» الذي يمعن جلوساً في ممر شقته، كأنها لم تنته الحرب بعد، حتى انهالت عمارة «أبي كير». وقد لمحتناها، آن سقوطها، تنحني جداراً على جدار، وتنقوس الأرضية ببلاطها، حاضنة رفوف الكتب، وإطارات الأبواب، والأبواب، والكراسي، وخزانة الثياب المفتوحة، وقارورة الغاز، والحذاء الإضافي الملقى في إهمال قرب البراد، والبراد وقد اندلق ما فيه من أشياء معلبة (وهو البراد المطفأ أبداً بسبب انقطاع الكهرباء)، وجبل النسيل الممدودة على طول الشرفة، والشرفة بحديد سُورها، ومواسير المياه التي نفرت من الجدران، وأسلاك الكهرباء المقطوعة، وأوعية الطبخ، والصحون القليلة، والكؤوس ذات الحواف المهترئة كأنها قُضمتها الشاربون.

فَم من رنين وغبار التهم «أ. دهر» وأشياءه، فيما ظللنا - نحن الخمسة اللا مرتين - معلّقين في الهواء، وقد اخترق جُسمونا حطام الطبقات التي تعلو شقة «أ. دهر»، فكنا نرى، من علياننا ذاك، الكتل الإسمنتية، والأحياء، تنهوى إلى أسفل، مرَّجة كمنحاة أسقطها طفل. وكان آخر ما تنهوى خزان الماء الكبير. نعم، بدا معلّقا، مثلنا، إلى الهواء، بعد سقوط الاسمنت كله، ومن ثم نزل، في هدوء، صوب الغبار الذي علا الركام، كتلة واحدة، لم تندلق من حوافه إلا حفنات ضئيلة من المياه العكرة. وإذا لامس الأرض انفجر، مرخياً على الغبار عباءة شفيفة ضربت الانقاص في رقبتي، ثم ارتفعت من أثر لهاث ما، غبراء، قبل أن تستوي على الأشياء كلها ماءً محضاً، وسخاً، يتجمع أو يتسرب من شقوق الحجارة.

كان جالساً في ممر شقته حين انهالت العمارة، ضامناً ركبتيه إلى صدره،

كأنها لم تنته الحرب بموائيق ساخرة. وها هو جالس، الآن، آخذاً ركبتيه إلى صدره، غير أنه لن يقوم، بعد برهات قليلة من النظر إلى التلفاز المطفأ في الركن، هناك، متجهاً إلى باب المطبخ ليعبره إلى الشرفة، ثم يتكىء بيديه على الحاجز الحديدي الذي يعلو سور الشرفة، ملقياً ببصره إلى أسفل، حيث السفينة الراسية قبال عمارة «أبي كير»، وقد امتد الأفق من ورائها على ماء يتخفى الشرق في قناعه، فلا بيوت، ولا مسجد يُشعل مدفع «الهاون» على سطحه قلنَّ الإسمنت، ولا إسمنت، بل لا بُدَّ، كأنها ليس وراء السفينة الراسية قبال العمارة من مدني للفراع.

كان المحاربون على ما هم عليه فوق سطح السفينة، إذا حصرهم «أ. دهر» ببصره أو لم يحصرهم. وكانوا يدخلون لفافاتهم ذاتها، التي لم يأت عليها الجمر بعد، مذ وصلوا إلى ما يشبه الميناء قبال «أبي كير». ولو قام من مكانه لقمنا معه، لنرى رفيف الهواء المحترق على كل سطح يجاور العمارة:

ومضٍ إثر ومضٍ. دخان إثر دخان. أنين إثر أنين. شرفات بيوت، ومداخل، تنفتح وتنغلق على حديدتها وإسمنتها. شجر متهالك يتكىء على شجر فوق الأرصفة. معالم تنهت تحت ضربات الرعب، ومعالم تنحل عائدة إلى شكلها الهلام. جُسم من لحم تسترسل في انقسام أعضائها على أعضائها. أطنان حديد نثرت ريشها الجارح على الحي، في الوقت الذي كان بإمكان «أ. دهر» أن يتأمل فيه سفينة المحاربين الراسية قبال العمارة، كأنها كانت هناك من سنين لا تحصى، وقد علا جدرانها فطر مائي أخضر، وانبثق عن مسام سطحها الصلب ضباب رقيق لم يجاوز عنق الأحذية العسكرية للمحاربين الواقفين هناك، على امتداد السياج الحديدي من جهتي ذلك الهيكل الضخم، وهم يرمقون شرفات عمارة «أبي كير» في ضجر أشبه بضجر من ملّ مشهداً.

لكن «أ. دهر» لم يقم من مجلسه في الممر ليرى هذا، بل بقي متأملاً لجهاز تلفاز المطفأ، ضامناً ركبتيه إلى صدره. وإذا تأملنا الجهاز المطفأ بدورنا لمحنا، في سراب الشاشة البيضاء العميقة خمسة على كثافة متواجعة، كأنها يهيمون أن يجلسوا القرفصاء، صفّاً واحداً، لصق الحائط الغربي للسمر، في مواجهة «أ.

«دهر». فيما كان «أ. دهر» يحدّق في الكثافات الخمسة المرتسمة على الشاشة البلورية المظلمة هناك، في أناء، تماماً كما كان ينظر إلينا على سطح السفينة التي توجّهت غرباً. وإذا انتقلنا بأبصارنا إليه ألفناه منتقلاً ببصره إلينا، مواجهةً، فتلاقت عيوننا في استغراقٍ ساخر. وقد همّ أن يضحك، وهمنا أن نضحك، في الآن الذي ارتفع فيه صوتُ محرّكاتِ السفينة، مغطياً على الوحشة المنبثقة من انهيار أساسات «أبي كبر».

الفصل الثاني

قبل أربعين سنة من ميلاد «أ. دهر»، البالغ عقده الثالث، الآن، كان ثمت من يصرخ في احتداد: «خدعني. والله خدعني»، وينهض وأفقاً وسط وجوه صامتة في ذلك البيت اللبني، وقد تدلّى من حزامه قيد من تلك التي توثّق بها البغال، مضيفاً: «سأعود به، والله، كالجرور»، وهو يقبض على القيد الحديدّي، في إشارة صارمة إلى حَزْمٍ لا يَرُدُّ. أمّا الصّامتون، وهم جلوس، فلم يتحركوا إلّا الحركة المعهودة حين تتعب الأجسام من قعدتها، فيميل الشخص على رُذْفِهِ هذا، أو ذاك، ويمتدّ ساقيه أو يثنّيهما. غير أنهم كانوا مضطّجين، فاختلّفت الحركة على سجاجيد الصوف الخشنة، المبسوطة من ركن إلى آخر، فيما تثارّت فوقها مخدّات الريش، بمغالييفها الحائلة اللون، وقد تقدّم الشاب ذاك، وسط نظرات المضطّجين، من بوابة السور الغريب، الذي لا يعدو أن يكون أكواماً متراصفة من الخزّوب الجاف، لم تُغَلِّ أكثر من متر أمام غرف المنزل المتقاطعة في زاوية حادة. أما عمر ذلك السور فكان مفتوحاً، لأنّ لا باب له. غير أن النهار الربيعي، في ذلك اليوم - بل في عصر ذلك اليوم، تحديداً - رفع عتبة رقيقة من العشب تصل بين دفتيه اللتين تفصلهما ثغرة غير هندسية، وكانت الخطّوات قد تركت معالمها على تلك العتبة العُشبية، فخفت الأثر الأخضر حيث تطأ الأقدام الأرض، في خطّين صغيرين متوازيين، تماماً كالآثار التي تتركها العربات في الأرض الخلاء. أمّا كيف اتّفق أن عابري تلك البوابة المفتوحة أبداً كانوا يطأون الموضع ذاته، بأقدامهم، فنلّك مسألة حسابية صغيرة: عليهم أن ينظروا، أن دخولهم، إلى الجدار الذي تتكى عليه

المرأة العجوز، في كل نهار مشمس، ضائعة بعظامها الرقيقة تحت ثيابها الفضفاضة، وغطاء رأسها المحاط بعصابة على استدارة الجمجمة. والعجوز تقعي في الزاوية تلك، أبدأ. لا تتكلم قط في المجلس، لكنها تحذق بعينيها اللتين حال لون حدقتيهما، فبدتا مستورتين بغشاء أغبر، إلى تلك البوابة، فيضطر الداخل إلى التوجه إليها بقدميه، ويبصره، معاً، فيطأ الموضع ذاته في العشب القصير. وعلى هذا النحو تحدد خطان في العتبة، كأنها عجلاّت عربية تعبر الخلاء. أما العجوز، فعلى قصر بصرها توهم الداخل بوجوب أن يحظى برضاها الصامت. وعلى معرفة الداخلين أن لا فرق في رضاها أو سخطها، فقد أوحوا للمجالسين الآخرين أنهم يأخذون نظرات المرأة على تحمل ما، كل منهم بدوره: الداخل يوحى للجالس، والجالس يوحى للدخل، وهكذا. والمرأة العجوز تلك، لم تكن غير أم الرجل الذي قام من مجلسه، صارخاً: «خدعني»، وخرج من بوابة سور الخرنوب، متحسناً القيد الحديدي المتدلي من حزامه.

قبل أربعين سنة من مولد «أ. دهر» خرج جدّه من جهة أمّه باحثاً عنه، بصراخه ذاك، ولم يكن على أحد، قط، أن يحدد ما الذي خدع الحفيد به جدّه، فكيف بحفيد غير موجود بعداً. لكن ذلك لم يحظر ببال المجالسين. أي: لم يحظر ببالهم أن الجدّ الشاب يعني بصراخه حفيده القادم بعد أربعين سنة. ولو أدركوا الأمر على غرابته لثساءلوا: «خدعته براذا؟». ولضحكوا من مهزلة الأمر بافتراض وجود الحفيد، أو بعده، على أية حال. غير أنهم ارتدوا أقنعهم الرصينة في ذلك الموقف، ناظرين بعضهم إلى بعض، وهم يهزون برؤوسهم: «خدعته. نعم. خدعته». وقد أضاف الممعنون منهم في الانحياز إلى موقف الشاب الغاضب كلمة «لا يجوز»، وأردفوها بـ «لا. لا يجوز ذلك»، ثم رفعوا سباباتهم عالياً، إلى مستوى وجوههم، وهزّوها ذات اليمين وذات الشمال، هامسين: «لا»، في الحين الذي جاوز فيه جدّ «أ. دهر» (جدّه بعد أربعين سنة) بوابة سور الخرنوب، ممعناً في تعقبه الغامض الحفيده الذي خدعه. كان الخلاء جميلاً في ما وراء ذلك السور، بل مستسلماً إلى سكينه الربيع

الشاحب، كفصل عليه أن يؤدي مهمته الرقيقة دون انفعال. وهو يبدو شاحباً، خشية أن يفقد توازنه في مشيته على حبل الأرض المثلوم: هكذا ترامى المشهد بسهولة، موج تحت خفقة الريح كما خفقت قلب هائل لا يرى. أما جدّ «أ. دهر»، فيما بعد، فقد لاح كسليم صغير في المدى، ينسبط قماشه تارة، ويلتف على الصارية تارة أخرى، إذ تلتفت عليه عباءته البنية في دورة الريح - وهي كانت تدور من حوله ككلب مرح - فتلتصق بعظامه النافرة قليلاً، ومن ثم تحفّق خفّقاً وتنتفخ، لتعود، في برهة أخرى، مُسندلة على جذع الشاب، الذي لفت حطته السمكة على استدارة رأسه، وترك إحدى ذؤاباتها تتدلى من جهة أذنه اليسرى.

لم يكن على عصر ذلك اليوم أن يكون طويلاً أكثر، برغم خروج جدّ «أ. دهر»، كهائم، لا كمن يعرف وجهته، وكأنها هو على قاب فراسخ قليلة من مبتغاه، قبل المغيب. وقد حلّ المغيب، كمنه تماماً قبله ونمّا بعده، والشاب ماضٍ تقوده عباءته ويقودها. ومن ثم أعتم المدى لوناً لوناً، فباتت الأحاديث، والأثلام، وحدها، أكثر إعتاماً، أما المتبسطات فاستوت رمادية، تفرق، قليلاً، قليلاً، في البطش المتعاقب للمساء السهران. وكان على شبح الجدّ الشاب، بدوره، أن يعتم لوناً لوناً، بدءاً بالعباءة البنية وانتهاء بحطته البيضاء، المشغولة حوافها بعروق برتقالية، وشرائيب متناثرة من طول استعالمها، حتى غدا هو والأفق المستسلم لمحاة الليل الكبيرة أرقاً واحداً في دورة ذلك اليوم.

الفصل الثالث

في إحدى هذات هذا المكان، دون تحديد لتاريخها، تنفست عمارة «أبي كبير» رويداً رويداً. وقد ظهر الرجل الأعرج، الساكن في الطبقة الثانية، أولاً (وكان يظهر في طليعة العائدين إلى العمارة أبداً، في كل هدنة تعلنها الإذاعة بين المتحاربين) عندما هدا القصف العشوائي الأخير. وقاطنوه هذه العمارة، وما يجاورها، يتزحون أسرع كلما علا هدير قذيفة، لكثرة ما في الحي من ركائز للدافع «الهاون»، في حفر رملية مبنوثة بين فناءات الأبنية، وفوق أسطحها أيضاً. وهم يعودون بالطريقة السريعة ذاتها التي نزحوا بها، في الهدنات، من غايء مجهولة في أحياء أخرى، كأننا ينبتقون من شتمة تُطْلَقُها الأرض.

كنا - نحن الخمسة اللا مرتين - نسمع اصطفاق أبواب، ونداءات آباء إلى أبناء، والتفاف الجارات بعضهن على بعض، فلا نصغي إلا إلى الحركة العجولة لـ «أ. دهر». و «أ. دهر» لم يكن قد غادر العمارة، برغم ظلامها، وانقطاع مائها، ووحشتها، لكن عودة الناس أهمته حركة عجولة ما كان يديها حتى في القصف، فإذا به يبعضي إلى الشرفة تارة، ملقياً بعصره إلى أسفل، حيث الفراغ المائي والسفينة الراسية هناك، ويرجع فيهب إلى الطبقة الخامسة، متفقداً شقة صديقه الرسام. ولما يجدها صامتة يعود أدراجها إلى شقته، فيجلس القرفصاء في السر وفلهره إلى الحائط، كعهده بالجلوس آن تسقط القذائف من حول الشرفات الثعينة.

غير أنه حظي بصاحبه، بعد تكرار الصعود والهبوط قبل الظهر بقليل حتى الغيب. فقد لمح، أخيراً، من خصائص الباب الموارب، دون إغلاق،

ذلك الضوء الشاحب الذي اعتاده من شموع تنشئ نشيئاً، بعد برهة وأخرى، كأنها يخالط الماء الشحم الذائب، فتتبايل ذبالات اللهب، أو تحفّت زرقاء مختنفة، وما تلبث تعلو صفراء ثانية، فتتكّل الظلال بالظلال.

ولما بلغ «أ. دهر» الباب عبره دون قرع، فكاد يتعثر بساقي الرسام المتمدد على أرض الغرفة، متكئاً بمرفقه على مقعد لصق الجدار. وكان يبدو في تمدده كمن دخل ثراً، واختار أول ركن صادفه لاستراحته، لذلك بدا أقرب إلى الباب منه إلى أي ركن من فناء الغرفة، حتى أن الشمعة التي أضاءها كانت تعلو رقاً واطناً من رفوف مكتبته. والشموع في بيته مثل الشموع في أي بيت آخر، يجري تثبيتها في كل مكان، فتضاء بحسب حاجة العابر من ركن إلى آخر في العتمة. وأولها يكون قرب الباب عادة، فوق أي شيء عالٍ، أمكنية كان أم كرسيّاً، قارورة غاز أم تلفازاً. وقد تخطى الرسام ذلك إلى تثبيت الشموع فوق كوم كتب لم تجد محلاً لها فوق الرفوف الخشبية، فتدلّ عليها فطر ذائب، من كل لون، متخثراً رقيقاً، في خيوط تنتهي برؤوس مستديرة كرؤوس أعواد الكبريت. وإذا تدارك «أ. دهر» أن يصدم الساقين لم ينظر إلى صاحبهما، بل إلى شرفات العمارة المقابلة، جنوباً، من الباب المزجاجي العريض في آخر شقة صديقه، ذات الغرفة الواحدة المقسمة بخزانة كبيرة للثياب في منتصفها، فتعدت غرفتين: للجلوس وللنوم.

نعم. «مس. أ. دهر» مبتسماً:

- عاد السجناء.

والتفت، بعد كلماته - في وقفته تلك - إلى صاحبه الذي رفع وجهه إليه، مبتسماً بدوره، وقد انعقد شعره من خلف، من جراء التصاق رأسه بالحائط. وقبل أن يعقب المتمدد على جملة «أ. دهر» أضاف الأخير، مستدركاً: «يسألون عنك»، وعزم بعينه في الفراغ الشاحب، فتمتم الرسام: «من؟»، فرد «أ. دهر» ساخراً في خفة:

- الذين رسمتهم.

فجاءه صاحبه المبتسم: «لم أرسم حتى خصيتي»، منذ وقت طويل». فتقدم «أ. دهر» إلى وسط الغرفة، ناظراً ثانية إلى شرفات العمارة

المقابلة، قائلاً:

«إذن، هُم الذين سألوا عنك»، وألوى بعنقه صوب صديقه المتمدّد، غامزاً من جديد: «الذين لم ترسمهم، وكذلك خصيتاك». ففقهه الرسام، وقد أحاط خصيتيه بيديه يقبهما من ضربة وهمية: «أظنني ضيّعتهما». فوافقه «أ. دهر»: «ولماذا الظن؟ لقد ضيّعتهما منذ زمن»، وأشار بيده، ذات الأصابع المفرودة، في استطراد غير متجانس: «رحمها يتسع. عاد السجناء.

كان عهدهما إذ ينظران إلى تلك العمارة أن يصفيا قاطنيتها بالسجناء، مقهقهين حتى التمايل على شرفة الرسام، وهما يلسمخان الستائر الخشبية ذات الشرائع المتوازية عَرَضاً تُسَدِّل في عصبية واضحة، هنا وهناك، على الأبواب وعلى النوافذ المطلّة من تلك العمارة على «أبي كير».

كنا - نحن الخمسة اللامرئيين - نلمح، بأنفسنا، إضافات مضحكة على المشهد، فكلّمنا خرج قاطن من عمارة «أبي كير» إلى شرفة مواجهة لتلك العمارة، عمد قاطنو الشقة المواجهة إلى إغلاق النوافذ والأبواب، بل يخرج أطفال تلك العمارة ألسنتهم لقاطني عمارة «أبي كير» في ترفع غير مُبرّد.

لقد كان الفرق واضحاً بين العمارتين في تصميمهما، وفي الستائر المعدنية لـ «أبي كير» والخشبية المبتكرة للعمارة المقابلة. أما أصص النبات والزهر، التي كانت تزين حواف شرفات تلك العمارة، فلم يكن لها ما يعادلها على شرفات «أبي كير». وكانوا - نحن سكان العمارة المقابلة - يتفنونون في اقتناء نبات سريع النمو، في استطالة، كأنها يسدلون حجاً بين العمارتين. لكن قاطني «أبي كير» كانوا يجارون جيرانهم على نجسٍ ساخر، فيكثرون من تعليق ملاسهم الداخلية، وجوارهم، على حبال تمتد بين جدران الشرفات، أمفسولة كانت أم غير مفسولة، في تصاقب دائم. وكان الذين ينشرون الثياب تلك، نساءً ورجالاً، يتأملون كل قطعة ينشرونها، دائرين من حولها كمن يتأمل ثوب عرس، وهم يلقون بنظرات هازئة إلى العمارة المقابلة، دون تحديد، إذ لن يخطئ أحدٌ منهم في أن هناك من يراقبهم من وراء الستائر المُسدلة في غيظ.

- قال «أ. دهر»: «رحمها يتسع».

فرّة صاحبه المتمدّد: «لا رحم لها»، وسحب ساقيه الممدّتين، متراجعاً عن الحائط بظهوره، فاستوى قاعداً: «انظر»، وأشار إلى لوحة شاحبة فوق العارض الخشبي: «لم يبق غير النافذة». ثم أشعل أنفاً سحبتها من علبة ملقاة تحت فخذه: «ترجع هذه العمارة القحبة من لوحتي إلى مكانها، دائماً، إلا هذه النافذة».

فوافقه «أ. دهر» كعارف:

- إنها نافذة الشقة اليمنى في الطبقة الثالثة. رأيتهما من قبل.

ولم يكن ممكناً، بالطبع، رؤية الطبقة الثالثة في العمارة المقابلة من موقع «أ. دهر» وسط الغرفة الشاحبة، إلا إذا تقدّم إلى الشرفة، وألقى ببصره إلى أسفل. غير أنه كان قد رآها، من قبل، مراراً. وهو يستطيع أن يستلهم المنظر، من موقعه، دون أن يراه: شقة لا نافذة لها، من جهتها المطلّة شالاً على عمارة «أبي كير»، لأن النافذة ظلّت مثبتة إلى قياس اللوحة، بينما اختفت الجدران، والشرفات، والظلال، والأصص، والنباتات.

كان صديق «أ. دهر» يعيد رسم العمارة كلما اختفت من لوحته، وظهرت في المكان الجنوبي المقابل، بدءاً من موقع النافذة وما يحيط بها من أطوال ومسافات. وكان، أيضاً، كلما أنجز رسم العمارة اختضت من مكانها، لكنها تعود فتتزعج عن اللوحة، بتدبير هادئ، فلا يبقى على القماش المؤطر، ذي الفراغ الأبيض المطلق، إلا النافذة تلك، معلقةً إلى البعيد البعيد.

وللمرة الأولى، في فطنة ظلت غائبة دون تبرير، سأل «أ. دهر» صاحبه: «من يسكنها؟»

والفتت إلى القاعد: «من يسكن هذه الشقة القحبة؟»، وهو يعني بإشاراته تلك الشقة التي تأتي نافذتها مغادرة اللوحة، فضحكت الرسام: «لو سمعتك غيري لصديق سؤالك». وغمز بعينه في الضياء المنسحب إلى قَدَرٍ هزيل وسط الشموع الموزلة، فسأله «أ. دهر»، في إهمال: «أعرف؟». غير أن الآخر استمر في ضحكه، وغمز بالعينين معاً، في طريقة تصنع طفولة فكاهية: «لا ترفع صوتك أكثر. سيسمعونك».

وصرخ، بغتة، في قعدته، ودخان اللفافة يَحْتَرِقُ شاريه الأشقرين: «ابنكم هنا»، كأنها يتوجه بصراخه إلى تلك العمارة التي لا يرى إلا طبقة واحدة منها، من مجلسه المنخفض. فالتفت إليه «أ». دهر» متأملاً، بابتسامة شاحبة كالمكان ذاته:

- ابن مَنْ هنا؟

فرد صاحبه: «ابنهم. أنت».

كان ذلك في مساء يوم شملته هدنة ما، دون تحديد لتاريخ، أما صباحه فقد جرت وقائعه على نحو ما يجري في الهدنات الأخرى. وهو ما يشبه، في بعضه، الصخب الذي يعرو عمارة «أبي كير» حين يعود قاطنوها النازحون عنها إليها. ولربما عمد أناس منهم إلى تفقد جيرانهم كما فعل «أ». دهر» في تفقد لصديقه الرسام، مثلاً. لكن بعض الوقائع الأخرى بمضي في شكل لا يشبه هذا، كأن يجد أحدهم منزله مخسوفاً، وجاره مقتولاً. ثم يرى، بغتة، رجلاً قصير القامة، أو طويلها، يتفقد العمارة، وسط حرس مدحجين، ملقياً بتحيات مبهمة من حوله، وقد تصنع الألم، عجولاً في حركته، يوشوش البعض مَنْ يرافقونه، كأنها يترجون الحراب إلى لغته. ويعود فيخفي بغتة، أيضاً، كما ظهر.

وكان عهْدنا، في أيام هدنات كثيرة، أن تسترسل تلك المرأة، ذات الحَوْل الخفيف في عينها اليسرى، إذ تزور «أ». دهر»، في وصف واحد من هؤلاء، يقتحم الشارع الذي تقطنه برجال يبدون أقل فظاظه من حرس الآخرين، مرتدين ثياباً مدنية لا عسكرية، فيحييها أوّل من يجي، أو هكذا تعتقد، إذا دخل الشارع بسيارته الرقّة (وهي رقّة بقصد التمييز) من الجهة الجنوبية، بينما ترافقه سيارات فارهة. والمرأة لا تتوقف عن وصف ذلك الرجل ذي الشاربين الأفقيين كخط مُسَطَّر، مها اعتراض «أ». دهر» حديثها بأخبار تثير الفضول لو رويت لشخص آخر:

- «كان يتبعني. أنا لم أره، لكنني أحسسته يتبعني حتى شققي»، يقول الشاب، فترفع الحولاء عينها إلى مدى شرفة «أ». دهر» من غرفة الجلوس في شقته:

- «أستطيع أن ترى الشارع من هنا؟ لا. هذا هو ارتفاع شقنا عن الأرض تقريباً»، وتلفت إلى الجالس الضجران أمامها، مصيفة:

- «لا أستطيع أن ترى الشارع، أليس كذلك؟. أنا لا أستطيع أيضاً، من غرفة الجلوس في بيتنا، لكن لم يفتني دخوله إلى الحي مرة واحدة»، وتستدرك: «إلا مرة واحدة». فيحاول «أ». دهر» جذبها بجملته جديدة، حين تأخذ المرأة نفساً، قائلاً:

- هو الذي يشعل أعناق العمارة بنباح الكلاب؛ هو الذي قادها كل تلك المسافة.

فتعلق ذات الحَوْل الخفيف: «جميل»، ثم تكمل: «إلا مرة واحدة. ابنتي ألهتني بصراخها، فلم أنتبه». فاعترض «أ». دهر» حديثها: «ما الجمال في ذلك؟ حشد كلاب الأرض في أعناق العمارة، فما الجمال في ذلك؟».

غير أنها جاوزت إحتداده الخافت: «جميل. أقول ابنتي هي التي ألهتني». فردّد الشاب كلمتها: «جميل. نعم جميل. نباح جميل. يا لجمالك». ودفعها بيديه على الكتبة فاستلقت متكئة على مرفقها، ضاحكة من قصده الواضح: - «أنت تُسكتني، أليس كذلك؟» فلم يجب الشاب المزعج على نزع بنطاله، في هدوء مشيع برائحة ثأر جسدي.

كنا - نحن الخمسة اللا مرتين - لا نغير اهتماماً إلى ذلك الأمر الذي حصل في حضورنا مراراً، وكان مشبعاً بفضول خائب، وبنزوع واضح إلى الإنكسار، كأننا يتعب هؤلاء - ذوو الأشكال الهندسية - من انتصاراتهم التي يتحدثون عنها، فيرغبون في التخلي عن بعضها، من آن إلى آخر. ونحن - بالطبع - لم نلمس حدوث انتصار، أو وقوع ما يوجب التذليل على انتصار إلا في كلام «أ». دهر»، دون أن نرجح مقدار الفكاهة على الجد فيه.

«ما حاجتنا إلى انتصار في راهتنا؟»، كان يقول للحولاء المبهتة في إعجاب بما يقوله هو، يتبدل - بعد برهة - إلى إعجاب بما تقوله هي. ويضيف: «نحن منتصرون في الماضي كله، فلماذا الجشع؟». وكان تأكيداً على كلامه هو أن تنكس بمرفقيها على فخذيها، مستندة بذقنها على يديها المضمومتين، في تحديق زائغ، متفكرة في تعقيب لا تقع عليه، فتسترسل مُتَمِّمة كلاماً انقطعت

عنه من قبل :

- ابنتي لا تفرع الباب . أبوها صك لها مفتاحاً .

هذا ما سمعناه في أوقات ماضية . أما الآن ، أي في البرهة التي يحدثها الشاب عن انتصارات تندرج كالكرة على سلم الحاضر ، هبوطاً من مستقبل مفتوح على الرئين ، صوب ماضٍ كاهوة ، لئس ، عميق ، متناوٍج ، يتسع لما يمكن أن يلقي فيه من يشاء بأثاث بيته ، ويعظام كلبه ، وبأحذية امرأته وأقلام طفله ، بصورة الحائلة اللون ؛ بأقمار يحفظها في جيبه ؛ بأقرب وأخص من ورد ذابل ؛ يكتب لا يقرأها .

كان ذلك يجري في بيتها عادة ، أي تلك الاستفاضة في الحديث عن انتصارات يعقبه همس المرأة : « ابنتي لا تفرع الباب » . والأمر بسيط على أية حال . فالحولاء ، إذ تكون في شقة « أ . دهر » تقاطعه ، أبدأ ، بأخبار الرجل ذي الشاربين المستقيمين ، الداخِل إلى شارع بيتهم بحرسه . وإذا تكون معه في شقتها فإنما تلهج بالمفتاح الذي في حوزة ابنتها ، كأنها ترى فيه تعجيداً من الأب لابنته في استقصاء البيت إذا غاب . والأب كان غائباً ، ذلك الأسبوع الذي كَلِم « أ . دهر » المرأة عن انتصارات قد تنسحب ، بمنعول رجعي ، من الماضي الكريم على المستقبل الكريم .

وكاننا ، في ستة أيام تبدأ من العصر حتى منتصف الليل ، يتبادلان إشارات صلبة - وهما جالسان وجهاً إلى وجه - بالأيدي التي تتلمس الأيدي ، وبالشفاة التي تتلمس الشفاة ، وبالمداعبات المختلصة ، فالإبنة بالمرصاد ، أو هكذا توهمها . ولربما عمداً ، بين غياب الفتاة الصغيرة عن الشقة ، من أن لاخره ، إلى ما أسلفنا من ذكره : ينزع بنطاله في أي ركن مستور ، في توتر مشيع برائحة ثار جسدي ، ينتهي إلى ما ينتهي إليه الحي أبدأ .

نعم . قالت له : « أنت تُسكتني ، أليس كذلك ؟ » ، في تلك المرة التي كانا في شقته هو ، ودفعها بيديه دفعاً خفيفاً على الكتبة فاستلقت ، كأنها تنتظر الحركة الكورية من أصابعه الطويلة من نحولها . لكنها لم تتوقف ، حتى في الأمد المحكم بجسارة الجسدين ، الطافي على حداق من لهاثها :

- ابنتي ألهتني . رأيته داخلًا .

فتمتم « أ . دهر » : « هكذا . هكذا » في اختناق ، وهو يرتطم بها فيترجرج الشحم القليل من حول سُرَّتْها ، فتمضي صارخة :

- ابنتي ألهتني . فتحت الباب بمفتاحها دالفة ، فجاءة ، وهي متوترة : ماتت جدتها . إيه . كانت تعني بكلامها صديقتها في الشقة التي تقع أسفل شقتنا .

كانت الحولاء تصل الكلمة بالكلمة ، متجانسة ، في فحيح تنفصم فيه حنجرتها عن جذعها المتواطئ مع فخذي « أ . دهر » ؛ بينما يبدأ الشاب قليلاً قليلاً ، وقد علا جبينه ، وملقَى حاجبيه ، رَشَاش من غرق تصل حبيباته في دعة ، فتشكّل مجرى على استقامة أنفه . وفي اللحظة التالية ، حين كان الشاب ينهض متثاقلاً عنها ، كانت هي تكمل ما انقطع ، ويدها تمسح ملتقى الفخذين بمحارم ورقية :

- « تصوّر . جدتها ماتت في إحدى الغرف بينما أخذت الفتاة ابنتي إلى غرفة ثانية ، وهي تنزع سروالها ، قائلة : انطري » . وقامت واقفة : « كانت ابنتي مدعورة حين دخلت فهدأتها ، وأنا أشرح الأمر على أنه عادي ، فصديقتها دخلت ، بذلك الدم الذي سال على سروالها ، طور البلوغ » . ورفعت يديها معاً إلى صدرها فانسَل ثوبها على العري الذي تفجّر قبل قليل :

- « ابنتي في الثالثة عشرة ولم تبلغ بعد على نحو ما جرى لصديقتها التي في سنّها » . وانحنّت تلمّ منديلاً ورقياً عن الأرض : « أنا بلغت في الثالثة عشرة » ، ثم استقامت ناظرة إلى « أ . دهر » الذي استدار متجهاً إلى الحمام ، فتبعته . وبرغم أن الشاب أغلق الباب المفضي إلى المغسلة من خلفه ، إلا أنها لم تبارح العتبة ، صارخة حتى يطغى صوتها على صوت الماء المنبثق في قوة من زاوية ما في الحمام : « أنا أيضاً . . . » ، فأثابها صوتُه ضعيفاً ، مُشغلاً باغتساله : « ماذا ؟ » ، فكررت : « في الثالثة عشرة تبقع سروالي بالدم » .

كان في مستطاعنا - نحن الخمسة اللا مرئين - أن نلمس لا مبالاة واضحة على وجه « أ . دهر » حين ردّ « ماذا ؟ » من قبيل المجاملة . ولما خرج من الحمام جاور الحولاء الواقعة لصق الباب ، متجهاً في الممر القصير إلى غرفة الجلوس ، ثم استلقى ماداً ساقيه في ارتخاء قبل أن تصله كلماتها التالية :

- « ارتباك ابنتي ألهاني ، فإذا به في الباب » . واستدارت مقبلة صوب « أ .

دهر:

« فجاءه صار الرجل في الباب. كنت أشرح لابنتي أمر صديقتهما فإذا بالرجل في الباب، دون حرس.

أقلت المرأة كلمتهما تلك في إكبار الأمر يمازجه اعتداد أنوثتي: «ياي. لم أصدق»، واستدركت: «الصدق أنني توقعت ذلك. لا أعرف كيف. لكنني توقعت ذلك». وجثت على الأرض قرب ساقتي «أ. دهر» الصامت:

«لم أستطع إلا أن أقول تفضل، فدخل محبياً من تحت شاربيه المستقيمين. وأطلقت همسة نهمّة «أوه»، ثم تلمست بسبّاطي يديها شفة الشاب العليا، كأنها ترسم فوقها شاربين: «هكذا». وأنزلت يدها على مهل حتى لامست بطنه، فضغطت عليه في رحمة: «أتغار؟».

لم يجهد «أ. دهر» نفسه في أي رد سوى أن استدار بوجهه إليها، وهو لما يزل في استلقائه على كرسیه الوثير، ذي المساند العريضة العالية، وغمزها دون أن يعني شيئاً بغمزه، فكررت: «أتغار؟»، وهي تمسك بتلابيب قميصه، متوعدة في مرجح، رفعت الشاب يديه المرتجيتين إلى يدها، فوق صدره، وضغط عليها:

«من أغار؟ منه؟ من زوجك؟ أنت لست لأحد، فممن أغار؟».

وفي برهة قليلة علا وجهها تساؤل: «أحقاً لست لأحد؟»، وقبّلت ذقنه، مردفة: «ألست لك؟»، فلم يجيبها «أ. دهر» في تلك اللحظة التي كانت عيناه تتبعان حركة فخذها اليمنى في جثوها، وهي تصطدم بالمنضدة الصغيرة لصق كرسيه، فتندلق من فوقها كأس عصير البرتقال.

لقد تتبع الحركة مذ جثت ذات الحول الخفيف قرب ساقه، وصارت تتقدم على ركبتيها من صدره، رويداً رويداً. وكاد أن يحذرهما من ركبة رجلها اليمنى الذاهبة، خطأ، في اتجاه المنضدة، لكنه أثر الاسترسال في تأمل المشهد يكتمل بالكأس المهرقة.

قال لها منذ دخولها شفته: «أنت تحبين العصير، ولدي علبه من مسحوق البرتقال الرائع»، ثم حضّر كأساً من ذلك الدقيق الأصفر، المخفوق بالماء، ووضعها على المنضدة. غير أن الحولاء لم تشرب منها إلا رشمة واحدة، ثم

نسيتهما في ضمرة التمهيد الطويل عن دخول الزعيم الشاب ذي الشاربين المستقيمين إلى شقتها.

لن نتدخل - نحن الخمسة اللا مرتين - في السياق الذي أفضى به «أ. دهر» إلى عدم تحذير المرأة وهي تدلق الكأس، إذ كان عهدنا به يكره عصير البرتقال لما يسببه من حموضة في معدته. لكنه بدا أكثر انشراحاً لما ابتعدت المرأة عنه، مجفلة من سقوط الكأس، وهي تشتم: «أخت الفحبة» متوجهة بكلامها إلى المنضدة، فسحب «أ. دهر» ساقيه الممدّتين، مخففاً:

«لا عليك. المنضدة متعودة على ذلك».

وكما كان واضحاً أن الحولاء أخذت الأمر على محمل خفة، بحق، فعادت تكمل ما لن ينتهي:

«تفضل. قلت له تفضل. فدخل مهتساً من تحت شاربيه المستقيمين.

وسدت سبّاطيهما في اتجاه شفة «أ. دهر» العليا، لتكرّر رسم صورة الشاربين، فأشاح الشاب بوجهه قليلاً، في ضجر، فتراجعت إلى الوراء وهي لم تزل جاثية، وتأملته نصف معتذرة:

«أنت تشككتني، أليس كذلك؟ معك حق، لقد أطلت». والتفتت صوب الكأس المهرقة: «أنا سأنظف البساط». ثم تابعت على نحو مفاجئ: «ومألوف: - أشرت أن يجلس على الأريكة، فأثر الجلوس على الكرسي قبالي، ثم أخرج علبه تبغ فمدّها إليّ، فاعتذرت».

وأطرقت متممة: «أتعرف لماذا اعتذرت عن تناول اللبافه منه؟»، فمط «أ. دهر» شفته السفلى، فتراجعت الحولاء إلى الخلف أكثر، حتى غدت جالسة على البساط، وهي ترفع يدها اليمنى إلى مستوى عينيها المطرقتين:

«خفت أن ترتعش أصابعي».

رفع الشاب حاجبيه للتدليل على استغرابه، بطريقة واضحة في مجاملتها، لكنها لم تكثر لحاجبيه المرفوعين، إذ أغضت عينيها نصف إغماضة:

«هكذا تأملني من خلف الدخان، فتداركت ارتباكك سائلة إن كان يريد شرباً، فهز رأسه نافياً، فالحجت إن كان يهجم أمر حاوي صنعها أنا فتغافل

عن عَرَضِي، سائلاً عن ابني التي لم تبارح مكانها قرب المكتبة، بعدما شرحت لي أمر صديقتها، ففوجئت.

وحَدَّثْتُ في «أ. دهر» تستنطقه: «ابني؟ ألم يكن ليفاجئك سؤال كهذا؟». والتفتت إلى الجهة اليمنى حيث هي جالسة، بينما ظلت عيناها على الشاب:

- هكذا. اكتفيت بالتطلع هكذا صوب ابني، فأنحني بنصف جذعه من على الكرسي، متطلعاً بدوره إليها.

وسكنت منصرفاً إلى إدخال يدها تحت ثوبها، بين الساقين، مستخرجة عرمة ورقية مبللة: «ما فائدة هذا الصمغ؟ ها؟». وقربت المحرمة من وجهه، مكملة: «من دونه أفضل. كل شيء من دونه أفضل. صمغ...». وأخرجت لسانها لتصنع التقرُّر:

- «ع ع ع. نسل. زيادة نسل. حيوانات تكبر لتسميها بأسماء آدمية. وما الفارق؟ يسمون الحيوانات بأسماء آدمية أيضاً. غير أنني فوجئت. والله فوجئت». ولكزته ساقه: «بدا على ابني أنها تعرفه. ابني التي لم ياتها الحيف».

ثم رفعت يديها معاً، مفردة أصابعها العشرة: «عشرة». وضمت من العشر سبعاً، متممة: «وهذه ثلاثة... ثلاث عشرة سنة. نعم. أنا بلغت في الثالثة عشرة، لكن لا معنى لذلك. كنا نلعب أحياناً هذه اللعبة المعهودة بين الصغار من الجنسين، أما أن...»، وضربت صدرها بيدها ضربة خفيفة، فارتجّ ثدياها المتحرران من حائلتهما، التي كان من الممكن رؤيتها هناك، قرب ساق الكنية، متكوّمة في خنفر بالنقوش البيضاء المخرّمة على المكمنين اللذين يخفيان، عادةً، حلّمة هنا وحلّمة هناك، دون غمويه كثير، حتى لا يتحدّث كبرياؤهما إذا انتصبتا جيلتين، وهو ما اتفق «أ. دهر» معها عليه:

- «جبلتان حلمتاك»، فتلمّسها المرأة ذات الحول الخفيف، الذي يبدو جيلاً في بعض الأنا: «أعتقد ذلك»، تنتم معقبةً، وتفرّكها فتفتنجان تحت بصر الشاب الذي لا يعجبه كثيراً إطرأها هي لنفسها، فيعاتبها:

- بضيق جهاها كلما قلت إنها جبلتان. ألا نكتفون بإطراء الرجال؟

فترد الحولاء متفكّهة:

- أحب أن أطري نفسي. أنا لا أكتفي بمديح شخص واحد.

فيتمزها «أ. دهر» متفكّها بدوره:

- «شخص واحد؟ وزوجك، ألا يطربها؟»، ويرفع يده اليسرى فاردأ منها إصبعين: «صرنا اثنين». فتمد الحولاء يدها إلى يده، مطبقة على إصبعيه في قسوة: «واحد. واحد فقط». فيوافقها «أ. دهر» وهو يراها معتصرة إصبعيه: «صار واحداً». فترخي الحولاء يدها، غامرة، كأنها تردّ على غمزته السابقة:

- زوجي لم يقلّها. أخفيتهما عنه حتى زواجنا، ولا أدري إن كان لاحظهما بعد ذلك.

وقامت من مجلسها على البساط لتتعدّ كرسيّاً قريباً، وهي تترك ركبتيها المتصلبتين قليلاً من جلستها تلك، مردفة: «لست وحدي من يقول هذا. صديقاتي كلهن يلاحظن غفلة أزواجهن عن الحلمات»، وترسم إشارة تنمّ عن اختزال مسافة: «من هنا إلى هنا»، أي من فمها إلى فرجها: «ينحدرون من هنا - دون المرور بأيّ مكان آخر - إلى هنا». فيمسك الشاب بيدها النازلة إلى أسفل جذعها، في إشارتها تلك، هامساً: «ومن هنا إلى هناك»، صاعداً بها إلى فمها. ثم يقوم وقد واجهها بنصفه الأسفل: «إصعدي أنت أيضاً من هنا إلى هنا» مشيراً، بالتتالي، من أسفل بطنه إلى فمه.

كنا - نحن الخمسة ذوي الكشافات اللينة كمسند كرسي «أ. دهر» - نشهد حركة الشاب تلك وقد بلغ اللا إكثراث منا مبلغ. ولسنا ندري إن كانت كلمة «اللا إكثراث» تليق بأحوالنا، وهي، عادةً، حالّ من شأن هؤلاء المنسّين في أفعالهم المذوّبة على غير وجهها. لكن لا بأس من ذكّر الحكاية، ونحن نعرف ما تشهد الساعية الأخرى من الوقت بين الشاب والحولاء، إذ ستعود إلى سرد ما ينبغي أن تسرده:

- حدّق في ابني مبتسماً، من مجلسه على الكرسي، ثم غمزها، فأشاحت ابني بعينها عنه إلى، كأنها تتهرب من أمر يعرفانه، فحرت. والله حرت قليلاً. لكنه فاجأني أكثر، إذ سألني السماح لابني بالترّد على بيته، لئلا رجعا - هي وابنته - دروسهما، إذا لم يكن من مانع. ولقد أحسست أن جفن عيني اليمنى يرقّ

من طلبه الهيسن هذا، فأعدت النظر إلى ابنتي أتوسلها القبول، فأغضت من خجلها، فأبدت له قبولي نيابة عنها، ففاجأني قائلاً من فوره: «بيتي مفتوح لك». قالها وخرج بطريقته العجولة كما دخل، دون أن ينسى المرور براحة يده على شعر ابنتي مداعباً.

ثم توقفت لبرهة، مستعيدة كلمات سبق أن نطقت بها: «حرث. والله حرث قليلاً، فسألت ابنتي إن كانت التقته من قبل، فأومأت إيجاباً. ولما سألتها: كيف؟ قالت إن صديقتها هي صديقة ابنة الرجل، وقد زارتها، إحدى المرات معاً، فأطرى قامتها». ومضت متعجبة: «قامتها؟ ألم يلاحظ صوتها مثلاً؟».

فتلعلل هـ أ. دهر» في قعدته معقياً: «والله إنه يشتهي ابنتك. لقد نضجت»، وأشار بيديه إلى صدره مكوراً راحته على شكل ثدين صغيرين: «ألا تريبعها؟». وانحنى على الحولاء يحس فخذيهما: «في السنة القادمة ستكون فخذ ابنتك أكثر امتلاءً من فخذك». فضرته المرأة بيدها على ظاهر يده، في عتب لا يؤبه له: «أظنك تشتهيها، أنت، لا هو»، فرد الشاب: «ولم لا؟»، رافعاً كتفيه في مزاح لا يخلو باطنه من تأكيد. إذ ذاك قفزت الحولاء من كرسيها لتصير في حجر هـ أ. دهر» ممسكة برقبته: «أيها اللعين»، وانهمرت عليه عصباً خفيفاً من كتفه، وصدره، وعضديه، بينما تلوّى الشاب بين ألم ودغدغة مريحة، في العراك غير المرتقب ذاك، نافخاً من حنجورته الضاحكة المختنقة: «أنا أمزح. والله أنا أمزح». فأقلتته دون أن تقوم عن فخذيه، سائلة:

- لماذا تظن أنه يشتهيها؟

فرد هـ أ. دهر» وهو بقي صدره بيديه، خوف مداهمة جديدة من الحولاء بعضاتها:

- ولماذا تسردين هذه الحكاية كلها، إذا كان في الأمر غير ما أقول؟

فسكنت المرأة تماماً، وهي تتأمله، وتشرذ عنه، في البرهة ذاتها، كأنها تُقرن ما تعرفه بالذي يقوله الجالس تحت ردفها المثلثين.

نعم. نستطيع أن ننم، نحن الخمسة اللامرثيين، دورة تلك المرأة حول كلامها، ككرة صوف يستل خيطها فتدور متصاعدة حول مركزها، وكذا

هي تتصاغر إجابتها فتختصر على نحو ليس في طبعها:

- في أول قصف عشوائي قُتلت زوجة مع أحد مرافقيه، على باب المدرسة، وهما ينتظران انصراف ابنته مع المنصرفات. ومن يومها يحيطها بأكبر قدر من صديقاتها. ولما زارتها ابنتي مع صديقتها، لأول مرة، كان هو في البيت. وما لبث أن استدعى صديقة ابنتي ليتدبر لها شيئاً من المطبخ، فذهبت الفتاة على مضض، كأنها تمضي تحت تهديد. وقد أطلالا المكوث لتعود تلك الصغيرة إلى غرفة ابنته منقبضة جداً.

وقامت عن حجر الشاب لتعود إلى مجلسها على الكرسي، مكملة:

- قالت ابنتي إن صديقتها نكاد تبكي كلما ذهبت إلى بيت الرجل، ولما سألتها لماذا تذهب إن هي لا تحب ذلك، ردت الأخرى: أهلي يجرونني.

كان حديث المرأة الحولاء متشعباً - برغم محاولتها اختزاله - حول خدمات يقدمها الرجل إلى أهل الفتاة، في وقت تقاسم الأقوياء - وخدمهم - فيه خبزاً وبتزينة، إضافة إلى الشقق الفارغة التي هجرها من هجرها، فيمكنون من سكناها من ينشفع لهم الشفعاء المحظوظون. وقد باغتها هـ أ. دهر» بسؤاله:

- أحتاجين شيئاً منه؟

فردت متحضة: «هو؟ لست في حاجة إلى خدمات ربه حتى».

ولما استرسل سائلاً من جديد:

- «وليس ترسلين ابنتك إلى بيته؟»، ردت في استهجان:

- وما العيب في ذلك؟

فرجع الشاب كتفيه إشارة لا ميلالة:

- لا عيب. والله لا عيب. لكنك تخضين أحشائي بسيرته.

فضرته المرأة، بغتة، بقبضة مضمومة على إحدى رصفتيه: «أنا غار؟».

فقام هـ أ. دهر» متثاقلاً بهم بالإنصراف، ودار حول نفسه نصف دورة، متمعناً في أشياء صغيرة من حوله، وعلى الجدران، ومن ثم عاد جالساً، كأنها ذكرته استطلاعه الصغير أنه في شقته هو. غير أنه لم يخف ما انتابه في وقوفه ذاك، تحت بصر المرأة المشغولة بانتهاك أعماقه، وأعماق شقته معاً، فتمتم:

- أنت تضجرينني.

فجاوزت الحولاء كلماته الفظة، مسترسلة من حيث لم تبدأ ولم تنته: «وما العيب في ذلك، قل لي؟»، فمد «أ. دهر» ساقيه أمامه، قائلاً: «التحقي بها أنت أيضاً». فردت: «سألتحق بها. أنت تغار؟». إذ ذاك رفع الشاب راحة يده إلى أنفه يسد بها كركرة حريفة تمهد للعطاس عادة، لكنه لم يعطس، بينما اغرورقت عيناه من أثر ذلك. ولما همت الحولاء أن تعيد عليه السؤال ثانية، حين لم تسمع منه جواباً، أوقفها بإشارة من يده الأخرى، وهز رأسه كأنها ينغض عنه شيئاً علق به:

- «لماذا هذا كله؟ أنت، وابنتك، ومعبودك ذو الشاربين المستقيمين، وحرسه، وسيارته الحقيقة، وابنته، وصديقات ابنته، وزوجك؟»، وحدث فيها متحدثاً: «وزوجك؟».

فنامت المرأة واقفة، مطوقة خصرها براحتيها: «كل هذا نكايه بك». فرسم الشاب بعينه - بل بحاجبيه - دهنًا خائلياً من الدهش: «نكايه بي؟ أنا مهم إلى هذا الحد؟».

كنا - نحن الخمسة اللا مرتين - نلمح على وجه «أ. دهر»، في تلك اللحظات، شروداً كالذي كان يتحدث عنه إلى صديقه الرسام: «الشرود يباغت الناس فجأة»، ويرفع يديه على نحو فيهما سؤال: «هو هكذا». الشرود شرود. غير أنني أستطيع استحضار شرودي في أية لحظة». ويندفع مؤكداً: «والله لو كنت بين عشرين شخصاً يتحدثون إليّ، مباشرة، وأردت أن أشرد عما يقولون لشردت». ويردّف بعد توقّف يستجلي فيه إصغاء صديقه: «ماذا عليك أن تفعل في موقف تمنحني على الآخرين أن يختفوا فيه؟ أن يختفوا من أمام بصرك ومن سمعك؛ أن تعود كما أنت، وحيداً مكتفياً بك، تسأل نفسك وتحيب، حتى لو بدت مضحكاً، ساذجاً، أمياً». وينفعل: «يا أخي لا أريد هذا الامتحان في المحاورات. إنهم يتدربون على التمكن من سماع ما يقولون بصوت عالٍ، وأنت الوسيط. لذا أشرد. لا أريد أن أكون وسيطاً. أنا لا أتأمر مع الصوت».

وتعجبته جلسته: «لا أتأمر مع الصوت»، فيحدث جذلاً في صاحبه: «أستطيع أن ترسمها؟»، فيرد الرسام: «أرسم ماذا؟»، فيتمتم «أ. دهر»:

«أتأمر مع الصوت. أرسم مؤامرة طرفاها أنت والصوت». نعم. كان شروده المباغت في حضور الحولاء الواقعة صورة عما يستحضره لنفسه من شرود. فقد لكره الرسام ذات مرة، وهو يشرح لـ «أ. دهر» اللون الحائل في الإطار الخشبي للنافذة التي تبقى وحدها، على قماش لوحته، حين تختفي العمارة المقابلة التي يتناوب على رسمها كلها اختفت، فالتفت مجفلاً: «ماذا؟»، فسأله صديقه: «لقد شردت، ها؟ اخترعت شرودك بنفسك؟!» وابتسم مضيقاً: «ماذا تفعل لشرد؟».

فرد «أ. دهر»: «أحول نفسي إلى سحابة». نعم. لم يكن ذلك ادعاء ذا نكهة كالمرح في كلام المتمكنين. فنحن الخمسة اللا مرتين أشكل علينا، مراراً، ذلك الإنفلات الغريب للشباب من صورته، وهو يغدو - رويداً رويداً - سحابة تلتفت وتتعقد. وكان يعرفنا ما يعرفه، كأنها تتألف، في اقتدار لا تدري أهر القائم به، أم نحن. وكان الأمر ليئلاً. هكذا يجب وصفه: ليئلاً، متمدداً، تستعير ذرة الشكل تكويرها من الوقت.

نعم. جهات تتداخل. ظلام خفيف وضياء خفيف يتدهان مائلاً، تحت مظلّات من جوهر بارد، تنغلق وتفتح بلمس من اليد الخفية للسماء المحتجة خلفها، كأنها تؤكد المرايا العظيمة للمرايا العظيمة أن في اقتدارها رسم الصورة الواحدة على نحو مختلف، بحسب فراغها الذي يلي الكثافة.

والكثافة؟! ما الذي يمكننا أن نضيف إليها أكثر من هذا المُشكّل الذي هو مُشكّل محض؟ لا بأس. الكثافة مُشكّل، لذلك يسعر الفراغ خلافاته، في المركز، حيث يهيم «أ. دهر» بشروده، وقد ضمير نفسه سحابة تتدرج من تكوير ذي ظلال إلى استواء مأكبر، ومن بارد إلى بارد ينفع بعضه على بعض بلهات المشيشة الفاترة، فيتجاوز الحب المائي ليتصل ويتقلّب، فينحدر وسط نيمية الهواء، من الأعلى الساخر في إعلان ذاته إلى الأسفل المقطوم على حيلة باطنه. وإذا تغلغل القطرات إلى ظلام التراب، حيث تشي الجذور بالمياه، تنقسم القطرة الواحدة أمزجة أمزجة، وتنافر الأمزجة بعد ذلك وتتبايد، لتأخذ كل رطوبة هناك حظها في الظلام المدقّق - كالريح - في

الحُلُجَات الحَيَّة لما سيشقق قشرة التراب بأنامل من شهوة، ويحتفل النور بقيوده الثباتية.

نعم. قد نسرّد إستفاضة من قوام الممكنات، في الأسفل البطران المتحلر من تراب بطران، يلهي بسخائه تارةً ويسخّته تارةً، فتتلون السطوح المرئية لفكرة الأرض (والأرض فكرة)، كما نزع المراء ذات الحول الخفيف بالزفير المميت أو المحيي. لكننا سنبقى في الأشمل المستعار من حال «أ. دهر»، وهو يصعد من الظلام بخاراً - بعدما انحدر إليه قطراً - رقيقاً يغزل الفراغ النوراني غزلاً أليفاً، فتتعقد السحابة التي انحلت - من قبل - ككرة ثانية، على هذا الشكل أو ذاك، ليئة، قديرة في تكتّمها على المكان الذي ستخصه بغزلها الرطب.

نعم. هو سحابة. كذا يقرّر فيكون. وما على صديقه الرسام، والحال على ما يراها، إلا أن يجاري «أ. دهر» على مزاج، فيهمهم بدوره:

- «وأنا أريد أن أشرد». ويضحك ضارِباً ركبتيه بقبضته: «غير أنني لا أحب السحب». ويتخذ وضعاً كمن يتفكر: «فلا حول نفسي إلى فراغ». ويكاد يستلقي على ظهره من مراح المداهم: «فرااغ»، رافعاً ذراعيه الطويلتين كمسحوذ يقنع طفلاً لم يقتنع، فيسرف في حركات خرقاء، نافخاً من تحت شاربيه:

- لا جاذبية. لا شكل. لا هبوب. لا غواية. لا لون. لا قياس. لا عتلة لرفع الأرض. لا أفق. لا فرشاة. لا لهو. لا يقين. لا لهات. لا هندسة.

ويغمز بعينه متفكهاً: «لا هندسة فراغية. لا جبر. لا فيزياء. لا جديد.

لا قديم. لا ضلالة. لا حق. لا نعي. لا بشارة. لا ترف. لا عدس».

وينفض صارخاً: «عدس. عدس»، متقدماً صوب الباب الزجاجي في الجهة الجنوبية من شقته، وهو يخلق في العمارة المقابلة، معتكز المراج، فجاءة، وهو يكمل: «لا عدس. لا كلاب. لا شرفات. لا طين في ثياب النوم. لا ألق.

لا فرج. لا مئي. لا حزب. لا عائلة. لا نهاية. لا سر. لا انقطاع. لا نافذة». ويستدير عائداً إلى اللوحة المثبتة فوق عارضين خشبيين، فيضربها بقبضته، فتأرجح، فيمسك بها «أ. دهر»، وهو الجالس، خشية السقوط.

لكن الرسام يظل مسترسلاً: «هذه النافذة غير موجودة في الفراغ». وتعاوده روحه المرحّة فيهمس، ناظراً إلى الشاب الواجم قليلاً: «هذه النافذة غير موجودة، وأنا غير موجود في الفراغ. الغد غير موجود. الفراغ فراغ: نبي يبشر بديمومة القهقهة». ويلكزه بقدمه لكزة خفيفة: «قَهْقَهة. قَهْقَهة. قَهْقَهة»، وسرى الفراغ بعينيك. إنه كهذه النافذة، مشيراً إلى النافذة التي تبقى في اللوحة حين تختفي العمارة، ثم ينحني ملتقطاً لفافة يقدّمها إليه «أ. دهر» في استلقائه، ويظل منحنيّاً حتى يشعلها الشاب له بشمعة لم يبق إلا عقبها، فيعود - بعد ذلك - مستقيماً، طويلاً جداً، ذاهباً بنصفه في فراغٍ ما يستطيع «أ. دهر» استشفافه من مكانه لصق أرض الشقة، وهو ينظر إلى الأعلى المغرق في بُعد، الأعلى الضائع تحت سقف الغرفة لولا جرة لفافة الرسام، الذي يتقدم، بغتة، صوب شمعة فوق كتب مركومة، تعكس لألة واهية على مرآة مُلصقة إلى الحزانة التي تقسم الشقة قسمين، فيطفئها بنفخة. فيرتفع - مع الانحسار المباغت لكثير من الظلال - صوت «أ. دهر»:

- لماذا أطفأتها؟

فيرد صديقه: «وما الفارق؟ أغمض عينيك ترّ المشهد. افتحها ترّه». وينفخ دخان لفافته، فتندور الحلقات حول لب شمعة لا يرى إلا انعكاسه، خلف جهاز التسجيل القائم على طاولة واطئة. ويتقدم صوب المكتبة فيقرص، مستنداً بظهره إلى الرفوف:

- «اللوحة هناك. والعمارة هناك. وأنت هنا. وأنا هنا»، كأنها يحدّد بالإشارات مسافة كل موقع من الآخر. ويستدرك: «لا. أنا لست هنا. أنا في الفراغ»، مرفقاً صوته بضحكة مكتومة: «الفرااغ كله هنا، وأنا في المركز». ويتحسّس بيده قدم «أ. دهر» فيهرّها: «وما الذي ساحتّه إذا كنت في الفراغ؟». ويحيب دون تردّد: «لن أحسّ إلا الفراغ». ويرفع كتفيه في تساؤل «من يدري؟ ربما استطعت - آنثي - أن أدخل العمارة المقابلة من النافذة التي على قماش اللوحة. هنا». ثم يقوم ناقرأ بإصبعه على النافذة المرسومة: «هنا. من هنا. من هذا الفرج سأدخل العمارة». وترتفع قهقهته من جديد، ملتقاً إلى «أ. دهر»:

- إطمئن. سامرُ بأهلك مُسرَّعاً حتى لا أخرجهم.

فيتملل الشاب الجالس، وقد ركن بظهره إلى الحائط، وضَمَّ ساقيه إلى صدره، سائلاً:

- وبمَ تخرجهم؟

فيردُ الرسام: «بأخبارك». ويصمت قليلاً، منتظراً تعقيباً من «أ. دهر»، أو طلباً للشرح، كان يسأله: «وماذا عن أخباري؟»، مثلاً. غير أن الشاب المستند بظهره إلى الحائط لم يُبَدِ أيَّ اهتمام. فكرر الرسام قوله ليستثيره: «أخبارك. أخبارك. لو عرفوا أنك لا تعرف أنهم يقطنون إلى جوارك...». فحدَّق فيه «أ. دهر» مبتسماً بدوره:

- الأفضل، إذاً، أن تمضي إلى الشقق الأخرى، في العمارة، مسرعاً.

لكن صديقه لم يبارح جوَّ مساء لاته: «ألا يعينك - فعلاً - أن أتوقَّف عندهم قليلاً؟». فهز «أ. دهر» رأسه نافية: «لا. لا يهمني». فاحتدم الرسام احتداماً خفيفاً: «سأتوقَّف عندهم، إذاً»، فرد الشاب: «تناول العشاء، أيضاً، إذا شئت». إذ ذاك استدار الرسام، الذي كان واقفاً في مواجهة لوحته، صوب «أ. دهر» بكل قامته، هامساً في عتب: «لماذا لا تساعدني في الدخول إلى تلك العمارة؟». فاستشار السؤال الشاب الجالس، فنهض متساقلاً، ضجران. وإذا استوى واقفاً بقامته المتوسطة أشار إلى اللوحة: «كيف تريدني أن أساعدك؟». هات حذاءك. سأعطيكهُ حين تدخل من النافذة. هيا، ادخل». وأمسك بساعد الرسام متمتماً: «ادخل يا أخي. أم تريدني أن أناولك معطفاً؟». ثم رفع وجهه إلى وجه صديقه الداهب في الفراغ العالي كضباب يتدلى من سقف الغرفة، وأردف: «أنا على استعداد أن أناولك أيَّ شيء تريد. ادخل من النافذة أولاً، وسأمدُّ إليك بحبل، وبشمعة أيضاً». وتوقَّف مستدركاً: «أتريد ملابس داخلية؟ ربما ارتأيت أن تظلَّ هناك»، وهزَّ ساعد الرسام: «هيا. ادخل من هذا الفرج»، ونَضَضَ بلسانه على نحوٍ شهوانيٍّ، فشَدَّ الرسامُ ساعده من يد محدثه، في حركة لا تنمُّ عن استياء، بل عن محاولة تقدُّمٍ في اتجاه النافذة المرسومة على قماش اللوحة، متمتماً:

- سأدخل العمارة. ساعدني.

فأرخی «أ. دهر» قبضته عن ساعد صديقه، متمتماً بدوره في صرامة:

- أتريد أن تدخلها الآن، حقاً؟

فبدأ الرسام، في تلك البرهة، متردداً بكلمة، وهو يحدَّق في لوحته، ثم تدارك حاله، مرتدياً قناع اعتداده لا يُخفي التردد الظاهر على قسياته:

- «سأدخل. نعم. سأجاوُزُ أهلك»، والتفت: «لا أمزح». بعد ذلك استعاد مواجهةً للوحة كأنها يخاطبها: «لا أمزح. سأدخل من هذه النافذة. وسأسلم. لست أدري. ربما قلتُ مرحباً، أو ظللتُ صامتاً في عبوري من شقة أهلك إلى الباب، ومن ثم إلى آية ردهة في الطبقة الثالثة، وكل ما يلي ذلك سيكون رهناً ما أريد». وأرخی شفته السفلى، التي بدا طرفُ منها في نور شمعة آتٍ من مكان ما:

- «تستطيع أن تراني من هذه الشرفة»، مشيراً إلى شرفة شقته هو: «من هنا. وكلما ظهرتُ على شرفة في شقق العمارة المقابلة سألوِّح لك». فباغتته «أ. دهر» في تفكُّمٍ مكتوم: «وما الذي ستفعله هناك، صاعداً هابطاً؟».

فرد صديقه، في تأكيد: «سأرسم عمارتنا شقَّة شقَّة، حتى أعرف الجهة التي ستميل إليها حين تنهار».

فحدَّق فيه الشاب سائلاً: «وما الذي يهيك في ذلك؟ لن تكون هنا». غير أن الرسام جاوز الأسى الواضح في نبرة صوت صديقه، مستطرداً: «يهمني أن أحدد مكانك بين الأنقاض». والتفت للمرة المائة إلى «أ. دهر» وهو يرفع إحدى كتفيه: «وكذلك لوحتي».

فسأله الشاب متمتماً: «وما الذي يهيك من هذه اللوحة حين ينهار كل شيء؟»، فأجابه الرسام: «الفراغ. الفراغ». ورفع صوته على نحوٍ مباغتٍ، كأنها نصت إلى تحويفٍ ما في الحروف: «الفراغ»، مردفاً بعد سكوتٍ هين:

- ألا ترى؟ كل ما حول النافذة فراغٌ محض.

والتفت ليمسك بساعد «أ. دهر»: «ألا ترى؟ النافذة إشارة للتدليل على الفراغ الذي يحيط بها». فأظلت الشاب ساعده من يد صديقه، التي بدت أصابعها خشنَّة بعض الشيء في إطباقها على اللحم والعظم معاً، هامساً:

«حبرتي. أتريد النافذة أم الفراغ؟»، وأشار بيده إلى اللوحة: «ادخل من النافذة، ووفر علينا هذا الحكي».

فرد الرسام ضاحكاً: «لقد دخلت يا أحمق. أنا أخطبك من هناك». فهزأ «أ. دهر» رأسه ساخراً: «نعم. تخاطبني من هناك»، وقام متجهاً إلى الباب الزجاجي المفضي إلى الشرفة: «سألوح لك»، وهو ينظر إلى الخلف: «ألسنتُ هناك؟»، وقهقهه: «سألوح لك من شرفة شقتك». ثم اتخذ وضعاً جاداً في تعبيره: «على أية شرفة أنت من العمارة المقابلة؟ الأولى؟ الثالثة؟ على السطح؟». وردّد: «على السطح؟ جميل أن تكون على السطح. سأضطر إلى تظليل عيني بيدي لأراك» واستدرك: «أنا أسف. الوقت ليل. أضيء وجهك بعود كبريت لأراك»، مضيقاً في سخرية: «لست في حاجة إلى ذلك حتى. وميض القذائف سينيرك كملاك، وستكون الأول من نوعك. نعم. ملاك منير. ملاك مُضاء بفديفة، والشيطان ذاته سيغار منك».

لم يعلق الرسام، الذي انعطف قليلاً ليقف خلف لوحته التي حجبت نصفه، في مواجهة «أ. دهر»، مسترسلاً في الظلام الخفيف: «كل هذه السنين. كل... أقصد عمر هذه الأرض. أقصد أننا طوال السنين المعلومه في نشأة الإنسان - نحاول الإتفاق على أن ما من أحد يفهم الآخر، وتوقف ليضيف: «ما من أحد يفهم الآخر، وهذا سرُّ الهدنة بين شخص وشخص». وابتسم ابتسامة رضى: «تلك نعمة ألا يفهم الإنسان الإنسان. لكن يأتي أحمق ما ليقول إن الآدمي يفهم الآدمي، ويقدم براهين على واقع النساء في المجتمع، فينفجر الخلاف الدموي».

فسأله «أ. دهر» على طريقته: «أيقدم البراهين على واقع النساء؟ أنت تنسى واقع المصعد في عمارتنا».

فرد الرسام: «هذه ليست مزحة. المصعد سبب الحرب». وابتعد قليلاً عن لوحته: «كان هذا الذي تعرفه... هذا القائد الذي يحمل قبعته أبداً في يده، حتى لا يبتدّ تصفيفة شعره، يصعد إلى العمارة يومياً. أنا لا أعرف من يزور، لكنه يحضر يومياً. وإذا غاب حضر مرافقوه. لا أعرف لماذا، بيد أنهم يتناوبون على الحضور، وهذه ليست مشكلة. فليحضروا. الكل يردّد:

فليحضروا. والصدق أن ما من أحد أبدى اعتراضاً».

فضحك «أ. دهر» معترضاً: «من أين تظنني جئت لتسرد عليّ هذا؟». فاسترسل الرسام: «إنني أذكرك. لا. أنت تتذكر بالطبع أن مجيئه كان يسبب مشكلة، إذ ليس لأحد أن يستقل المصعد حتى خروجه من العمارة. فكان القاطنون يصعدون الأدراج إلى شققهم، هم، وأولادهم، وآباؤهم، وأحفادهم، أجمعين. أنت تذكر ذلك؟ لا بأس. إمتعضت أنت من الأمر؟ لا. لم نمتعض. ثمت خوف على حياته، والحذر ضرورة. بيد أن مرافقيه الذين كانوا يحضرون في غيابه إلى العمارة جَرَوْا على التقليد ذاك، فمتعوا الناس من سلوك المصعد. تتذكر ذلك؟ قلنا لا بأس، لكن البعض من القاطنين لم يرقهم الأمر...».

فقاطعه «أ. دهر»: «وأنا لم يرقني الأمر».

فضحك الرسام: «لكنك لم تفجر المصعد. أنت عصبي، والعصبي يرتبك دائماً».

فتمتم «أ. دهر»: «أتظنني جباناً؟».

فأردف الرسام: «لا علاقة للارتباك بالجبن». وأضاف: «الارتباك بحث عن يقين، والجبن قناعة ثابتة بالنجاة. أما المتهورون مثلك...»، وردّد: «مثلك...»، فقاطعه «أ. دهر» من جديد، لمرة لا يعلم عددها: «لست متهوراً».

فتملص صديقه الرسام من الإجابة: «أحدهم فجر المصعد. لا أنت». وإذا هم الشاب باعتراض ما لم يكن مقتنعاً هو نفسه به، أشار صديقه عليه بحركة من يديه معاً: «لا بأس. طار المصعد. وماذا بعد؟ بُم. بُم. بُم». وصار يقلّد صوت القذائف:

«قصفت ست عشرة جهة - قائدنا هذا - دون تحديد، متهاً الأرض والسماء بالتأمر على حياته. وها هو، منذ آخر حفل خطابي، قبل سبع سنين، يقيم في صالة السينما الواقعة فرسخين أسفل العمارة نصف الدائرية».

فتمتم «أ. دهر»، مازحاً: «جميل أن تقيم في صالة سينما». ومضى متسائلاً: «أتظن أن فيها مولدات تهوية؟».

فحدّق فيه الرسّام من وراء جرة لفافته : « الموتى لا يحتاجون إلى مولّدات تهوية . وهم أقل إلحاحاً منا على هذه المحاولات المقيتة ليفهم أحدّهم الآخر » . فقاطعه « أ . دهر » : « سألتك إن كان القائد يحتاج إلى مولّدات تهوية في قبره ؟ » .

فرد الرسّام ساخراً : « مات . منذ سبع سنوات وهو ميت . وقد شكك ، حتى الآن ، تسعة عشر خرساً من حراسه في بقائه حياً فاخضعوا » . فعاد الشاب يسأله كعارف بالأمر ، لكنه يتوخى تأكيداً يدعم ما يعرفه : « ومن يدير هذه اللعبة ؟ » ، فضحك الرسّام مجيئاً : « ما من أحد يديرها . هي تدبر نفسها . أتقنّت ما كانوا سيفعلون ، فاسترسلت من دونهم . فقرروا ، والحال هذه ، أن يكونوا خطباء وقائع اللعبة ، لا أكثر » . فتداركه « أ . دهر » في مرج : « إنهم خطباء اللعبة ، أما أنت فخطيب ماذا ؟ » .

لقد عنّ للرسّام ، في البرهة ذاتها ، أن يبادله مزحاً بمرح ، فهمس متصنعاً الخنجر : « أنا خطيب الفراغ » . فاستدرك « أ . دهر » هامساً : « آه . نسيت أنك هناك ، في العمارة المقابلة » .

فاكمل صديقه الرسّام : « نعم أنا هناك . واسمع - الآن - لفظ النساء في الشقة التي تجاور شقة أهلك » . وتمسّن في عيني « أ . دهر » قائلاً : « أتريد أن تسمع اللغظ ؟ أستطيع نقله إليك عبر هذه النافذة » ، مشيراً إلى النافذة المرسومة على قماش اللوحة .

فعاجله « أ . دهر » متهمكاً : « لا أريد أيّ برهان على واقع النساء ، فذلك سيفجّر الخلاف الدموي » .

إذ ذاك ، وفي حركة عصبية ، حكّ الرسّام جرة لفافته بالجدار كأنها يطفئها ، فهوت ، كعمجرة صغيرة ، ذرأت من اللهب في الظلام الخفيف ، حتى أن « أ . دهر » هتف بصاحبه مخدراً : « انتبه . ستحرق الكتب » ، فلم يجِد الرسّام ببصره عن الذرّات ، في سكونه ، بل مضى يكمل جملة الماضية : « سأنقل لفظ النساء حتى ينفجر الخلاف الدموي مثل هذا اللهب » . وتمسّن دون أن يتحرك : « على

الخلاف أن يستمر . الخلاف محاولة للبقاء . الخلاف حفظ على النوع ، وحفاظ على السر » .

فسأله « أ . دهر » : « أيّ سر ؟ » .

- « سيرك . سيري » ، قال الرسّام ، مضيقاً : « سيرهم . سننقرض إذا لم يكن لنا سِرُّنا . والخلاف تأكيد للسر حتى لا ينكشف » .

فعاد الشاب يسأله : « وما سِرُّنا ؟ » .

نعم . لم يكن على الرسّام إلّا أن يتسم كواثي من معرفته الواثقة ، متمتماً من جديد ، حتى ليكاد صوته يذوب في ذبالة شمعة تترجرج في سكانٍ ما :

- استمع . أنا أسألك ، بدوري ، لماذا هذه المحاولات الإنسانية لفهم الآخر ؟ لماذا هذا الدأب على تحلّي إشكال أبديّ إذا فهم أحدنا الآخر ؟ لماذا هذا الإسراف في أن نجعل من الآخر مسألة مفهومة ؟ . من هنا بدأت ظاهرة القتل ، وستستمر للحفاظ على ألقنا ككائنات تعرف كيف تتكتم ، في ألم صامت ، على أسرارها .

لكن « أ . دهر » عاد إلى لجأته في المسألة : « أيّ سر تعني ؟ » ، فانتفض صديقه الرسّام مهزولاً من جدار إلى آخر ، وهو يهمهم : « هذا هو سِرُّنا » ، مشيراً إلى النافذة المرسومة على قماش اللوحة ، ومن ثم يتحوّل عنها إلى شرفة شقته ، صارخاً : « تعال . تعال . ذلك هو سِرُّنا » ، مشيراً بيديه إلى الطبقة الثالثة في العمارة المقابلة . فهتمهم « أ . دهر » دون أن يبارح مكانه :

- كلامٌ معاد . النساء لسن سِرُّنا .

فالتفت إليه صديقه محشرجاً من تحت شاربيه :

- لا أقصد النساء يا أحمق . أقصد أهلك .

لكن الشاب حاول صرّف الرسّام بطريقة تنم عن بزم بالموضوع ، هامساً بصوت واضح : « فلننق مع نسائك في الشقة التي تجاور شقة أهلي » . ثم انفجر صارخاً : « من أين أتيت بأهلي ؟ لن تهتدي حتى أشباحهم إلى هذه المدينة » .

فبدا الرسّام واجماً ، بالرغم من عدم وضوح ملامحه ، ثم أرخى كتفيه كمن لم يفهم أمراً ، لكنه جاوره ، وتمتم ضاحكاً :

- «فلنلق مع النساء، إذاً، في لغطهن هناك»، واستدرك: «... في لغطهن هنا، لأنني في العسارة المقابلة، الآن، قرب الشقة التي يحدث فيها النقاش النسوي حول المرحلة الخامسة من تحررهن. لكنني لا أستطيع نقل أي شيء من ذلك. أتدري لماذا؟»، والتفت إلى «أ. دهر» مكتملاً: «لأنها مرحلة تتعلق بها بعد الموت».

فضحك الشاب سائلاً: «إنهم يتبعن الله بالعرائض». وتوقف برهة ليسأل بعدها: «وما المراحل الأربع قبل دخولهن الأبدية؟».

فرد الرسام: «لم أصغ إليهن طويلاً، من قبل، لأنني كنتُ انشغل بتقصي القذائف: من أين تنطلق، وأين تنفجر. وكان حظي أنهن لا يجتمعن للنقاش إلا في أيام القصف المدفعي، فلم أحظ إلا بجمل مثل «هذم الجسد» - «تدمير الجسد» - «فضيحة الذكر» - «المعنى الأنثوي للحرب». وحين كان ينتهي جدالهن، في هذات القصف القصيرة، كن يتفرعن متفقات على تجهيز شطائر خبز للمحاربين، وتلك مهمة نبيلة على أية حال».

فردد «أ. دهر»: «نبيلة. النساء مقطومات على النبل. وإذا أحببتك امرأة فانت نبيل بالتأكيد. أي...»، وابتسم دون سخرية: «أي إذا...»، فأجابه صديقه الرسام:

- تعني إذا لم تُحبني كنتُ نبيلاً، أيضاً.

فضحك «أ. دهر» مجلجلاً: «أأنت تقرأ أفكاري؟».

فرد صاحبه: «لا. أنا في العسارة المقابلة، الآن، وأرسم عمارتنا شقة شقة، فتتداخل حوارات قاطنيتها مع الألوان التي أثبت بها الأشكال». ورفع يده هامساً: «لا تقاطعني. هذه خبرتي، ولو كنت في مكاني لعرفت ذلك». ثم أطلق جملة تتحلل بيقين البف: «كل عمارة تفضح قاطنيتها، بهذه الطريقة أو بخلافها. بل تحدّد العمارات لقاطنيتها نبرة الصوت نفسه إذا تجاوزوا». ولم ينتظر تعليقاً من الشاب على ما يقول، بل استوسل: «سأوضح لك. أنا الآن في العسارة المقابلة، في الطبقة الخامسة التي تواجه شقتي، وأنا أراك فيها، قرب هذه الشمعة، متوجّهاً ببصرك إلي. غير أنني لست معك، بل أرسملك من هناك، وأنت تظنني معك، فيما الذي يتبدى منك من موقعي؟ سأشرح لك فانتبه»، ثم

دفع لوحته القائمة على العارضين الخشبيين، فتلقفها «أ. دهر» على نحو تلقائي خوفاً أن تسقط، ففقهه الرسام صارخاً:

- أنت تلقي نظرة من النافذة علي...!

فتساءل الشاب: «أتعني النافذة التي في اللوحة؟».

فرد الرسام: «أهناك نافذة أخرى في هذه العسارة؟ أنت تلقي نظرة متلصصة علي وعلى ما أرسمه من عمارتنا».

فما كان من «أ. دهر» إلا أن مسح اللوحة، هامساً في مسح: «سألتقطك من شباك هذا القماش، وربما التقطت العسارة المقابلة كلها فأعدها إلى مكانها هنا» وهو ينقر على لوحة صديقه، فسارع الأخير إلى تنبيهه:

- لن تشعر بيدك إذا أدخلتها من نافذة اللوحة. ولست أدري إذا شعرت بباقي جسدك بعد ذلك.

فسحب «أ. دهر» يده في حبل قطني، ثم انفجراً، بغتة، ضاحكاً معاً.

نعم. كنا نصغي إليهما قليلاً، في ذلك الظلام الخفيف المليء برائحة الترتين والتعب. وكنا نشرد كثيراً - نحن الخمسة اللا مرتين - في حين لم يكن لأمثالنا أن يشردوا. غير أننا كنا تنهياً، على نحو عذب، للاقتراب من ذلك المجال المحيّر لشكل «أ. دهر» (وكل شكل يحير على أية حال). ونحن نستعير كلمة «عذب» منه نفسه، من كثرة ما يرددها حين تحك الخادم، المستأجرة ليوم واحد في الأسبوع، لإخصي قدميه.

نعم. كان يتلوى، وهو مستلق على بطنه فوق الكنب، نافخاً: «عذب. عذب... وااا»، فتتهلله الخادم البدينة في دلال:

- «سأوقوف إذا استمرت في الصباح. ماذا سيخطر ببال جيرانك إذا سمعوك؟» وترفع يديها عن قدميه، فيحتها: «هيا، بالله عليك، وليظنوا ما يريدون»، فتعاود حك إخصيه، هامسة:

- «رأى البعض «اخلاً إلى شقتك»، فإذا سيطن مع هذا الصراخ والعياط؟ فيأبدها «أ. دهر» هازئاً: «سيظنون أنني استنجد بهم ليردوك عني»، ويمتزج ضحكه بها بحسه من دغدغة، فتضربه الخادم بكفها ضرباً خفيفاً على

ربلتي ساقيه، موبخة :

- سأقول إنك تختصني .

كان «أ. دهر» قد أبرم عقداً شفهيًا مع الخادم، على أن تتولى تنظيف شقته ليوم واحد في الأسبوع مقابل أجر. غير أنه استدرجها، حالاً بعد حال، إلى حك إخصي قدميه، وقد أعفاها من تنظيف البيت، فترددت أول الأمر قائلة :

- حرام أن تعطيني هذه النقود مقابل دغدغة ساسديها لك مجاناً، علاوة على تنظيف البيت .

لكنها خضعت، أخيراً، لإلحاحه : «وماذا يزعلك؟ حك قدمي أسهل من تقصّي الغبار في هذه الزوايا». واستسلم، هو والخادم، إلى مَرَج طفولي، بعد ذلك. يقهقهان. يتبادلان القرص الخفيف على السيقتان والخصرتين. يتمتان جُملاً غير منظورة الحروف، ومُختَبَلة على السمع .

كان شحمها يترجرج من تحت الثوب الأسود الذي درجت على ارتدائه، في موضع البطن تحديداً، وعلى الوركين، إذ تنكب على مداعبة قدميه، وكان هويلقي بساعديه إلى الخلف، نحو الجدار الشمالي للشفقة فتخترقانه، كأن ذلك الإسمنت ليس إلا هواءً كثيفاً. وإذا تصيريداه إلى الخارج - تعني خارج العمارة، من خلل ذلك الحاجز الطري الذي هو جدار محض في عَرَف البناء - يسحبهما بغتة، ناظراً إليهما في استغراب، ثم يعود فيلقي ببصره إلى الجدار فبرأه على أنتم كثافته. غير أنه يعيد اللعبة، فيستلقي، آن تداعب الخادم إخصي قدميه، ماداً ذراعيه إلى الوراء، ثانية، حيث الجدار، فتخترقانه، فيسحبهما من جديد .

كانت لعبة اختراق الجدار بذراعيه تستفحل يوماً بعد آخر. وكانت الإجفالة، التي أحسها أول مرة، تراجع، حتى أنه بات يمدّهما إلى الخلف مبتسماً في انتشاء واضح . وإذا ألقينا نحن الخمسة اللا مرتين، ذوي الكثافات المتناظرة، نظرة إلى الجهة الأخرى من الجدار رأينا بدأ رحيمة، شفيفة، كأنها جُمعها الهواء في اقتداره على الرُسم، تمتد من الفراغ الشفيف، فتداعب يديه، فأدركنا سر ذلك الانتشاء .

وقد باغت «أ. دهر»، بعد تلك الأثناء بزمي، صديقه الرسام :

- أئمت يد خلف جدران بيتك، أيضاً؟

فَعَلَا وَجْه صديقه تساؤل : «يد خلف الجدران؟»، ورفع منكبيه في مزح : «لا اعتقد بوجود يد، لكنني واثق من وجود قُرْج ينلصص علي». وانحى بكملة، في حركة مضحكة صوب أحد الجدران وهو يفك أزرار بنطاله، صارخاً : «ها . ها . لقد فاجأته . ألا ترى؟». فضحك «أ. دهر» متمتماً : «لقد فاجأته بحق، فأغمي عليه». ثم عاد إلى سؤاله الأول، ببعض الوجوم، برغم الرُخاء الذي أضفاه تهريج الرسام على حضوريهما، قائلاً :

- «أعني، صدقاً، إن كنت تحس يد ما خلف الجدران، تماماً كما يحس أحدنا برطوبة الجو»، وتلمس ظاهر إحدى كفيه بالأخرى، رافعاً بصره إلى صديقه : «رطوبة كالصمغ، حتى أن جلدك يلتصق ببعضه ببعض . واليد التي أحسها، في الجهة الأخرى من جدار البيت هي هكذا : أعني هي كالرطوبة، تحسها بميزان خاص»، وضم يديه إلى صدره في توسل مسرحي : «الوقلت لك أن ترسم الرطوبة فهل تستطيع؟» .

فرد الرسام وقد انحنى : «مولاي . سأرسم ظلال خصيتيك إذا شئت». واستوى واضعاً أصبعه على صدغه كمن يتذكر، ثم فرد أساريره، وانحنى من جديد : «أخطأت التمييز مولاي . سأرسم أنفاسك إذا شئت، وبحسب سرعتها أو بطئها . أما الرطوبة فأمرها سهل جداً . انظر»، وتقدم إلى العارضين الخشبيين اللذين يرفع عليهما القماش المؤطر أن يرسم، فأنزل لوحة كانت هناك، ورفع عليها أخرى لم تزل بيضاء، مؤسّسة بالصباغ على القماش لتكون مهية للرسم عليها، ثم حلق فيها ملياً، وابتعد ليشير في اتجاهها بيد ممدودة، بينما انعقدت الأخرى خلف ظهره، منحنيًا قليلاً بجذعه، هامساً : «انظر» وهو يضيّق ما بين جفونه، بالحركة المرحّة ذاتها التي درج على استخدامها في برهات دعابته، كأنها هو على خشبة مسرح مدرسي : «انظر إلى تلك الزاوية . ألا ترى الورق؟ . وِرَ فضي ينضغ عليه أحد ما من خلف اللوحة . انظر». وتقدم إلى «أ. دهر» فأمسك به من منكبه : «انظر إلى أسفل، حيث يتساقط الوبر الفضّي؛ انظر إلى الشعاع المنكسر على تلك الحلمة»، وصفر بقمه : «ندي متغلت . لحم ينبض كنجم سكران . لون من لحم . انظر»، وضغط الرسام على منكب «أ.

دهر» بيده التي لم يرفعها عنه: «انظر إلى الزاوية اليسرى، إلى أسفل، حيث الصوت المختلج»، واستدرك، ناظراً إلى وجه الشاب جانبياً: «الصوت ثقيل كاللون. الصوت مشهد. انظر إلى النبرة المتدرجة صوب المفتاح». وحدد موقعا من اللوحة بإصبعه: «المفتاح هنا. إنه مفتاح ذات يري أثره على المنديل الذي نسيه شبيهك هناك، في نافذة الشقة اليمنى من الطبقة الثالثة».

ضحك «أ. دهر» وهو يقلت منكبه من يد صديقه: «لم تعد هنالك من نافذة»، وأشار إلى اللوحة التي أنزلها الرسام، قبل قليل، عن العارضين الخشبيين: «لوحتك سرقت النافذة من العمارة». فقاطعه صديقه: «تستطيع أن ترى نصف المنديل متدياً من جدار الشقة، حيث موضع النافذة تماماً، قبل أن...»، وقهقهة: «قبل أن نسرقها معاً». وتطلع في تحد إلى «أ. دهر»: «تواطأت معي».

فأشار الشاب بجماح يده اليمنى إلى صدره، مستنكراً: «أنا؟ سالتك إن كنت تستطيع رسم الرطوبة، وها أنت تحشرن في زاوية ضيقة من خيالك». فرد الرسام: «أبعد كل هذه المشاهد تسألني عن الرطوبة؟ ألم ترها مرسومة على أنحاء اللوحة؟ ما هذا البياض؟» ورفع يديه محتدماً: «هذا البياض هو سرواله».

فسأله «أ. دهر»: «سروال من؟».

- «سروال الرطوبة» رد الرسام، مضيقاً: «سروال أمها واختها».

فانفجر الشاب ضاحكاً وهو يغمغم: «إنه سروال كبير». لكن الرسام لم ينتظر أن ينهي «أ. دهر» بقية ضحكته، فعاجله مبتسماً: «سروال يسعني، ويسعك، ويسع شبيهك أيضاً». فأردف «أ. دهر»: «وشبيهك أيضاً. إنه ينسى...»، واسترسل في ضحك خفيف: «ينسى أن يسألك أن ترسمه».

وفي برهة توقفاً، معاً، عن متابعة الحوار، محدقين أحدهما في الآخر، كمن يدقق، بعد كل ذلك الاسترسال، في الذي قاله اعتباطاً، أو عمداً. وقد كسر الرسام تلك البرهة، بكلام ليس في سياق حالهما:

- «شكراً للحياة» قالها، ومد يده إلى شاربه، فسأله «أ. دهر»:

«علام؟»، فرد صديقه: «على نعمتها المحتجة». وعادوا النظر إلى الشاب

متصنعاً ابتسامة بلهاء، فتصنع «أ. دهر» مثلها، قائلاً: «كانت تشكر امرأة على قبلة لم تحظ بها». فرد الرسام: «ذلك أفضل»، وأردف غامزاً: «الانتظار نعمة لا ينبغي أن نستغذها». فإزاحه «أ. دهر»:

- «انتظر أنت. شبيهك سينجز اللعبة كلها، وربما شد ذلك المنديل المتدي من الحائط، حيث موقع النافذة التي سرقتها»، وأضاف متفكهاً: «أعني التي سرقتها معاً. لكن لماذا نسي شبيهك ذلك المنديل هناك؟».

فرد الرسام واثقاً: «كالآخرين. كلهم ينسون أجزاء من ثيابهم متديّة من الجدران، كأنها انثلق عليها إسمنت فجاءة»، وضحك في «أ. دهر» مستوضحاً: «ألم تلمح قياساً متدياً من أحد الجدران في شقتك؟ ها؟». فأغضى الشاب مبتسماً:

- كيف عرفت؟

فجلس الرسام على أرض الغرفة، متكئاً بظهره إلى المكتبة:

- «لقد سحبت القماش، اليس كذلك؟»، ولم ينتظر إجابة «أ. دهر».

بل استرسل:

- سحبت القماش فتتحجج جثثك.

نعم. كدنا - نحن الخمسة اللا مرتين - أن نهمس بدورنا: «كيف عرفت ذلك؟»، لكننا أثرنا البقاء هناك، خلف الجدل المرنى للكائن ولروحه معاً، في الجهة الثانية القريبة من كل فعل حادث، يستحيل إلى نسق متصور لا يُمحى قط. نعم. كدنا نهمس: «كيف عرفت ذلك؟»، لكن الرسام مضى يشرح، ضاحكاً من تحت شاربيه المرتعشين لطول شعيراتهما:

- المكان، أبداً، هو ذاته. نحن لم نخادر. أجدادنا لم يغادروا. نجلس نحن هنا، ويجلسون هم هناك، في الجهة الثانية. لكن، لأنهم أجداد، فإننا ينسون أن يلمسوا حواشي ثيابهم الطويلة، لذلك تنزل من الشقوق إلى دواخل عُرقنا. ومد يده بعلبة التبغ إلى «أ. دهر»: «دعنا. اسمعهم يدخنون». وقهقهة مضيقاً: «إنني استعمل الطرف المتدي من ثوب جدي لمسح الألوان عن الفرشاة».

وتقدم الرسام بضعة أشبار، ماشياً على ركبتيه، صوب خرقه مرمية قرب

العارضين الخشبيين، وإذ تناولها عاد أدرجه إلى الخلف على ركبته أيضاً، وجلس جلسته ذاتها. ثم رفعها بالأصباغ المتراكمة على قماشها إلى مستوى عينيه، ونفخ عليها مداعباً فتأرجحت بين أنامله، قالتفت إلى «أ. دهر» الجالس بدوره إلى الحائط، محيطاً ساقيه المضمومتين إلى صدره بيديه، بينما سكنت لفافة في فمه، وانحنى رمادها الطويل:

- «هذا ما تبقى على حيطاننا» قالها الرسام، ونفخ ثانية على الخرقه فتأرجحت، ثم قتم: «حتي صورته استبدلت بصور النساء، واستبدلت صور النساء بآيات قرآنية، واستبدلت الآيات القرآنية المؤطرة بصور تمثل أنساب العائلات التي تشبه الحداثق. ثم اختفت أشجار الأنساب لتتدل، من الجدران، هذه الأقمشة التي حالت ألوانها».

فتداركه «أ. دهر» سائلاً: «صورة من عنيت بقولك: صورته؟».

فرفع الرسام حاجبيه متعجباً: «أعني صاحبنا القابع في صالة السينما منذ سبع سنين».

نعم. دخل ذلك الرجل، الذي درجوا على تسميته «القائد»، مع حرسه إلى صالة السينما المعدة لحفل خطابي، منذ سبع سنين، ولم يخرج حتى بعد انهيار عمارة «أبي كير». وكان ذلك بعد أول قصف عشوائي متبادل، بالصواريخ، بين شطري المدينة.

نعم. أراد «القائد»، الذي يحمل قبعته أبداً بيده، حتى لا يبدد تصفيقة شعره، أن يختبر الشارع في العصف الذي ينبغي أن يتم فيه اختيار ملكة القيادة، فحضر أول من حضر، إلى القيو الواقع فرسخين أسفل العمارة الدائرية، بعد اتصالات من كل نمط بالأحزاب، وبالتنظيمات، وبالقيادات والكوادر الفاعلة وغير الفاعلة، وبقية الشعب بحسب وظائفهم، إذ طاف شباناً مرحون قليلاً بمسدسات ظاهرة من تحت القمصان المرخية، في إهمال مقصود، من فوق البناتيل - على البيوت يُذكرونهم بموعد الخطاب قبل أيام من إلقائه الذي لم يتم. ثم مروا على الحوانيت شارعاً شارعاً، متمنين على الباعة أن يحضروا، إسهاماً في واجب بقائهم صفّاً واحداً إلى جانب القرار الشعبي، في الوقت الذي كانت أيديهم، أثناء الكلام المبالغ في نبراته المؤدبة، تمتد إلى أية

بضاعة ظاهرة من اللبان، أو الحلوى المغلفة، أو النُّقل، أو بعض المعلبات الصغيرة، أو علب التبغ، أو صفائح السمن المحفوظ. وإن تواضعوا كثيراً فإنها يتلقفون حبات برتقال، أو تفاح، ويروحون يمضغونها وهم يحدثون الباعة، الذين يجامل بعضهم الشبان فيهتف: «بالعافية»، إشارة إلى ما يأكلونه، أو يتغاضى بعضهم الآخر في استياء لا يبيده كثيراً. أما البعض الثالث، ممن ينتمي بنسب بعيد إلى ذوي نفوذ، أو أقارب ذوي نفوذ، فإنها ييدي امتعاضاً عموماً، كأن يتوجه بكلامه إلى أحد الشبان، وهو يتصنع الفكاهة:

- هنيئاً. لكن الإكثار مضرٌ بأسنانك.

- فإرد الشاب، أي شاب، وقد تبلغ الرسالة من نبرة البائع:

- «أنت كريم يا عم»، ويلتفت إلى زملائه: «يلأ يا اخوان»، فيخرجون من المحل تبعاً.

لكن المحاورات بين أصحاب الحوانيت - ممن ينتمون مباشرة إلى النافذين من زعماء الأحياء، والأزقة، وبين هؤلاء الشبان الذين يخطئون، أحياناً، في اختيار الأمكنة - تأخذ أشكالاً طريفة. نعم. يصرخ الباعة المتدلية قمصانهم، بدورهم، فوق مسدسات لا يُقصد إخفاؤها، بالشبان صراخاً مرحاً، في انفعال ظاهر:

- أهلاً بالاخوان. هل من طلب؟ نحن في الخدمة.

فيستدرك الشبان، عادةً، حواراً كهذا مُشبعاً بثقة المُقتلرين، فيبحثون عن عذرٍ مُتصنع:

- «عوفيت. قلنا ستسمح لنا - والمسامح كريم - أن نبلغك خبر الحفل».

وينظر واحد منهم إلى الآخر قبل أن يضيفوا:

- «نعني إذا كان لديكم وقت. نعني إذا أحببتهم»، ويسترسلون بعد توقف قليل:

- «لا يهم. أنتم حاضرون في قلوبنا حتى لو لم تحضروا الحفل».

فإرد الباعة المقتدرون، هؤلاء: «ولوا اخوان. أنتم في القلوب أيضاً».

ويتصنعون كرمًا مبالغاً إذ يرونهم خارجين: «هذا حلالنا مشيرين إلى البضائع، ويضيفون: «هي حلال عليكم. لا تستحوا»، فيعرو الشبان خُفراً بليغ، وهم يتمتمون:

- دامت النعمة . كثُرَها الله عليك .

نعم . كانت الاتصالات على أشدها قبل أيام معدودة من ذلك الحفل ، حتى أن بعض الشوارع المفضية إلى المبنى الدائري ، الذي تقع أسفله صالة السينما الكبيرة ، سُدَّت تماماً أمام الآليات ، في إجراء أمني ، فاشتكى من اشتكى على مضض ، وبرر الأمر من برره على مضض أيضاً ، في حين لم يظهر أي موكب لـ «القائد» في آخر الموعد المحدد لمجيئه ، عبر تلك الطرقات ، لأنه - ببساطة - كان نزول المبنى ذاته ، دون إثارة انتباه الناظر الفضولي حتى . ولما امتلأت الصالة بالمدعوين ذوي الشأن ، بحسب مراتبهم ، تدرجاً من المقاعد الأولى إلى المقاعد الخلفية ، وغصت باحات المبنى ، خارجاً ، بالعائمة المؤيدين والمحازيين ، بدا أن أمراً ما قد اتخذ مشيئة صامتة لم تفصح عن نفسها . وكان أول من تشتم ما ليس في حاجة إلى تشتم هم مثموا المقاعد الأولى ، إذ لمحووا جموداً في حركة «القائد» الجالس خلف منصة الخطابة ، هناك ، على المسطبة غير العالية ، بينما دَرَج هؤلاء على أن يتلففهم ، في مناسبات من قبل ، بذراعين مفتوحتين ، وهو يشير عليهم بالجلوس ، واحداً واحداً ، بعد العناق .

لم يكن مألوفاً وجود «القائد» وراء المنصة قبل أن يدخل أحد إلى القاعات التي يتخذها للخطابة ، في أطراف المدينة ووسطها ، فكيف به وهو أول الحضور؟ لكن الفضول الجدير بموقف كهذا بسط جناحيه وذيله ، معاً ، ورشاً آخر مما لا يرى ، على المقاعد وعلى أنفاس الجالسين ، وهم ينقلون أبصارهم بين وجه «القائد» الذي بدا مُطَرَقاً يجفون تكاد تكون مغلقة ، وبين وجوه خرسه المتحلفين من حوله ، الممعنين نظراً إلى البعيد في رصد واضح لأية حركة قد تبدو في غير محلها .

وبعد وجوم ثقيل غطى سُترات الجالسين وقمصانهم ، وأصاب بعدوأة الداخلين - أيضاً - فأحجموا عن الابتسام ، مكتفين بالإيهام لمن يعرفونهم بالرؤوس قبل أن يجلسوا ، نقم رجل خفيف الشعر ، قصيره ، أتياً من زاوية تقع خلف ستارة ، كأنها من باب خفي فوق مسطبة الصالة ، ثم وقف إلى شمال «القائد» ، وتناول مكبر الصوت مقرباً إياه من فمه ، وقد انحنى قليلاً حتى لا تلمس سُترته الرفيعة مقعد الرجل الجالس ، ثم حمس كلاماً ، أو بدا للجالسين

أنه يتحدث همساً . لكنه نقر بإصبعه على قمرة مكبر الصوت ، ليتأكد من خدمته ، فلم يسمع تجسباً للنقر ، فأولماً برأسه إلى يمين جالس أمام صندوق ذي أزرار ، على يمين المقاعد الأمامية ، يستحثه على تدبير الحفل ، فإذا بالترقات التالية لأصابعه - إذ حاول اختبار المكبر - تندرج ككرات من أول القاعة إلى آخرها ، ثم تصطدم بالجدران فتترد على شكل ذبذبات سد الكثيرون دونها آذانهم . فأولماً الرجل الخفيف الشعر إلى اليمين ثانية ، فإذا بالصوت يستوي معتدلاً . فتتخجج ، ثم غمغم بكلمة واحدة ليسمع صداها ، ثم قدّم الحفل لما تأكد من نبرة صوته هو ، وصداها ، معاً .

قال : «توضيح الطُرف صعب . أنتم أدرى بالأمور ، وانتقاص من قدركم أن يشرح مثلي ما لا يُشرح . لكن علي أن أبسط الأمور ، وأنتم أدرى بعقدها مني . فإذا تجاسرت قليلاً على الماضي في الشروح إلى حدود لم يعد مسموح بها ، فسأتوقف ، لأنكم أعرف بالذي لن أقوله . وبين ما سأقوله وما لن أقوله أتترك لكم - أيها المقبلون على اختبار المبادئ - حرية إكمال فكرتنا التي بنيناها معاً ، بيتاً بيتاً ، وطفلة طفلة ، وشهيداً شهيداً .

ثم استوى بعد انحناؤه على مكبر الصوت ، متجهاً بكلمته إلى «القائد» الجالس خلف المنصة ، مشيراً بيده إليه : «أيها الأمين على ما لن نقوله هنا ، لأنك أوضحت ، أنت ، الأمر ، من قبل ، بإشاراتك الأبوية ، اسمح لنا بهذا الاسترسال بين يديك» . وعاد فأنحنى على مكبر الصوت ، متوجهاً بكلامه إلى الحضور : «لنعترف . .» ، وألقى بنظرة على عرض القاعة وطولها ، يستجلي أثر كلمته ، ثم أكمل : «لنعترف أن المسألة تقتضي تعبئة لا سابق لها . لنعترف أننا مقبلون ، الآن ، على نصف ما سنقوله ، أما البقية فهي رهن معرفتكم . وأنتم هنا ، اليوم ، لتؤكدوا ، صراحة ، ردكم الذي لم تقولوه بعد ، ضد ما يجري من سكوت على التاريخ» . وحذق لبرهة في «القائد» ، ثم جاوزة : «التاريخ بسيط . التاريخ أمر مفروغ منه ، وما علينا إلا أن نؤكد برؤوسكم ، أيها المعلمون المتخرجون من مدارس حقيقية لا حاجة بنا إلى ذكرها . وكان في ودي أن أصرخ : أنتم الحقيقة ، لكنني ، في حضور قائدي ، أتترك له صياغة الكلمة الحققة ، المأمولة ، التي لا ارتبان فيها ، ليحدد بها الدور العظيم لما هيئتم له ، في

هذا المنعطف. . .، وتطلّع إلى «القائد» يستمعيه عُذراً على خطأ لم يقره. «ليس دقيقاً أن أقول: هذا المنعطف. لا»، وأمسك بمكبّر الصوت بيديه معاً، كمن يتلقّف ثمرة نفيسة: «لا. هذا ليس منعطفاً. إنه الهوية». وأخرج من جيب بنطاله الخلفي، على عجل، بطاقة شخصية، ثم رفعها عالياً أمام الأنظار، صارخاً ملء حنجرته: «هوية مثل هذه»، وبدأ يشير بإحدى أصابعه إلى الورقة المربعة، المغلفة بمطاط شفيف، دون أن يرفع عينيه عن الحضور: «هنا الاسم. نعم. سيكون للمرحلة اسم صريح»، ونقل إصبعه نزولاً: «وهنا مكان الميلاد وتاريخه. نعم. سيكون للمرحلة مكان ميلاد وتاريخ».

ثم توقف قليلاً، وأطرق ناظراً إلى بطاقته الشخصية التي أمسك بها بيديه، في مستوى معدته، قرب عنق مكبّر الصوت، وهذّج في صوته على نحو مُحْكَم، كمُقْبِلٍ على بكاءٍ غثني، لا ينم عن حزن ولا عن فرح، وتتم: «أما تاريخ إصدار هذه الهوية فهو. . .»، ورفع بصره إلى الحضور من جديد، لينفخ من منخرنيه: «تاريخ الإصدار هو اليوم. اليوم. اليوم». وألقى ببطاقته الشخصية إلى القاعة في احتدام: «لم أعد أريد هذه البطاقة مُدً امتلكت تاريخ هذا اليوم، الذي أصدرتموه أنتم بختمكم لا بختم دائرة الأحوال الشخصية». ثم استرسل في نوبة حماسة فأخرج كل ما في جيوبه من نقود ورقية، ومن أوراق، ومفاتيح رنّت في ارتطامها بقاعدة مكبّر الصوت. ولما لم يعثر على شيء آخر سحب بطانات جيوبه فصارت خارجاً كأذان الأرائب، متمتماً: «هذا آخر ما عندي». واستدرك ففكّ حزامه الجلدي، وسلّاه في تشنّج فسمعت قرقعته: «حتى هذا لم يعد ضرورياً»، وألقى به على منصّة الخطابة. بعد ذلك استغرقة هدوء مريح، لا ترقّب فيه ولا تشنّج، فبالله الحضور يهدوء مثله، لكنه مختزج بفصول قليل، وبضجر أيضاً لم يبلغ بعد أن يستبدل الصفّ الأمامي وضع سيقانهم اليسرى على اليمنى، بعدما ظلّت السيقان اليمنى، طوال خطبة الرجل خفيف الشعر، هي العالية على اليسرى. ولما ألوى الخطيب بعنقه، في تَوَدّة، صوب «القائد» ألوى الحضور بأنظارهم - أيضاً - إلى حيث ينظر، فالفأه القريون من المنصّة على حاله، بينما الرئى البعيدون، في الصفوف الأخرى، أنه مقبلٌ على تصريح خطير يبحث عن الفاظ مُحْكَمَة تليق

بظروفه. لكن الرجل الواقف خلف مكبّر الصوت عاد فتحنج ليُثَبِتَ بصيرة السارحين قبل أبصارهم:

- «إنها فترة تأمل» قالها في خشوع، وهمس من أحماق حنجرته: «فلتأمل».

ورفع بصره إلى السقف، متهدأ:

- «قد تسألون: مالذي نتأمله؟ إنه سؤال في محله. لكن. . .»، ورفع إصبعاً أدارها على القاعة كلها:

- «ليس أنا من يملك الجواب. أنتم تعرفون أنّ مثلي ليس مخولاً بإعطاء جواب حتى لو ملكته، لأنكم أدرى وأقدر»، ورشف بعض الماء من كوب زجاجي، ثم أنزله من فمه في بطة، على المنصّة. وأكمل مُطَرِّقاً، بعدما لمع شفته السفلى:

- نحن في حاجة إلى هذا التأمل الذي ذكرته.

نعم. كان صديق «أ. دهر» بذكره، بدوره، بشيء ما من هذا القبيل:

- فلتأمل، معاً، ثوب جدي الذي أمسح بطرفه الأصابع عن الفرشاة.

ولما لم يبيد الشاب اهتماماً، وهو ينفخ رماد لفافته على أرض الغرفة، بادره الرسام:

- «منفضة الرماد قرب ساقك اليسرى»، وأردف ساخراً: «إنها صالحة للاستعمال».

فابتسم «أ. دهر» متمتماً: «أرض الغرفة صالحة أيضاً»، وفتح ذراعيه على وسعها وهو ينقل بصره من زاوية إلى أخرى: «هي واسعة». ثم رفع عينيه إلى الرسام قائلاً: «عليك أن ترسم عينيها»، وعقد ما بين حاجبيه محوراً في نظره، حتى بدا أحول، ففهم صديقه الإشارة:

- تعني صاحبك الحولاء؟

فاسترسل «أ. دهر»: حين تقول لي - هي - مثلك، لا تُلَقّ بالرماد على أرض الغرفة، فإنما تزداد حولاً وهي تحلق في أيّة بقعة داكنة من سجادة بيتها. ولكثرة هوسها بتوبيخي تعزو إليّ وجود آثار نكتشف، معاً، أنها آثار شحم أو مرطبات. تقول: هذه. . . هذه. . . فأنقرى بيدي الموقع الذي تشير إليه على السجاد، وأنا أصرخ: هذه شكولاته يا أخت، أو هذه دمنة حبر من أقلام

ابتك. واستدرك: «لماذا أقول: ابتك؟ لا أعرف. ربما لأنني أفاجتها مراراً وهي تضع الأقلام في فمها، حتى حين تحدث أحداً». ثم أشار بسيابته اليسرى إلى موقع من بنطاله، أسفل البطن:

«مرة قلت لها افتحي الأزرار هنا لتري رماد لفافتي. أنا لم أعُد أنفضها على أرض العُرف، بل هنا... هنا...»، وأمسكت بيدها وشدّته إلى حيث أشرت، فأزخته. وما كادت أصابعها تلامس الأزرار حتى صرنا، معاً، متدحرجين على بُع الرمد، والخلوى، والحبر. فبادره صديقه:

«سأرسمك في بقعة من الحبر، على سجادة تغطي اللوحة كلها. ولربما رسمت ابنة صاحبك».

فتمتم «أ. دهر»، وقد ضيق ما بين عينيه في عتب: «هي ليست صاحبتني. أنا المفضل لديها لتسرد عليّ بالتفصيل من تصاحب. أنا أمين على أسرارها المشاعة».

لكن الرسام بدا كأنه لا يصغي إلى الشاب، وهو يحدّق في القماش المؤطر على العارضين الخشبيين، قائلاً:

«سأرسم ابنتها أيضاً. هي في الثالثة عشرة، أليس كذلك؟». ولم ينتظر جواباً من «أ. دهر»، بل أكمل: «سأرسمها وهي تلفّ السجادة، عارية». وتطلّع إلى الشاب سائلاً: «اللفتاة، في الثالثة عشرة، عانة؟» فردّ «أ. دهر»:

«سنسأل الزعيم ذا الشاربين المستقيمين. إنه يعرف إذا كانت للفتاة، في الحادية عشرة، عانة. كل صديقات ابنته لا يجاوزن الثانية عشرة، أو الثالثة عشرة. والحولاء...»، ثم توقف، فحاول الرسام استدراج «أ. دهر» حين فطن إلى نبرة صوته التي بدت حادة، دون سبب واضح: «أعني أن...»، فلم يدعه «أ. دهر» يكمل سؤاله، مجيباً في احتدام خفيف:

«نعم. أعني أن...».

فخفف الرسام من انفعال الشاب في خبث وديع:

«ربما احتاج أهلها إلى خدمات الرجل...».

فقاطعه «أ. دهر»: «الحولاء بنت الحولاء - صاحبتني، صاحبة الكلّ هذه، قالت إنهم ليسوا في حاجة إلى ربّ الرجل حتى. لكن الذي جرى لا

أعرف تفسيره. إذ كانت تنظر في شزر إلى ابنتها كلما دخلت البيت مساءً، بينما يتدحرج من خلفها، على الدرج، كليات مرافق الزعيم ذي الشاربين، الذي يوصلها: تصبحين على خير. أما الفتاة فكانت تدخل واثقة، متجاهلة نظرات الحولاء، وتغضي إلى غرفتها مباشرة فتوصد الباب من خلفها، ورفع «أ. دهر» يديه معاً، كمن يتوسّل، صوب صديقه:

«والله، حصل هذا أمام عيني أكثر من أربع مرات، حين لم يكن والدها في المدينة. وقد سألت الحولاء عن هذا الغموض الصغير في موقف واحد من من الأخرى فصرخت بي: «إسألها»، وأسبل يديه المرفوعتين متمتماً: «صرخت بي. والله صرخت حتى ظننت أن الجيران سيطلقون باب البيت. فسكتت. أنا لا أحب أن يصرخ أحد في وجهي، وقد أدركت خطأها بعد برهة فجئت أمامي مطوّقة ساق، ثم قبلت فخذتي مغرورة العينين دون أن تتكلّم، ففهمت اعتذارها. ثم قامت، على النحو السريع الذي جئت به أمامي، عائدة إلى كرسيها. فقررت - حقاً - أن أسأل ابنتها عن هذه الصلابة في تصرفها. ولما سألت الفتاة - في أثناء عبورها الخاطف من غرفتها إلى المطبخ، لتجلب قطعة من فطيرة التفاح وكوب عصير ردت عليّ، في المرّ الذي استوقفتها فيه: كلّ هواء. والله قالت: كلّ هواء. وقد ظننت طوال ارتيادي بيتهم أنها ملّكت إشارة مبني إن قررت أن تهدأ، مثلاً، أو تنفجر كفقاعة. وإذا فاجأني بكلماتها، لم أدر ما أفعل من ارتباك أمام نفسي، فتصنعت الفكاهة، ضاحكاً: سأكلّ الهواء. أنا عاشق الهواء، وأحبّ الهواء. عمّ غمّ غمّ. وصرت أقضيق بفكّتي كأنني ألتهم ما حولي من فراغ».

وانفجر «أ. دهر» ضاحكاً، فانفجر الرسام أيضاً، ثم صاراً يمثلان الحركة الفكاهية ذاتها، فيلقطقان بألسنتهما طقّقات سريعة، بينما كادت عيونهما أن تغرورق من كثرة الضحك: «هكذا» يقول «أ. دهر» وهو يفتح فمه على آخره ويغلقه، فيتبعه الرسام صائحاً: «هكذا»، وهو يفتح فمه، بدوره، ويغلقه، كأنها بعض على هواء خفي في فراغ الغرفة، بل يتقدّم على ركبتيه كأنه يطارد شيئاً ما، حيّاً، يهرب من أسنانه ومن أسنان «أ. دهر» معاً. وقد توقف الأخير كابحاً هأهأته المديدة، رويداً رويداً، ليسترسل:

- «أكلت كل شيء». أكلت الهواء، والفراغ، والفتاة، وأثماها، والبيت، والشارع»، ثم غمز صاحبه ممازحاً: «وأكلت الله». فتمتم الرسام متصنعاً الغضب:

- أأكلت الله أيضاً؟

فهز «أ». دهر» رأسه إيجاباً. إذ ذاك تقدم منه صاحبه في توسل فكاهي: «وما طعمه؟»، فرد «أ». دهر»:

- أنتستطيع رسم طعمه إن وصفته لك؟

- «نعم». أجابه الرسام متوسلاً: «سارسم الطعم وملانكة الطعم إذا لزم الأمر. عليك - فقط - أن تصفه».

فرفع «أ». دهر» وجهه عالياً، ناظراً إلى السقف، في تأمل متصنع، ثم غطى الجزء الأيسر من وجهه براحه يده إيغالا منه في حصر فكره:

- إنه يشبه صغير الريح على باب مطبخنا الزجاجي.

غير أن الرسام مسد على شاريه سائلاً: «لا طعم لصغير الريح. صف الطعم لا الصوت». فابتسم «أ». دهر»:

- وصفت الطعم. فانا كلما سمعت صغير الريح سال لعابي شهوة إلى حساء العدس.

فهز الرسام رأسه موافقاً، وهو يشير بيده إلى الشاب كمعلم مدرسة: «تابع يا بني. تابع وصفك لأنواع الحساء». فاستوقفه «أ». دهر»:

- «لا أصنف الحساء. أحاول تقريب الأمور إلى المدى الذي يمكنك من الرسم، لا أكثر»، وأغمض عينيه: «خذ مثلاً: بَمَ تفكر حين ترى بعينيك ومض القذيفة وهي تنفجر على السطح المقابل لشفتك؟»، فرد الرسام: «لا أفكر في الغالب، لأنني أكون مشلولاً، وإذا فكرت فلا يخطر ببالي إلا أنني ساموت». إذ ذك فتح «أ». دهر» ذراعيه في مرج صاخب:

- وجدتها. تفكيرك في الموت هو الوصف الأكمل لله؛ هو الطعم.

فتخابت الرسام بدوره: «هذا هو ما أكلته، إذاً، حين قالت لك الفتاة: كل هواة؟».

- «نعم» رد «أ». دهر». «نعم. أكلت ما لا تستطيع رسمه».

لكن الرسام أعاد طرح سؤاله الفكاهي على «أ». دهر» بنحر مختلف: «لا بأس. أستطيع أن أرسلك، وسأحضر بذلك الممكّنات كلها. فما دمت تعرف طعم الله، فسيبدو ذلك واضحاً على ملاحظك. وإن كنت تحب حساء العدس فسيبدو ذلك على عينيك. وإن كنت تتفنن الإصغاء إلى صغير الريح فسأجعل شعرك حصبلاً»، وتوقف سائلاً: «أتحبذ أن يكون شعرك حقل قنبيط، أم يقطين؟». فرد «أ». دهر»:

- اجعله حاكورة رمل متطاير، يغمض الناظرون إلى عيونهم.

فتمتم الرسام: «هكذا، إذا؟»، فاسترسل «أ». دهر» كأنها يجاوز الحوار كله:

- أنا ربّيت ابنة الحولاء. كانت تبول على نفسها حين عرفت أمها. وفي كل يوم تقريباً، حتى بلغت الحادية عشرة، كنت أسرد لها حكاية الورقة.

- «حكاية الورقة؟» سأل الرسام ماطلاً شفته. «نعم» رد «أ». دهر»، وأكمل:

- أنا اخترعتها عن الموت. كلهم يكذبون على الأطفال فيلقنونهم ما يروونه إلهاء. والأطفال... ثم قهقهة: «إنهم ثغرات ينفذ منها الجنون إلى العالم، وهم مولعون بالموت الذي يجاهد الكبار في إخفائه عنهم». واستطرد بالقهقهة ذاتها:

«ومن يستطيع إخفاء الموت عن الأطفال؟ لديهم طبيعة استقصاء الموت حتى أظن أن الموت هو من ابتكارهم. لذلك تعمّدت إلى سرد حكاية الورقة على البنت في سنيها تلك، حتى يادرتني ذات يوم سائلة: وماذا تعني بك كسستها

الريح؟، وهي جملة كنت أنهي بها القصة... اسمع». ونظر إلى صديقه الرسام يستجلي وجهه، فلما ألفاه رخيماً غير خسجران، استرسل: «الحكاية كلها أن ورقة سقطت من الغصن الذي كانت عليه، فأريدت وهاجت، ثم دارت من

حول الشجرة تحاول صعود جذعها فلا تستطيع. فلم تجد إلا أن تهدد الغصن الذي كانت عليه، من قبل، صارخة: خذني إليك، أو أوعز إلى صديقاتي

الورقات أن تتساقطن حتى تبقى عارياً. ففتح الغصن عينيه المنمضتين في كسل، وقال للورقة: لست في حاجة إلى دعوة صديقاتك لتلحقن بك. إنهن سينزلن بإرادتهن، دون صخب كالذي تفعلينه. ولربما بقيت عارياً بعض

الوقت، لكن ورقات أخرى ستسرنني. فاستشاطت الورقة الساقطلة غضباً،

مهذبة من جديد: سأعصف بك، وبالشجرة، إذا لم تُعْذِني إلى مكاني. لكن، في تلك اللحظة تحديداً، هبت الريح فكسَّتها، مع ورقات صفراء أخرى، إلى مكان بعيد. «ولحق «أ. دهر» شفته، مكملًا: «كانت الفتاة تسألني عن معنى «كسَّتها الريح»، فأجبتها: أعني أن الورقة كانت ميتة. فامتعضت، موبخة: قل لي من البداية إنها كانت ميتة، حتى توفر عليّ وصليكَ صراخها. فسالت: صراخ مَنْ؟ فردت: صراخ السورقة. فعدت سائلاً في مِرَح: أسمعِين صراخها؟، فأجابت: أسمع صراخك الكاذب وأنت تقلد ورقة ميتة لا تستطيع أن تبول على نفسها. فعبست معاتباً: لا ترددي كلمات مثل هذه. ذلك لا يليق بفتاة مثلك، فباغتني: حلّ عن مؤخري»، وتطلّع إلى صديقه الرسام، الذي بدا مشجعاً في إصغائه المبتسم، فأكمل: «قالت: حلّ عن مؤخري». واستدارت لثمضي، فأمسكتها من عضدها، صارخاً: بل سأعْذِد على... فاستوقفتني صوت الحولاء، من غرفة الجلوس - إذ كنا في غرفة ابنتها - صارخة بدورها: أوقفا خلاف الدجاج هذا. فعضضت على أسناني وأنا أنظر إلى وجه الفتاة الذي بدا عليه نوع من الشياطة. ثم هذأت من وقع سواها المهموس، وسط الصخب المعلن قبل برهة: ستمدّد على ماذا؟ فأرخيت يدي عن عضدها، وأنا أحسّ، فجأة، بنوافير خفية تنبجس من أحشائي إلى الأعلى، ويدغدغات في الدم، من جهة البطن الأيمن. نعم. هناك بطين أحقّ يخصّ قلوبنا الوهمية». وباغت صديقه الرسام: «ألا تحس أن لك قلباً وهمياً إلى جوار قلبك المبرمج هذا؟».

فوضع الرسام يده اليسرى على ثديه الأيمن، ثم أنزلها إلى أسفل، ومطّ شفته كأنها يبلغ «أ. دهر» أنه لم يعثر على ذلك القلب، فتمتم الشاب: - أوه. لن تعثر عليه هكذا. اغمض عينيك.

فاستحسّ الرسام قائلاً: «لا تهتمّ. سأعثر عليه فيما بعد. لكن قل لي ماذا جرى حين أحسست بدغدغات دمك؟»، فرد «أ. دهر»:

- كيف سأشرح لك؟ ببساطة، أرذتها. غير أنني أحسست بذعر من رغبتي المفاجئة هذه، فيها كانت يدي ترتفع على طول فخذهما العارية، تحت ثوبها، حتى لامست حواف سرواها، وتوقفت قبل أن يهمس: «يا الهي. لم

تنظر إليّ، بل إلى يدي وهي تمسّد فخذهما، فيرتفع ثوبها رويداً رويداً، كاشفاً عن جلد رقيق تترامى من تحته عروق زرقاء متشعبة، وينشر عليه زغب يخفت كلها التجهت إلى أعلى. وقد توقفت، بغتة، وأنا أخفق خفقاً بجسدي كله، فمشت وهي لا تزال تنظر إلى يدي، حتى انسدل ثوبها على فخذهما من جديد. ولما صارت في باب غرفتها استدارت إليّ مبتسمة، ثم رفعت صوتها: «ماما... فانخلعت رثتي، وأنا جاث على ركبتني. لكنها استرسلت: «ماما، قولي له «أ. دهر» أن يخبرني حكاية أخرى. ضجرت من هذه الورقة»، فقست وملثي إحساس بنجاة من فضيحة، هامساً بصوت مترجرج خضت أن تلاحظه الحولاء: سأسرد لك حكاية اللقلق. ويدوث ساذجاً، بعدئذ، طوال جلوسي مع أمها، أوافق على كل ما تقوله، في بلاهة، وأبتسم في بلاهة، وأشرّد بين كل برهة وأخرى متفكراً في الذي فعلته. يا أمي! وأطلق «أ. دهر» صرخة خافتة تنم عن مقدار إحساسه بفداحة ما كان سيحصل لو أن الفتاة صاحت، مثلاً: «ماما. إنه تلمس فخذي».

نعم. بإذا كان على «أ. دهر» أن يجيب؟ «أسوي لها ثوبها؟». ربما قال ذلك، لكن ما من ثنية ظهرت على ملاسة الثوب حتى يسرى. وقد يقول: «نفضت عن ثوبها غباراً...»، لكن ما من غبار في الغرفة. ولربما عمد إلى تسوية الأمر في تمثيل رهيف، مدعياً الدهش: «فخذك؟ أنا أحمس فخذك؟ يا فخذ الجراة، دعيني أنظر إليها» وهو يرفع ثوب الفتاة، فتفجر الأم ضاحكة من حركته. من يدري؟ بيد أن الحكاية كانت مرشحة لتأخذ منحى آخر، كأن تصدق الحولاء ابتها فتجمّد من المفاجأة، وهي تهمس: «أنت؟»، فيقترب منها «أ. دهر» متصمماً اتزاناً لا يخفي ارتباكاً: «يا للمزاح. ابتك تدلّل، والحقّ عليك»، فلا تجد الحولاء غير أن تنظر إليه في سكون مشبع بالتوبيخ، فيرفع «أ. دهر» يديه وهو يشير بأصابعه إلى صدره: «أتصدّقينها أم تصدّقيني؟. فخذها؟ هاها. صوّك هذا يلزمه تنفّ». «أ.

غير أن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع، وظلت الشهقة التي أطلقها «أ. دهر»، وهو يسرد الحكاية لصديقه الرسام، مجرد تدليل على فداحة أمر مُقترَض. وقد مضى مسترسلاً:

- بدوت كالآبله في حضور الحولاء، حتى أنها ارتابت في حركاتي، فقالت: أتريد كوب شاي؟ فصرخت: نعم. نعم. مرتين. وقد تمالكت نفسي قليلاً وهي تحضّر الشاي، بينما كنت أشعل اللّفاضة من عقب الأخرى. وإذا ارتشفت من السائل الداكن رشقة أولى هدأت رثتي، فمضيت - في تهذل عمّ جسدي وفكري معاً - أسرد للآم حكاية اللّقلق: أتعرفين أنهم يطلقون عليه اسم «مالك الحزين»؟. هذا هو جوهر الحكاية، فاسمه لم يكن هكذا. تعرفين. اسمه اللّقلق. وقد قرر هذا اللّقلق أن يبنى عشاً - ذات يوم - فما أعجبه مكان قط. نصّحته الطيور بالشجر ليبنى عشاً بين أغصانها فتعفّف. نصّحته أن يبنى قرب الأنهار كما يفعل «أبو قردان» والنّحام، فاستكبر. نصّحته بأوكار كأوكار العصافير تحت عوارض السقوف، فاحتجّ: «ألا ترون ضخامي؟». نصّحته بالأشجار، أو المنحدرات الجبلية، كما تفعل النسور، فالوى بعنقه لا يريد إصفاة. فبادرته الطيور: «أين تريد عشك إذا؟»، فردّ في استعلاء: «على غيمة ما. على الغيم»، فانفضّت عنه متعجبة من أحواله. وقد سعى اللّقلق من أرض إلى أرض فما كان يصلّها إلّا في الأيام الدافئة بطّيع الطائر الربيعي فيه، لكنه إذ ذاك لم يكن يجد من الغيوم إلّا بقايا مخلّخة، فيرفع منقاره إلى الأعلى مقلّطاً، ثم يقف على ساق واحدة وقد ألوى عنقه في همّ شديد، لذلك يطلقون عليه اسم «مالك الحزين». وحين وصلت في القصة إلى نهايتها هذه همست الحولاء: ليتحرّ ابن القحبة. فافقت من استرسال سائلاً: من؟ فردّت: لقلّك هذا الحمار.

ورفع «أ. دهر» كتفيه مبتسماً:

- «لقلّك حمار. لقلّك ابن قحبة، لكنه لقلّك، فما ذنبي؟ سردت الحكاية لابنة الحولاء مرتين فقط، فقالت: ألا تعرف غير هذه؟ قلت: أنا في خدمة مزاجك، وسأخترع أي شيء تريدته، فابتسمت هاسمة: ما الذي ترتديه تحت بنطالك؟ فأجبت متعجبة: سروالي الداخلي. قالت: ما لونه؟ قلت: ...، قالت: أربنيه. فتجاسرت: بل أربني أنت سروالك، فرفعت ثوبها حتى سمعت خفقات قلبي من باطن قدمي. ومنذ ذلك الوقت صرنا في كمر وفرّ. احتضنها فتفلت نفسها، وأبتعد فتجاسر عليّ. فقلت لنفسي: لا بأس. اكبري سنة

أخرى وسنرى. ولما كبرت ابنة الحولاء سنة فطفها ذو الشاربين المستقيمين، الذي يفوق بعمره عمري وعمرها لوجعاً. وتراخى مستسلماً قليلاً: «حبذا لو لم تقل لي الحولاء أن أسأل ابنتها من صلافة تصرفها مع أمها، لكنني سألتها، فقالت في برود ساخر: كلّ هواء. وقد أكلت الحمي، والحمي الذي يليه، والضاحية، وبعض جهات المدينة، والمدينة، والرياح، والبحر، والجبل، ووميض القذائف بعياراتها المختلفة، والموت ذاته». وازدرد لعابه متمثلاً كيف يبلع لقمة: «هكذا بلعت الموت دون مضغ». فباغته الرسام: «كان أهل الفتاة، قطعاً، في حاجة إلى ذي الشاربين». فاحتمد «أ. دهر»:

- «قالت الحولاء إنهم ليسوا في حاجة إلى ربه». وأطرق كأنه غير مقتنع بالذي يقوله، مضيقاً: «لا أعرف. غابت الفتاة - ذات يوم - عن بيت الرجل بضغطة من أمها، فأرسل ذو الشاربين المستقيمين حرسه يستجلون الأمر. ودرجت الأمور بعد ذلك على هذا النحو، كأنها تهدد الفتاة أباهاً وأمها بخرس ذلك الرجل، فباتا مستسلمين، يوماً بعد يوم، حتى أنني - في فترات اجتماعي بالآب والآم معاً، كصديق مشترك - كنت أبدي غيرتي الساخنة من تأخرها في العودة، فيخفّان عليّ في سخرية: «أأنت عشيقها؟ فلتسلخ مؤخرة هذه العنكبوت»، فأنكمش حتى أغدو كرة صوف صغيرة تحت إحدى الكنبات. وتوجّه إلى صديقه: «أتعرف كيف ترسم كرة صوف في الظلام؟».

فسأله صديقه: «ولم في الظلام؟»، فردّ «أ. دهر»:

- هكذا يغدو الرسم سهلاً. ضع لوناً على القماش، وقُل لي: أترى كرة الصوف؟ فإذا أجبتك: أين هي؟ ردّ: إنها في الظلام.

فابتسم صديقه: «ولم لا؟ أظن أنني أرسم العبارة المقابلة في ظلام اللون»، وغمز الشاب: «للون بُعدان، وأنا أثقن الوقوف في الجانب الآخر منه؛ في الجانب المُعَلَّق، لذلك تبقى هذه النافذة وحدها؛ هذه النافذة المشغولة بالحقيقة الظاهرة للون، فتتلصص العبارة منها علينا. انظر»، ومدّ إصبعه فجاءة إلى زاوية من النافذة الضائعة في فراغ لوحته: «ألم تر أحداً يمر؟». فأطرق «أ. دهر» متمثلاً في برم:

- لا أظنك رأيت أحداً من عائلتي؟

فرد الرسام: «لا. لا يشبههم». فأبدى الشاب استغرابه:

- أتعرف ملامح عائلتي أيضاً؟

«كلهم يشبهونك» ردّ صديقه، وأردف: «لا تسألني كيف رأيتهم، لكنني رأيتهم من هذه النافذة»، ثم أشار بإصبعه - ثانية - إلى اللوحة، بينما مدّ يده الثانية في اتجاه «أ. دهر» يقاطعه على كلام لم ينفوه الشاب به بعد، مضيفاً: «يشبه صاحبنا القابع في صالة السينما»، وهو يعني من درجوا على تسميته بـ «القائد».

نعم. في فراغ ماء، من خلف ذلك الحوار الصغير بين «أ. دهر» وصديقه، كانت الذبذبات التي لا تزول لصوت الخطيب ذي الشعر الخفيف - التي أطلقها في خطابه تحت العمارة الدائرية، حيث صالة السينما - تندور وترتج، وتتداخل، وتتفصل، وتتوازي شبكياً، حتى يأخذ الصوت بُعداً، وعمقاً، ورنيناً، ومخرجاً، ورائحة، أيضاً، التي لم تكن إلا رائحة ثياب «القائد» العسكرية، التي درج المهتمون به على غسلها بماء مغلي خالطته عيدان الرُّند.

نعم. كنا نحن الخمسة اللا مرتين نبوب الروائح فترة بعد أخرى، كأنها يجري تدريبنا على ذلك بقوى تفتن كشافاتنا ذاتها. وقد بوغتنا - أول الأمر - بهذه المقدرة التي هي من جوهر الكائن المرئي، لكننا طويلاً صفحاً عن ذلك، لكثرة ما ألقنا من طبائع أخرى بوغتنا بها أيضاً، من قبل. ثم ارتأينا أنها إشكالات عارضة تسببها الإقامة بين هؤلاء المرتين المذعورين. نعم. كان في ذلك التفاضل ما فيه من حجب لبعض الأسئلة التي لم تكن تليق بأمثالنا - نحن العارفين بهاضي الحدث ومستقبله، غير أن تغاضينا هذا كان يؤجل القلق ولا يمحوه. وإذ نقول «القلق» فإننا نستعير الكلمة من «أ. دهر» وشركائه الناطقين، في غمطياتهم التي لا مكان للموت فيها، أو للألم. نعم. يموت الواحد منهم فيصمت. وإذ يصاب - كذلك الأعرج في الطبقة الثانية من عمارة «أبي كبير»، حين تطاير نصفه الأسفل كله من انفجار القذيفة - يبدو مذهولاً، مخنقاً، يبحث بعينين فارغتين، في اللحظات الساخرة من رتبة اشتراك الكل

في نسيان الموت، عن شبيهه الذي جاوز فكرة الرحيل من العارض إلى الجوهر، ومن الكثيف إلى الشفيف، ومن الشُّكل إلى قِيامة الفراغ. نعم. كلهم يودعون بشهقة خفيفة أو طليقة، ذات حروف لا تستقيم معها كلمة من كلمات الكلام.

نعم. استعرنا كلمة «القلق» من الشركاء المرتين، وهو ما بتنا نستشعره في مجاوزاتنا المقصودة لأسئلة مثل: هل يمرُّ اللا مرتين الآخرون، المؤكّلون مثلنا بالأحياء، بالذي نمرُّ به من آن إلى آخر، فيكاد بعض طبائعنا يتماثل مع طبائع المرتين؟ ولربما كان هذا السؤال، ذاته، يقودنا إلى سؤال ثاني يشغلنا: أين اللا مرتين الآخرون؟ كنا حين نعود إلى هناك، إلى المدى الأكثر فتنة بسبعته، ونُقال لنا: «عودوا. نسيتم أن تكونوا لا مرتين» ندرك أن ثمة آخرين - هم كثافات كمثلنا - يرشدون العالم المرئي إلى كماله المُستمتع. لكننا، في وجودنا قرب من أوكّلنا به، لم نر أحداً، ولم يتصل بنا أحد.

نعم. أسئلة رفيعة تسربت من شقوقي لا نراها، فإذا بنا أمام مستغلات أشبه بالأربعة الأيام الضائعة من التقويم بين انهيار عمارة «أبي كبير» وظهور «أ. دهر» على السفينة المتجهة بالمحاربين غرباً. وقد ارتجّ يقيننا إذ ألقينا أنفسنا اللا مرتية على جهل بأطوار الوقت السابق لتوكيلنا بالطفل ذي الجمجمة الرخوة، ومن بعده بـ «أ. دهر». نعم. ثمت أكيد ضائع، مغفل، لم يقبض لنا أن نحسب كثافاتنا فيه. لكننا نمشون لذلك، فنحن نرى - مرة أولى - أن في مكثتنا تحيّل ماضي كثافاتنا تلك، في حرية تجاوز حدود المعلوم حين يكون أمر ما حاصلاً، مُفصلاً، يمكن لأعمى أن يصفه. وإذ تجاسرنا على تحيّل اللحظات القليلة التي سبقت التحاقنا بالطفل ذي الجمجمة الرخوة، رأينا أن من السهل - بحق - تدبير كيان مريح لكثافاتنا، في منأى عن أي حضور صارم قد يهتف بنا: «عودوا... نسيتم ما نسيتموه». وأوغلنا - من ثم - إلى ما افترضناه غائراً في نشأتنا فإزداد المرح خطّة، حتى صرنا ننادي: «أنت... أنت، قل لنا عودوا، نسيتم أن تكونوا لا مرتين»، فيرجع صدى صوتنا الواحد مترقفاً كشعاع من تلك الشعاعات التي يراها المرتبون مترافضة على سطح ماء مراقص.

نعم. حين لمسنا أن مدى معرفتنا يقتصر على ماضي المرثيين، وحاضرهم، ومستقبلهم أيضاً، استسلمنا إلى يقين مشوش قليل، وهو أننا ولدنا مع الطفل ذي الجمجمة الرخوة، ما دمنا لا نملك دليلاً على وجودنا قبل ذلك. لكننا بقليل من الحكمة نخالف هذا اليقين، دون جزم، لأننا عدنا، بعد موت الطفل، إلى «هناك»، حيث يُفترض أننا كنا قبل المهمة التي تناط بأمثالنا للشهر على المرثيين وأحوالهم. وتذكر - بالطبع - الصوت ذاك: «عودوا...». إنها من الحق أيضاً أن نحوز ذكرى من ماضٍ يمكن تذكره.

وفي غمرة اللا متضح هذا قررنا أمراً على حماقة، لا نعرف أقدم أمثالنا عليه أم لا، وهو نقض المهمة، والعودة حتى قبل أن يموت من أوكنا به. وبالفعل انفضضنا عن «أ. دهر» وهو يشرح لصديقه الرسام، في أسف: «هربت المرأة التي رسمتها لي من داخل اللوحة». نقول انفضضنا في هدوء، عابرين الردهة المعتمة حتى باب المصعد المواجه للشرق، ونزلنا الدُرج خمس طبقات فصرنا إلى مدخل العمارة، ومن ثم خرجنا إلى الشارع العريض قليلاً، متفلسين الصعداء على عادة هؤلاء المرثيين إذ ينجون من القصف أو من الأسئلة. والتفتنا يميناً وشمالاً لتسخير وجهة ما نسلكها فتشابهت الجهتان على امتداد الشارع الموازي للعمارة من الشمال إلى الجنوب: براميل هناك، وبراميل تقابلها هنا. نعم. كان الشارع مغلقاً من جهتيه، بدءاً من عمارة «أبي كبير» وانتهاءً بساحة صغيرة جنوباً، تتوسطها بضع شجرات تفتت من حوها سياج حديدي رقيق، مطلي بلون أخضر. ولم يكن في الشارع غير ثلاثة صينية ورجل بديين: صبيان قرب العمارة، والرجل وصبي آخر قرب الساحة. وكان البدين يلوح من مكانه الجنوبي في اتجاه الشمال، صارخاً: «لماذا تضرب أخاك يا كلب؟»، فيرد الأكبر فيهما: «أخي يعبث ببندقته فيلقمها يا أبي، وأنا أسأله أن...» فيضيق صوته في صراخ البدين ثانية: «والله سأنبول على بندقيتكما، أو أرسلكما إلى البيت إذا تخاصمتما». وكان واضحاً أنها ابناه، إضافة إلى الثالث الذي يشاطره حاجز البراميل قرب الساحة ذات الشجرات المغبرة. والأربعة - بحق - بدو متحسبين، بأسلحتهم الرشاشة، ويذخيراتهم المتدلية في الجعب العسكرية على خصورهم، إلا صغيرهم الواقف إلى جانب أبيه البدين، الذي

لم يجد - كما يبدو - بنظراً عسكرياً، فأبقى قميصه المموه متدلياً على بنطاله الأزرق، اللطخ ببقع من الزيت المتسرب من مفصلات سلاحه، وهو يحتضنه بذراعيه تارة، أو يجلس وقد مدد الرشاش القصير على فخذه لعدم مقدورته على حمله طويلاً. وكان واضحاً أنه يستعرض أمام أبيه قدراً هائلاً من اليقظة التي بدت مضحكة جداً، كأنه يجتاز امتحان بقائه خفياً على الحاجر، أو أن يرحل إذا لم يرض البدين عن يقظته وتحسبه. فكان يقوم - فجأة - بينما يرتطم إخص رشاشه بالأرض من الثقل، ويتلفت من حوله هامساً: «صوت دبابة يا أبي»، فيتطلع إليه البدين بمتعضاً: «دبابة؟ هذه دودة رأسك يا حمار». لكن الصبي التحيل كما سورة رشاشه، ذا الرأس الكبير والعينين السوداوين، لا يبدي حساسية من ذلك الهزع، بل يمضي في لعبته البسيطة، متصنعاً إصغاء كإصغاء الأرنب: «هناك من يضع عبوة أمام دكان الحلاق في الشارع الخلفي يا أبي»، فيطرق البدين من برمه بلعبة ابنه المفتضحة: «ولماذا أمام دكان الحلاق يا حمار؟»، فيرد الصبي فاتحاً عينيه على وشيئهما: «لم ينفق الشعر للمحاربين، مدعياً أن شعرهم وسخة». فقاطعه البدين متخلصاً من ثرثرة ابنه: «أذهب واتق نظرة، إذا». وأردف - في حين كان الصبي يسند رشاشه إلى السياج الحديدي المتوج: «لا ترجع قبل ساعة. إلق نظرة على الشارع الذي يلي شارع الدكان، والشارع الذي بعد ذلك الشارع، حتى تصل إلى البحر. تبول هناك وارجع». فركض الصبي دائراً من حول السياج المحيط بالشجرات المغبرة حتى جذورها، نصف دورة، ليصير إلى ملتقى الشارع الخلفي، في نهايته، بالشارع الذي أغلقته عائلته براميل الرمل، ثم اتخذ وضعاً مراقباً لصق جدار أول بيت هناك يطل على الجهة الغربية، واختفى - بعد ذلك - كشبح - في المنحنى.

نعم. جاوزنا الرجل البدين وبراميله، والشجرات المغبرة حتى جذورها، جنوباً، مارين بوضع عمارات على الجانبين بدت مهجورة بالزجاج المحطم على حدود أرضيتها، إلا من محاربين قلة في كل مدخل، بدوا أقرب بالوان ثيابهم إلى الظلال، صامتين، يصغون إلى صفير الحديد في الهواء، وهو يبلغ - كساع غاضب - رسالة الموت المقروءة إلى المرثيين. غير أننا لم نمض طويلاً في الشارع لنبلغ نهايته، إذ اختصرته عمارة سقطت بكامل هيكلها من

الرصيف الجنوبي على الرصيف الشرقي، فأتكتأت على عمارة منخفضة في الجهة الأخرى، حتى بدا منفذ يمكن عبوره من تحتها. لكن هيئة الهيكل الإسمتي، في انحنائه المَحْتَقِن ذاك، كان كافياً أن يدفع الخطى بعيداً لتَعَبَّرَ من أيها جهة إلا من تحت ذلك القوس. ولا ندري لماذا عُدْنَا أدراجنا قليلاً إلى حيث زقاق متَفَرِّع - غرباً - لنمضي منه إلى وجهتنا، فيما كان لنا - كلامريين لم يدرجوا على التحسب لعمارة منهارة أو واقفة - أن نعبث النفق الذي شكَّله جذع العمارة المتقوس، في سقوطها، مع الشارع العريض.

لقد عُدْنَا أدراجنا لتفادي العبور من هناك، متجهين غرباً إلى المستديرة التي يعلوها جسر عالٍ بقوائم إسمنتية ضخمة، علَّتها صور موتى كثيرين، وإشارات بين الصور وفوقها، باللون من الدَّهَان سالت خيوطاً خيوطاً حتى جذور تلك القوائم. وكان الرمل والإسفلت المتفلح من قذائف لم تخطيء المكان لسنين، يوماً بعد يوم، مُتَثَرِّين على كل شبر، وكذلك بضعة آثار مما تركته أحذية مهرولة بغنائم من البيوت المهجورة، التي يغادرها أصحابها إلى أمكنة أكثر أماناً، في نوبات القصف المتبادل بين شطري المدينة.

وإذ جاورنا المكان ذاك، مسافة غير قليلة، غرباً بالطبع، باتت الخراب أقل كثافة، وظهر - كلياً أوغلتنا - أفراد مرثيون، فرادى، متناثرون، ما لبثوا أن صاروا جماعات صاخبة، رائحة غادية، بأسلحتها ومن دون أسلحتها، فجاورناهم أيضاً، وسط تمرات ضيقة من متاجر من صفيح بدا بناؤها مرتجلاً، سريعاً، في سباق خفي لإدراك ملكية مفقودة، فإذا بنا أمام صحور متفاوتة الارتفاع، تتدرج بأحجامها نزولاً حتى حدود الرمل الذي يتصل - بعد خطوات قليلة - بمياه البحر.

نعم. وقفنا نحن الخمسة اللا مرثيين، ذوي الكثافات الرطبة، أمام البحر ذاته الذي سيلقي «أ. دهر» فيه بمفاتيح بيته، وبمفاتيح أخرى، في فجر يوم ما، حين يغادر المدينة مع محاربين آخرين على سطح سفينة لا أبهة فيها. ولن نستعيد الآن، بالطبع، أسلتنا الموهوبة ونحن أمام ذلك الشطط الأزرق، حول الأربعة الأيام الضائعة بين سقوط عمارة «أبي كير» - بعد زمن من تاريخ وقوفنا هنا - وبين ظهور الشاب على سطح السفينة، ناظراً في الظلام إلينا

مباشرة، متوهج العينين بجمر لفافته التي يأتي عليها نفساً بعد نفس. نعم. نحن أمام البحر ذاته، المُشْتَغِل بأنواله الزبدية على تسج صَحْب ذي رذاذ متألّق. لكن ما يستوقفنا، نحن الخمسة اللامرثيين - وقلنا يستوقفنا شيء - هو ذلك الحشد العظيم من الكراسي الشاغرة، في صفوف أنيقة تواجه البحر، على امتداد الشاطئ المتعرج من مطرنا حتى أقاصي ما يمكن رؤيته، جنوباً، بعيني كشاف على صارية. نعم. صفوف من الكراسي لها لون مزيج من الزبد والرمل معاً. وكان واضحاً أنها مهيأة لصنف آخر، غير هؤلاء المنتزهين على الشاطئ، هرباً من القيامة المُسْتَعِرَة في الشوارع البعيدة قليلاً، إذ مضوا يجاوزون تلك الكراسي دون اكتراث. لكننا - مع المغيب الصارم الذي كنس المتاجر الصفيحية، والنازحين من الدور إلى العراء الرمل، ألقنا أشباحاً، من لون الكراسي ذاتها، تتهادى على مهل من جهة الشرق، أفواجاً أفواجاً، ليتخذ كل شبح مقعده، في هدوء صارم كالمغيب نفسه، مواجهاً البحر. ولم يكن صعباً اكتشاف أن هنالك أشباحاً من هؤلاء حديثة العهد بالمجيء إلى الشاطئ، لأنها استقدمت كراسيها معها، نجرها جرّاً. وما كان ليفوتنا من معنى المشهد أنهم قتل المصادقات، أولئك القاطنون في المدى القريب بين أساسات عمارة «أبي كير» والعمارة التي تواجهها جنوباً، حيث هم «أ. دهر» مرة أن يصرخ بالرجل الشاحب، الذي يطالبه بأجرة شقته: «نسيت هؤلاء. خذ منهم أجرة مكوثهم هنا»، لكنه هُذِب لهجته: «أياخذون منهم بدلات استئجار؟»، موجهاً سؤاله الساخر إلى الشاحب، فرد الأخير: «هؤلاء موتى وأنتم أحياء» في إشارة إلى مطالبته «أ. دهر» بالدفع.

نعم. أشباح مصادقات جديدة تلتحق بالقدامى، لتضم كراسيها إلى الكراسي الأخرى. أما الخطى فهي ذاتها، بآثارها الدموية التي بدت ظاهرة في الرمل أول الشفق، ثم امتزجت بظلام الغسق. وقد نسينا أمرنا الذي قُدْنَا أنفسنا من أجله إلى هذا الفراغ المائي، إذ غطى الليل ما غطاه، تاركاً لأشكال قليلة - من مثل الأشباح الجالسين على الكراسي تحديداً - أن تتبدى أكثر خيلة بسكونها، حية دون نامة أو نفس، كثيفة بالغدَم المنتظر في هياكلها الرصينة. نعم. تقدّمنا نحن الخمسة، ذوي الكثافات المؤرقة، من الصفوف

تلك، و جعلنا ننظر إلى حيث ينظرون من البحر، فلم نحفظ من الظلام المنبسط على المياه إلا بما يشبه جسم سفينة، بعيداً، ثابتاً، ضحاً. وقد تلاشى ذلك الجسم مع قدوم الفجر، فقام القاعدون عن كراسيهم، ثم ولّوا - في هدوء صارم، أيضاً - من حيث جاءوا. غير أنهم كانوا يلمسون آثار الخطى التي تركتها أقدامهم في الرمل، كمن يلتقط أصدافاً منتشرة، حتى عاد الرمل - حين اختفوا - مستوياً نقي الصفحة. فذكرنا كثافتنا - آنذاك - أننا أزمعنا أن نخادر هؤلاء المرثيين، من أيها النجاء، لكننا بوغتنا بالمدى العاري الذي لا يفضي إلا إلى المرثيين من حولنا. فحاولنا أن نتذكر كيف كانت تتم عودتنا إلى «هناك» إلى المكان الذي يصرخ الصارخ بنا منه: «عودوا...»، فما استقام لنا تشكيل مشهد يدل على مكان نعبره، أو سبيل نسلكه، أو جبال تسلكها، أو فراغ تشبه إليه فيصلنا بمقام غلوي.

نعم. لم يكن أمامنا، نحن الخمسة اللا مرثيين، غير إدراج احتمال واحد في الممكن، بعد التمحيص الكبير، وهو أن الصوت الذي كان يأمرنا بالعودة هاتفاً «نسيتم أن تكونوا لا مرثيين» لم يكن إلا صوتنا نحن، مُنبعثاً من كنه أننا لا نعرف أين نمضي إذا مات من نحن موكلون به من المرثيين، فعندنا إدراجنا، كالاشباح تلك، دون فضول أو دهش، من المعابر ذاتها التي سلكتها مبتعدين عن عبارة «أبي كبير»، في اتجاهها. وإذا بلغناها صعدنا الدرج إلى الطبقة الخامسة، متجهين يميناً صوب شقة الرسام، لمعرفتنا أن «أ. دهر» ما كان لينام في شقته هرة، بعدما حصد القصف ما رأينا من أشباح جدد، آتين بكراسيهم إلى الشاطئ، فإذا هما - الرسام والشاب - جالسان على أرض الشقة يكامل ثيابهما، وبينهما صحف مفرشة فوقها بصل وكبد فية، وبعض شراب. وكانا يتخاطبان بعيون حمراء من الشهر، لكنها مريحة في اتساعها:

- «لم بتعب من ثرثرتي، ابن الثعلب» قالها الرسام، وقهقهة حتى اغرورقت عيناه؛ بينما بدا «أ. دهر» مبتسماً، يراقب انفعال صديقه، ثم سألته حين توقفت عن الضحك:

- أحضرت خطابه؟

فرد الرسام: «ليتني حضرته. أخبرني أصدقائي بالرعب الذي أحسوا به

وهو يشير إلى «القائد» الجالس قربه، بين حين وآخر، أو ينحني عليه مستشيراً، وانفجر ضاحكاً من جديد، مردداً: «يستشير»، فغلت قهقهة «أ. دهر» بدوره، مردداً: «يستشير». ولم لا؟ استشارة الميت أفضل من استشارة الحي الضجران. فقاطعه الرسام، وهو ما يزال على ضحكته، محتلياً القم بلقمته مطحونة: «قائد ضجران؟ أنت تهذي»، فرد الشاب: «ألا بدعو إلى الضجر هؤلاء القادمون متائبين، حتى لو كان القائد ميتاً؟».

نعم. حين غادرنا - نحن الخمسة اللا مرثيين «أ. دهر» كان يشرح لصديقه كيف هربت المرأة التي رسمها له من داخل اللوحة، وإذا عدنا مع الفجر ألفناه محاججاً صاحبه، في مَرَحٍ صاخب، حول سبع سنين استغرقتها خطبة الرجل ذي الشعر الخفيف، في صالة السينما.

نعم. كانت ذبذبات صوت الخطيب عالقة بالهواء الثقيل فوق المدينة، وداخل شوارعها وبيوتها، فلم تصعد إلى الأعالي، على عكس الأصوات الأخرى التي تُحفظ، بعد صعودها الأثيري، في طبقة ما من الفراغ: «إنها فترة تأمل»، هذا ما يمكن التقاطه إذا أصغى المصغي، جالساً في زاوية ما من بيته، حيث التقاطع الكثيف للذبذبات، عادة، بين جدارين في التقائهما. وإن أراد المصغي ذاته أن يقرن ذلك الصوت بصورة صاحب الصوت فالأمر هيّن.

نعم. الخطيب نحيل قليلاً، وخفيف الشعر، ذو حاجبين مستقيمين، فوق عينين يكثُر من التضييق بين جفونهما كتدليل على خصر أفكاره. أما الباقي فهو على النحو التالي، لسبع سنين، يتخلل كل يوم فيها وجبات طعام سريعة، في الصالة ذاتها، ثم يعود الرجل - بعدها - إلى اعتلاء المنصة. نعم. البقية على النحو التالي: «نحن في حاجة إلى هذا التأمل الذي ذكرته»، ويلوي عنقه في اتجاه «القائد» المُنطرق على كرسيه، مضيقاً، وقد ابتعد صوته عن المكبر فبدأ ضعيفاً إلا للقربيين، في الصنف الأمامي: «أنت الذي علمتنا ذلك»، متوجهاً بكلامه إلى الغارق في زية العسكري، وفي صمته أيضاً. ودون أن يرفع عينيه عنه، يرفع يده اليسرى إلى الحاضرين: «لن يتقص هذا الحكيم من قدركم ليقول ما الذي ينبغي أن تتأملوه»، وارتد بعنقه - سريعاً - صوب مكبر

الصوت، كأنها يداهم وجوه القاعدين: «تأملوا ما تشاؤون، لكن ليكن تأملاً حقيقياً، منزهاً عن الصغائر، تضعون نصبه أن الحقيقة ستقال، مرة واحدة وإلى الأبد، بفعل الضرورة التي لا تُردُّ للمرحلة». وشدد على ترديد كلمة «المرحلة»، مبتسماً كمن يذكر الآخر ببدهية ما: «المرحلة تنسج ضرورتها، ومن ضرورتها أنتم».

وتوقف الخطيب خفيف الشعر مصغياً إلى وقع كلامه، فما سمع رجعاً، فالتفت إلى «القائد» من جديد، صارخاً: «إني أبلغهم، باسمك يا قائدي، كم تأملت ماضيهم، ليتأملوا - هم - رايهم، فيعينوك على أن تكونوا - معاً - ضرورة المرحلة: هم لك وأنت لهم». فعلا تصفيق خفيف، فازداد الخطيب احتداماً: «جميعكم تقتنون الآن لغة قائدي. لقد أباحها لكم سطرًا سطرًا، وجملته جملة، وخارج حروفه أيضاً، لكن هذا التأمل...»، وتوقف مستغيثاً بالجالس الغارق في كرسيه: «هذا التأمل الذي احثكم عليه، باسم قائدي، هو المطلوب».

نعم. لثلاث سنين لم يتزحزح الخطيب، ذو الشعر الذي ازداد خفة كمعاني خطابه، أمام حضور بات يأتي مدفوعاً بفضوله مرةً، وبهريه من ساعات القصص إلى مكان آمن مرةً أخرى، دون أن تثني بعضهم حتى الرائحة التي حاولت جئة «القائد» - بفعل إصرار داخلي - إخفاءها، لكنها انبثت، قليلاً قليلاً، من تحت يافته أولاً، ومن كُمِّي قميصه المفتوحين عند معصميه ثانياً، ومن رُدِّي بنطاله ثالثاً.

نعم. كان ذلك في الأسبوعين الأولين إذ أنزلوه - مبتأ - من العمارة إلى صالة السينا، دون إعلان ذلك قط، بعدما تم تحضير الحفل الخطابي لأيام. سُدَّتْ خلالها طُرقات، وفتحت طُرقات إلى العمارة الدائرية، بحسب ما تقتضيه الحيلة والحذر. وقد تمكَّن الخطيب، في اليوم الأول، أن يبرِّر تأجيل إلقاء «القائد» لكلمته، بدعوته الحاضرين إلى التأمل، وإذن للحضور - بعد ذلك - باسم «القائد» ذاته أن ينصرفوا، على أن يحضروا في الغد.

وانقضى الغد، وما بعد الغد، على النحو المرسوم لجهة ينبغي تأجيل

خطبتها سبع سنين، حتى تندثر فيتأجل فضول المدينة كلها، بناسها، وبيوعها، وشوارعها المغلقة حيطةً، أو المفتوحة إهمالاً. نعم. لم يتزحزح الخطيب عن مداراته حول التأمل إلا بعد ثلاث سنين، فارتدى - للمرة الأولى - دون أن يغادر الصالة قط، ثوباً عسكرياً، وهو الذي فرَّجَ على ارتداء ثياب مدنيّة بدا الإهمال واضحاً عليها بسبب مشاغل الرجل على الأرجح، وبخاصة ما ظهر من فتحة قميصه عند الصدر، كأنها تساقط زرٌّ أو زرّان هناك؛ وكذلك من رُكْبَتَي بنطاله المتفتحين، كأنها لا يجد وقتاً لتبديله فينام وهو يرتديه.

نعم. ظهر الخطيب ذو الشعر الخفيف في ثوب عسكري، ممسكاً بقبضة في يده، كما يفعل «القائد» الغارق بعظامه في الكرسي، فابتدر الحضور القليل: «كان لا بد من ذلك. لقد اضطررني...»، وأشار بيده إلى ثيابه من الأعلى إلى الأسفل: «وعليّ أن أكون في الموقع الذي أملي عليه شروطكم». ورفع يديه معاً، مقاطعاً أناساً لم يقاطعوه: «شروطكم، وحدها، هي التي ستجعل المرحلة متوازنة بعد اختلالها». وانحنى: «سأحدثي لكم، أنتم، أيها الذين سينتقدون المستقبل». ونظر بطرف عينه إلى «القائد» في كرسيه وثيابه اللذين علاهما غبار خفيف، مضيقاً: «لقد قال لي»، وهز رأسه يميناً في اتجاه الجثة، دون ذكر أي لقب: «قال لي مرةً: أنقذني من المستقبل»، وتصنّع الدهش: «كيف أنقذه من مستقبل يصنعه - هو - بنا؟». ثم ألوى شفتيه: «إن لم يكن واثقاً منا فلماذا حاول صنّع ذلك المستقبل؟». وسكت برهة، مُخصّياً القاعدين: «واحد.

اثنان. ثلاثة. أربعة. تسعة. اثنا عشر... لا بأس. فليختف الأخرون وراء المقاعد»، مشيراً إلى الفراغ البعيد في عمق الصالة الرطبة، التي أنارتها مصابيح ضعيفة بفعل مولد الكهرباء الضعيف: «لأنني سأقول ما ينبغي قوله عن المستقبل». ورشف من كأس أمامه جرعة ماء، مضيقاً: «أستطيع إطلاق سراح المستقبل ليؤكد لكم كم هو فخور بإقامته معنا»، ثم رشف جرعة ثانية من الكأس: «كلهم فخورون بالإقامة بيننا: المهاجرون من الجهة الشرقية للمدينة. المخدوعون. الشرفاء. المغترون. مصممو الأزياء التي باتوا يشككون

في عراقتهما. المستنبرون. الأرض، والسماء، والشواطىء غير المدنسة، والغروب...». ولعل شفته العليا مبسباً: «عليّ أن أقول لكم شيئاً عن الغروب» ملتفتاً في شاة لا تخفى إلى «القائد»، مشيراً بأصابع يده اليمنى كلها إليه: «لم يقل لنا شيئاً عن الغروب. كان حريصاً على النهار وحده»، وألوى وجهه، في بطة، صوب القاعدتين، متسائلاً: «المغيب مسألة أخرى كالستقبل. وأنا أضمن لكم - بضميري وقناعتي معاً - أن تأكلوه»، وكوّر يديه كأنها يحيط بهما كعكة دائرية، ثم فتح فمه مُقبلاً على نهشها: «هكذا ستقسم المغيب المحلى بمصارة النهار. أما بقية شعاعات الشمس ففي استطاعتنا أن نلحسها»، ومزّ بلسانه، الممدود خارج فمه، على الهواء، من يمين الصالة إلى يسارها، ثم قرّب مكبر الصوت من شفثيه فالتصقه بهما، ونهشاً: «اسمعتن؟»، ومدّ المكبر صوب القاعدتين في الصالة: «تجشأوا». واستدار بالمكبر ذاته، متصّبب الجسد، إلى «القائد» الذي ظل بعض شعره عالقاً بعظم جمجمته المخترية، هامساً: «تجشأ أنت أيضاً». ثم اقترب بالآلة التي في يده من «القائد» أكثر، فلامس بها أسنانه العارية، صارخاً: «تجشأ. تجشأ»، وتراجع إلى الخلف ممعناً النظر، بقوة، في الجثة التي لم يفارقها الحرس منذ أول يوم لتزولها إلى صالة السينا.

نعم. في ثلاث سنين أخسرى لم يجِد الخطيب كثيراً عن ترديد كلمتي «المستقبل» و«الغروب»، مع إشارات يديه، أو برأسه، إلى «القائد» دون ذكر لقبه قط، حتى اللحظة التي صرخ فيها بالخالس: «تجشأ»، وكان ذلك في أواخر السنة السابعة من الحفل الذي لم يُلَقَّ غير خفيف الشعر بخطاب فيه. وفي اللحظة تلك دفع الخطيب كرسي «القائد» بقدمه، فسبغت طقطة عظام، وتدرجت جمجمة، وكفّ بسلاميات متراصة، مضمومة على قبة عسكرية. أما بقية الهيكل العظمي فظلت داخل تجاويف الثوب الذي لم يبل كثيراً. إذ ذاك نهضت الحفنة المتناثرة من الناس عن مقاعدها، في الصالة، مذهولة، وهي القادمة بفضولها المريح. وعم، لبرهة عمياء، هدوء بعض بأسنانه

على الضوء الشاحب بين الكراسي، وعلى الجدران الطويلة. وكأنها استدرك الخطيب ذو الشعر الخفيف جسامته حركته تلك، ففتح ذراعيه وفمه معاً، لكن طلقته من الخلف اخترقت بصلته السيسانية، تحديداً، وخرجت من تحت لسانه الوردى المرتعش، فأنكأ بجذعه على منصة الخطابة، وانزلق قليلاً قليلاً حتى غدا جاثياً وراءها لا يرى.

بعد ذلك عمد الحراس، ذوو الوجوه الصارمة، إلى لئلمة «القائد» وتثيته على الكرسي من جديد. ولما بانث الجثة في وضع مقبول، لم ينسوا أن يعلّقوا إلى سلاميات يده اليمنى قبعة. وعادوا فاتخذوا وضعا على نصف دائرة من خلف الهيكل الغارق في كرسية، باقين على الحال تلك حتى انهيار عمارة «أبي كين»، وما بعد انهيار عمارة «أبي كير»، وظهور «أ. دهر» على سطح السفينة المتجهة غرباً بالمحارين.

نعم. كان علينا أن نقهقه أيضاً، نحن الخمسة اللامرتين، عن حال «أ. دهر» وصديقه الرسام، وهما ماضيان - في الصباح ذاك، الذي عدنا فيه إلى العمارة بعد رحيل قصير - إلى ثورتهما العذبة بوجهين مؤرقين:

- «هذه لك»، ويرفع «أ. دهر» شراباً أبيض إلى فمه، فيرد صاحبه: «وهذه لك» متجسراً كمثل شراباً أبيض أيضاً، ويزدردان الكبد التي، والنعناع الأخضر. لكن «أ. دهر» لا ينسى أن يذكر صديقه، مرة ثالثة أو رابعة، بالمرأة التي هربت من داخل اللوحة التي وهبها له الرسام، فسأله الأخير، في نبرة جادة، ماسحاً ببعض أصابعه على شاربيه الأشقرين: «أين علقتها؟»، فرد «أ. دهر»:

- «على الجدار الشمالي لغرفة الجلوس، أولاً، لكن الضوء الداخل من الباب الزجاجي كان يرغّل العين إذا انعكس على زجاجها، فنقلتها إلى الجدار الغربي، أسفل جلد الكنغر المعلق، تماماً»، وقسم حبة بصل، دافعاً بلبها الرئق إلى فمه: «كانت المرأة تتجسم يوماً بعد يوم، حتى صارت ناهرة بجسمها الأخضر خارج الزجاج الذي تكسر في واجهة اللوحة». وهمس وسط مضغيه

للقمته: «لماذا رسمتها خضراء؟».

فرد الرسام: «حتى تسألني لماذا هي خضراء؟». فابتسم «أ. دهر» متسائلاً من جديد:

- فلنفترض أنني لم أسألك.

فأجابه صديقه: «إذا ستكون امرأة خضراء محضة، دون أن يسأل أحد عن ذلك». وانفجرا ضاحكين بعدوى داخلية متوافقة. وقد حاول «أ. دهر» بعد ذلك، لدقائق، أن يوقف صاحبه عن القهقهه فلم يستطع، فكان ينزلق هو الآخر مقهقهاً، وهما يرددان: «خضراء. خضراء».

وإذ هذا أكمل الشاب للرسام ما كان يحاول قوله أثناء قهقهة الأخير:

- «لم أجفلها، ولم أبدأ حتى قهشاً. تركتها تنزلق من داخل اللوحة على مهل، وقد علق بشوياً المظلل بعض النبات الذي رسمته، وفاح منها ضيوع رطب». ووضع كفه على الأرض، ضاعطاً بها البساط الرقيق فوق الاسمنت: «هكذا غاصت قدمها الخافية في الكنبه، ثم أنزلتها حتى صارت واقفة قبالي، فلم أجد بداً من التحديق فيها كما باتت تحديق، هي، في. ثم اتجهت صوب الباب، باقية على حالها من النظر إليّ، وولّت خارجة». وزمّ شفتيه في أسف: «كنت أبله في تصنيع ذلك الهدوء. لقد ضيعت موقفاً مثيراً كان يمكن الزج بنفسي فيه لو أمسكتُ بها مثلاً». وتوقف ملوحاً بيده في فراغ كليته: «لا. لم يكن ضرورياً أن أمسك بها، بل أستوقفها في أدب»، وهزّ يده على النحو السابق كأنها يعترض، بنفسه، على ما يقوله هو: «لا أعرف، بالضبط، أي أدب كان عليّ أن أتصنعه حين أستوقفها، ويم أنادياها؟»، محدّقاً في الرسام: «ألها إسم؟»، ولم ينتظر جواباً من صديقه، بل أردف: «لا أعتقد أنها كانت ستهتم حتى لو ناديتها باسمها». ورفع كأسه بالشراب الأبيض إلى شفتيه فتجرعه كله، ثم سعل من الحرقه التي أحسها في بلعومه، وتجنح مسترداً صوته: «أنت هيأتها للهروب». وأشار إلى صديقه غامزاً: «أنت هيأتها للهروب. كنت أرى، بأعماقي، تواطؤاً بينك وبين اللون».

فقهقه صديقه صارخاً: «توقعْتُ ذلك. قلت لنفسي إنك ستفسّر هرب المرأة على أنه تواطؤ بيني وبين اللون». وجلس على ركبتيه كمن يتوسّل إلى الآخر، لكنه بقي مستمراً في هأهاتِه: «لو استوقفت المرأة، يا أحمق لاحتلت جسدك».

فأخذ «أ. دهر» هيئة مُعاتبه، برغم أنفاس الدعاية المتبادلة بينهما:

- ولماذا رسمت لوحة كهذه يا خرتيت؟

- «إنه الامتحان، وقد قبلته» قال الرسام، وحاول أن يفسّر قليلاً وهو يقضم عرقاً من التعنّع: «قبلتُ أن تحتلني اللوحة، فامتحتنتها بك». فمط «أ. دهر» شفتيه، متسائلاً:

- وكيف امتحتنتها بي؟

فرد صديقه: «عرفتُ أنك لن تجفل حين تنزل المرأة»، فقاطعه «أ. دهر»:

- وماذا لو جفلتُ فهربت، أو كسرتُ اللوحة؟

فرد الرسام: «كنت سادرك، حينئذ، أنني لا أعرف كيف ارتكبت حماقة». واستلقيا على ظهرهما، بضمين مفتوحين بدا في ظلامهما طعام ممضوغ، من الضحك الذي فاجأهما من جديد. ولما سكنا بادر «أ. دهر» صديقه مُستدركاً امرأة فاتة:

- ماذا عثيت بقولك إن المرأة كانت ستحتل جسدي لو استوقفتها؟

فرفع الرسام يده، طالباً من الشاب - بفتة - أن يصغي: «ألا تسمع؟»، ثم كرر الكلمة، ملتفتاً بأذنيه وعينيه صوب الباب الزجاجي المطل، جنوباً، على العمارة المجاورة: «أسمعت؟»، فأمال «أ. دهر» عنقه، مثل صاحبه، محاولاً الاصغاء، لكنه رفع كتفيه هامساً:

- أنا لا أسمع شيئاً. ما الذي تسمعه أنت؟

- «نمت.». ونهض الرسام: «نمت شيء ما يجري» قال. وتقدم إلى الباب الزجاجي المفتوح فعبّره إلى الشرفة، ونظر منها إلى الشارع، شمالاً ويميناً، ثم عاد رافعاً كتفيه كتعبير عن خيبة.

نعم. كنا نحن الخمسة اللامرئيين نستشعر امرأة ما، كالرسام، وسط

أصوات القذائف التي أحالت ذلك الصباح إلى كشافٍ خائفٍ للزمن. وكان فكها، بالطبع، أن يُقدِّمَ صديق «أ. دهر» على إصغاءٍ مُستَظْلِعٍ بغربل الذَّوِيِّ الأخرق للحديد عن سواء، حتى أن «أ. دهر» نفسه لم يقل للرَّسام، مثلاً: «أثمت صوت مختلف وسط هذا العويل؟»، ولم يضحك ساخرًا: «وما الذي تسمعه يا أحمق، غير قهقهة المرأة الهاربة من لوحك إلى مجرى المصعد؟».

نعم. أصغى «أ. دهر» بعدوى إصغاء صديقه، لكنه، حين لم يسمع شيئاً، عاد مُقهقههاً برغم حركات الرِّسام وهو يُسَكِّنُهُ، متمتماً: «العمارة المقابلة تحاور عمارتنا». فتطلَّع إليه الرِّسام معاتباً أول الأمر، ثم انجرف مع مَرَحٍ «أ. دهر» فضحك بدوره، قائلاً: «بل أسمع الثياب المنشورة على حبال الغسيل يُغاطب بعضها البعض، بين العمارتين». فردَّ الشاب:

- صوت ثيابنا المغسولة أعلى، وبخاصة السراويل الداخلية.
فأردف الرِّسام: «وصوتُ حَبْلِنَا أرق». ثم ساءل صديقه: «أتعرف ماذا يقول حَبْلُنَا لحَبْل الغسيل في العمارة المقابلة؟»، فأجابه «أ. دهر» بسرعة:

- يقول له أعطني طَرَفَكَ.
- لا. ردَّ الرِّسام: «لا. يقول سأفُضُّ الثياب التي عليك»، وانخرط، من جديد، في نوبة من الضحك، قطعها الرِّسام بإشارة مفاجئة - للمرة الثانية - من يده، طالباً من «أ. دهر» السكوت: «لا تُقلِّ إنك لم تسمع»، فأجابه الشاب:

- ماذا تعني؟ لم أسمع حقاً.
ولمَّا أكَّد له الرِّسام، بإشارات ملحاحية، أنه يسمع شيئاً ما، قال «أ. دهر»:

- سأستجلي الأمر من شرفة شقيقي.
ونَهَضَ واقفاً، فاستوقفه الرِّسام: «أذهب إلى شقتك في هذا القصف؟ لا». لكن «أ. دهر» اتجه صوب الباب، وإذ صار إلى الممر، خارج الشقة، هَمَسَ غامزاً: «لن أموت الآن».

نعم. مضينا - نحن الخمسة اللامرئيين - من خلف الشاب، وصعدنا مثله الدرجات القليلة إلى الطبقة السادسة، ثم عَرَّجْنَا شِمالاً، خطوة واحدة، كما فعلنا. وإذ فتح باب شقته ودخل دخلنا من ورائه، فتقدم، عبر المطبخ إلى

الشرفة المطلة شرقاً، وأثكأ على السياج الحديدي ب صدره، منصتاً دون تحديد، فيما كان دخان رقيق يتصاعد من سطوح البنايات المقابلة، ومن سطح المسجد ذي المئذنة المصابة بقذيفة. ثم ارتدَّ خطوة إلى الوراء، ممعناً النظر في المشهد الذي بدا يلقي بثقله على كلِّ ثقلٍ آخر، في الجهة الشرقية، إذ غطى ظلُّ هائل لسفينةٍ سطحَ المرائب، كأنها العمارات كلها غارقة في الماء. وكانت السفينة شفيفة كزجاجٍ بعيد، بمحركات مشغلة تُصدِرُ طنيناً، وثمت محاربون ألقوا بصدروهم على السياج المحيط بسطحها، ناظرين غرباً إلى المدى الذي سيلقي «أ. دهر» في مياهه - ذات صباح - بمفاتيح قليلة، بعد أربعة أيام ونصف اليوم من انهيار عمارة «أبي كبير».

نعم غالبنا الشك في أننا رأينا العمارة تنهار حين وجدنا أنفسنا، وجهاً لوجه، مع «أ. دهر» على سطح السفينة الحديدي، التي أقلت المحاربين، بمواثيق دولية، إلى الجهة الأخرى من البحر. لكننا استعَدْنَا مشهداً قدَّمه الأحياء المربئون كبرهانٍ على انهيارها. فعلى مقربة من الانقراض المترامية للعمارة، فيما كان أهل الحارة يتحلقون، بين مُساعدٍ على انتشار الموتى أو متفرِّجٍ لأسرٍ، استوقفنا حوارٌ خفيف بين رجل في الخمسين، يقطن شقة في الطبقة الثالثة من «أبي كبير»، وبين ابنه الذي بدا متأسفاً لما سيؤوله لأبيه:

- لم يَبِعْني جريدة.

- فزَمَ الأب شقيقه سائلاً:

- أنفَدْتَ أعدادها؟

فردَّ الابن: «لم يَبِعْني».

ففتح الأب عينيه دهشاً: «يملك نسخاً ولا يبيعه؟ أنحن نستجديها؟». وكان واضحاً أن الرجل قد أعطى ابنه ثمن صحيفة ليشتريها من محل قريب اعتاد على شرائها منه. ودون أن يحاجج ابنه كثيراً في الأمر قال له: «هات النقود»، وهو ينظر نظرة شك إلى وجه العسي، فردَّ الأخير النقود إلى أبيه، محاولاً شرح أمر يتعذَّرُ شرحه:

- أبي. الحكاية أن البائع...

فقاطعه الأب، منادياً على ابنته: «هيه. تعالي»، فاقتربت فتاة في الحادية

عشرة، بدت على شروء: «نعم؟». فناولها الأب ثمن الصحيفة: «اشترى صحيفة من هناك»، وأشار بيده إلى المحل البادي بطرف من واجهته في الجهة الجنوبية.

لكن الفتاة عادت بعد غياب لم يطل، وإذا واجهت والدها مدت إليه النقود: «خذها. لم يسعني». فانفجر الأب صارخاً: «ماذا يجري؟»، فردت الفتاة في هدوء يشويه ارتباك:

- لم ينتبه إلي يا أبي. كلَّمته فلم ينتبه. هزَّزْتُ كُم قميصه فلم ينتبه.

إذ ذاك اندفع الأب، في سورة غضب، صوب محل بيع الصحف، فركضت إليه الفتاة الصغيرة حتى جاورتها، هاتفة: «إنه لا يرانا يا أبي». فتوقف الأب ضابغاً بيده على جبهته كمن تذكر شيئاً: «أناميت». كان عليه أن يتذكر ذلك. والموتى لا يشترون الصحف، بالطبع.

نعم. قدَّم الرجل ما يبدو أي شك. فعمارة «أبي كين» انهارت عليه وعلى أولاده، وعلى «أ. دهر» أيضاً. غير أننا ننظر، الآن، مع الشاب، من الشرفة، إلى الظل الشفيف الهائل للسفينة، منعكساً على العمارات الغارقة في طبقة كالسراب، شرقاً. ثم نتراجع، إذ يتراجع «أ. دهر»، إلى داخل البيت، ونمضي من خلفه إلى الممر الذي ينتهي في آخره، شمالاً، بتلفاز مركون إلى الجدار بين باب غرفة النوم وباب الحمام المتقابلين. ولما يتوسط «أ. دهر» الممر ذلك يستند إلى الحائط بظهره، ثم ينزل، رويداً رويداً، حتى يجلس القرفصاء، وقد انسل قميصه من تحت حزام بنطاله، في انزلاقته. وعندما يستقيم له قعوده، يضم ركبتيه بذراعيه إلى صدره، ناظراً إلى شاشة التلفاز المطفأة في الركن، هناك. وإذا نتأمل، بدورنا، الجهاز المطفأ، نرى في عمق شاشته البيضاء حمسة على كشافة متواجة كأنها يهيمون أن يجلسوا القرفصاء أيضاً، صفّاً واحداً، لصق الجدار الغربي من الممر، فيما يتصاعد نباح مائة كلب من أعماق العمارة؛ من الأساسات الصلبة، حيث يشتغل قتلى المصادفات - في جهة ما - على توزيع أقدارهم في مكابيل كبيرة.

الفصل الرابع

كان الوقت عصراً حين خرج جد «أ. دهر» من بيته، قبل أربعين سنة من مولد الأخير، صارخاً: «خدعني»، وهو يتخذ طريقه عبر السهول إلى جهة لا تهم أحداً، بالضبط كليته التي لن يهتم أحد أين أمضاها. غير أن الصباح، في ذلك الربيع الشاحب، بدا رقيقاً بخطوات الشاب، فلم تضيق الرياح عباءته على ساقيه، ولم تضايق جفنيه، أيضاً.

رغياً ترامى المدى، واثقاً، متصلاً، كأنها يوسع للرؤية تمرات في الأفق ذاته، وكان ثمت بخار خفيف يتصاعد من الأرض، بفعل الشمس القوية التي تذيب الندى الملتصق فوق كل عشبة، أو تحتها، فيتموج المشهد في عيني جد «أ. دهر» دون أن يفقد وضوحه. وفي المشهد ذاك لاح خط داكن مستقيم، ممتد من الغرب إلى الشرق، معروفاً عن نفسه كدرب سلكه الكثيرون حتى تحدد في صرامة. وكان الشاب يقصد الخط الداكن تحديداً، وهو قادم من جهة الجنوب، بدليل أنه توقف قليلاً، مضيقاً بين جفونه ليقدر المسافة الباقية كي يصل، دون تدمر في ملامحه.

حين وصل الشاب، الذي سيكون جد «أ. دهر» بعد أربعين سنة، إلى مقربة أمتار قليلة من الدرب، عرج على شجري كينا، نمتا ملتصقتين فتكثفت ظلُّهما، فجلس مستنداً بظهره إلى جذعها العريض، ممدداً ساقيه أمامه على العشب الذي بدا كثيفاً لصق الشجرتين، أكثر من ذاك الواقع على بُعد منهما، ثم أشعل لفاقة تبغ راقب بعينه اتجاه دخانها، متفقداً حركة الريح ربما، لكنه لم يكن معنياً، في حقيقة الأمر، إلا بالحركة اللولبية للدخان متصاعداً بينه وبين

الأفق الشمالي، وهو يزفر في جرقة: «خدعني».

كان الوقت يمضي رويداً رويداً، والشاب لا يبارح جلسته تحت شجري الكينا، كأنها ينتظر مرور عربة تجرها البغال، أو سيارة «توربيدو»، من تلك التي تتوقف بعد كل فرسخين، فيضطر سائقها إلى إدارة المحرك، ثانية، بقضيب ملتوي يدخله من فتحة في مقدمها، بينما يتجاذب ركابها الثانية، على المقاعد المصنوفة كخطوط في دفتر، أحاديث منداخلة بقطعها خفق اجنحة الدجاجات، أو إجفالة خراف صغيرة يحشرونها تحت المقاعد حشراً.

الظل ينحسر، والشاب على انتظاره. دعاسيق تصعد أوراق العشب الداكنة، وإذ تصل إلى نهايتها تفرد أجنحتها الغمدية المرقطة وتطير. عصفوران من هزار الذيل يحيطان على منتصف الدرب، صجولين في حركتهما، وما يلبث أن يحط عصفوران آخران من فصيلة السُّمن ذي القَنَازع، بُنيَّان من لون التراب، فلما تكشفهما العين إلا إذا ركضا. وقد تقاربت العصافير الأربعة، كأنها وقعت على حبٍّ ما، ومن ثم تناقرت لتطير، بغتة، عجلة بعضها من بعض. حشرة ملتمعة الجناحين، أشبه بالجُعل، سقطت، في طيرانها المنخفض الثقيل، على فخذ الشاب، فتركها تدب على مهل، حتى نزلت عن فخذها واختفت في العشب.

قدما الشاب تصيران خارج دائرة الظل في انحساره. فردتا حداته المطايطتان، بالسيور التي تشد عنقيهما على ساقيه، تسخان قليلاً قليلاً تحت الشمس المفلتة، بينما يُطْفئ عقب لُفافته في التراب الرطب، حيث أطفأ، من قبل، أعقاباً أخرى. ويميل على جنبه متكئاً بمرفقه على الأرض، ساندأ رأسه براحتة، كأنها سيففو.

رياح رحية موجت العشب، لكنها أخلست بالدفع المنبعث من قبل، فبدأ موطن الظل، حيث يتمدد جد «أ. دهر» أكثر برودة. إذ ذاك اعتدل المتمدد في جلسته وهو يلم أطراف عباءته المهملة من حوله، ثم خرج من دائرة الظل زحفاً على ركبتيه إلى ضوء الشمس، وتمدد راضياً أول الأمر، لكنه عاد فجلس في قلق، وهو يعاين الريح التي باتت أكثر هبواً من حوله، فيما انبثقت

غيوم بيضاء صغيرة، متنافرة، لم تلبث أن تداخلت قوافل قوافل، ثم اسربت بطونها، مُغلقة ما تبقى من شقوق بين عجلائها على آخر الشعاعات، فأعتمس ما لم يكن معتماً من قبل.

هكذا عاد الشاب، ملتئماً بعباءته أكثر، إلى الاحتباء بشجري الكينا الملتصقتين. لكن الريح خمدت فجأة، في الآن الذي بعثرت الصمت فيه قطرات مطر كبيرة، نزلت في تودة أول الأمر، وما لبثت أن تلاحقت بعددلة، قوية عجلي، تضرب رؤوس العشب فتلمس الأرض من الثقل، أما الشاب فلم يُلجئته ورق الكينا، فرفع عباءته يغطي بها رأسه المعصوب بحطّة ذات ذؤابات، غير أن الماء انساب على استقامة أنفه، وانحدر من هناك قطرة قطرة لامست شفته السفلى.

وكما بدأ المطر عجولاً انتهى في إشارة خفية، فتقدمت الريح ثانية، مشرّنة باردة، تمهد، بعد برهة، لبرد انهمر دفعة واحدة كأنها من غربال منقوب، مما اضطر جد «أ. دهر» الشاب إلى إلصاق رأسه بساقي شجري الكينا الملتصقتين اتقاء، وعاد فاستقام رويداً رويداً بأثر من التناقص المتسارع في انهمار البرد حتى توقف، فبدأ مشهد العشب فكها باستلقائه تحت طبقة رقيقة بيضاء، بينما بدا الدرب الذي كان بنياً أكثر استسلاماً، (منظوراً إليه من مكمن الشاب)، للجمد، مهتوكاً، لا يدل عليه إلا عريه من أي نبات.

وفي التعاقب المضحك ذاك بزغت الشمس من جديد، أكثر جسارة بعد غلبتها، فتحسس الجلد القيد الحديدي المتدلي من حزامه، وهو يلتفت بعينه غرباً، حيث امتزج صوت محرك آلي بعيد، قادم في اتجاهه، بتمتمته الخفيفة «خدعني».

الفصل الخامس

(عزيزي . لا . في وذي ألا اكتب إليك مبتدئاً بكلمة «عزيزي» ، لكنني في موقف ضعيف يضطرنني إلى مجاملتك . أَقْنَعْتَهُمْ أَنِّي جئت بالسفينة إلى هنا . لك منطلق مُقْنَع . لكن دعني أسألك سؤالاً خافئاً : أين أخفيت المسجد المقابل لعمارة «أبي كبر» ، والبيوت من حول المسجد ، إلى أبعد شارع كان يمكن أن يرى من شرفة شقتي ؟ ها ؟ ليست لدي جرافات . ولقد أَقْنَعْتَهُمْ . لك منطلق مقنع ، عزيزي ، وليست هذه أول مرة تحشرنني في موقع لا أستطيع الخروج منه . بالطبع تعرف الرجل البدين ، ذا اللكنة السوقية ، زوج البدينة ، القاطن الطبقة الثامنة ، من جهة الغرب ، الذي يغلق أنابيب المياه التي تصل الخزان ، فوق السطح ، بالشقق كلها إلا شقته ؟ يدخر الماء لنفسه ابن القحبة . . أنت تعرفه ؟ ها ؟ سألني وهو يلهث على الدرج :

- قل للصغيرة أن تخفف صخبها يا جاري .

رفعت كتفي قائلاً : لم أفهمك .

- ابتك .

- ابنتي ؟؟

فكرت في ضيق : ابتك أنت .

أنت تعرف أن له أربعة أخوة في احد التنظيمات المحلية ، وهو يستمد جسارة سلوكه منهم . لكنك تعرفني أيضاً . اليس كذلك ؟ برغم كل الذي فعلته بي إلا أنك تعرفني . سأغضب العمارة وأساساتها إذا تحدت إلي شخص بلمحة لا تروقي . غير أنني قلت له ، في هدوء ، محسناً إياه بخطئه أولاً (حتى أسرد

عليه كم هو كلب ، بعدئذ) :

- أنا غير متزوج .

فجاراني في الهدوء : أتريد أن أعرفك بها ؟

- سأكون محنتاً لك لو فعلت .

- أنزل معي الدرج .

- سأنزل .

وتركت باب شقتي مفتوحاً ، وأنا أنزل من خلفه في تفكُّه ساخر ، لكنني أغلبي غيظاً من نكته . ولما وصلنا إلى الردهة في مدخل العمارة تلقت يميناً ، وشيئاً ، هامساً : «كانت هنا» ، فازمعت أن أبداً هجومي ، كأن أصرخ : «سأجعلك تشرب كل مياه العمارة التي تسرقها» ، محسكاً بختاقه ، وأنا أدفع ظهره إلى باب المصعد المغلق ، لكن طفلة تبلغ السادسة ، أو السابعة ، دخلت الردهة ، فجاءة ، قادمة من جهة الشارع ، فأشار البدين : «قل إنك لا تعرف هذه ؟» . فاعترضت الطفلة ، وفي نيتي السخرية من البدين ، هاتفاً بها : «يا ابنتي ، ابنة من أنت ؟» ، فتوقفت مبتسمة ، ثم تقدمت فأمسكت بقميصي ، عند الحاصرة ، والتصقت بي ، ناظرة إلى البدين كأنها أمنت شره ، فرفع الأخير كتفيه : «فلتخفف الحلوة صخبها» وغمزني ، ثم استدار صاعداً الدرج ، بينما ظللت في مكاني متمعناً في الطفلة التي رفعت وجهها إلي ، وهي ما تزال ممسكة بي . ابتسمت فابتسمت . هزئت رأسي في توبيخ بخالطه المزاح سائلاً من جديد : «ابنة من أنت يا حلوة ؟» ، فدفنت رأسها في خاصرتي ضاحكة من السؤال . لكنني أبعدتها عني قليلاً ، بيدي ، لأواجهها :

- لماذا تضحكين ؟

- أتريدني أن أبكي يا بابا ؟

فأجفلت . ثم تمالكت نفسي :

- ابنة من أنت ؟

- ابنتك .

ولاذ رأيت الدَّهْشَ على وجهي اقتربت لتدفن وجهها من جديد في بطني، متفادية عقاباً ما، فلم يكن مني إلا أن طوّقت رأسها بذراعي، يا عزيزي. وأنا، عادةً، حين تدفع بي إلى ورطة أتبناها. نعم. ما من مخرج آخر. اتبناها لأخرجك أنت، فيما بعد، لأنني لا أملك طريقتك في الاقناع يا عزيزي.

أتريد أن تعرف بقية القصة مع الطفلة؟ أم كيف انقذت نفسي منهم حين اهتموني بإيجاد ذلك الميناء قبالة عمارة أبي كير، كأنني مسحت مدى الأبنية كله بخروقة من المشهد، من جهة الشرق، كما تُمسَحُ الطباشيرُ عن لوح مدرسة، وسوّيت المياه إلى أبعد بُعْدٍ؟ أتريد أن تعرف؟

كنت أنظر، من الشرفة إلى سطح السفينة الراسية قبالة العمارة، وأنا أكاد ألوح لبعض المحاربين الواقفين هناك، ممن أعرفهم، فارتفعت طرقات عنيفة على الباب. وأنا - كما تعرف - لست ممن تُفرَّج أبوابهم على هذا النحو. صرخت من مكاني: «فلتكسر يدك» وأنا أعني أيّاً كان، ثم فتحت الباب، بعد قفزتين، متحسباً مسدسي لأحكيكم راحتي على مقبضه، فالفيت بنادق كثيرة مصوّبة إليّ. صُعبت. قلت مبتلعاً ريقِي: «ماذا يجري أيها الاخوة؟»، فردّ أحدهم: «ارفع يدك عن مسدسك»، فأرخيت قبضتي عنه، وودعت يدي إلى مستوى وجهي:

- ماذا يجري؟

- السفينة...

- ما بها؟

- من أجاز لك المجيء بها إلى هنا؟

أنت مُقنَع يا عزيزي... مُقنَع خارق. فَمَنْ يقنَع أناساً كهؤلاء أنني جئت بسفينة خرجت من البلد عليها، عائداً بها (لا أعرف كيف) إلى مكان لم يكن ميناء من قبل، فَمَنْ شخص خارق. والمسجد؟ أنا نفسي أتساءل أين المسجد الذي كان محل المياه هنا، وأين البيوت، وأين الجهة الشرقية كلها من المدينة، حيث المدافع التي ترصد عمارة «أبي كير»؟ لكن عليّ أن أثبتني سبباً لظهور السفينة في هذا المكان، بالمحاربين الواقفين على سطحها. لذلك قلت دون تفكير كثير، ولم يكن هنالك متسع للتفكير على كل حال:

- لن تبقى طويلاً.

فتكلم الذي تكلم من قبل: لو أنك بلغتنا بالأمر، في الأقل، لما كان هنالك من إشكال.

قلت: لم أجد أحداً هنا حين جئت بها.

- «كنا هنا» ردّ الشاب نفسه.

سألته: أين؟

فاجاب محتدّاً: نرفع الأنقاض.

- «آية أنقاض؟» سألته.

- «أنقاض هذه العمارة»، قالها، ورفع إحدى يديه يُرَبِّي خدوشاً على ظهرها كَمَنْ يقدم برهاناً على كلامه، فابتسمت دون إبداء سخريّة حتى لا استثيره، متمتة في ثقة: «العمارة في خير»، ورثت بيدي على الجدار، متطلعة إلى السقف ثم إلى الأرض، مقدّماً، بدوري، برهاناً على صلاية ما حولي. لكن الشاب ذاته انفجر متهقهاً، فجاءه أصحابه على نحر عصبي، وما لبثوا أن تحلّقوا برووس متقاربة كأنها يتشاورون همساً، وعادوا فتباعدوا، ليتقدّم مني ذلك الشاب بملامح جادة:

- تدبّر لنا أن نصعد إلى ظهرها...

- أتعي السفينة؟

- نعم.

قلت: «اصعدوها. الأمر هين» وضربت كفّاً بكفٍّ أنهي حكاية هذه الزيارة الموحشة كلها، ولم أنس أن أضيف: «خذوا سلّماً معكم»، وأنا أرد الباب، في هدوء، بيني وبينهم، واثقاً من انصرافهم. وتوجّهت، بعد ذلك، إلى الشرفة، كي أتأكلهم يخرجون من بوابة العمارة، فما خرجوا قط. ولما تعبّت عدت أدراجي إلى الباب ففتحت ظناً مني أنهم ربّما لم يغادروا فما وجدت أحداً يا عزيزي...).

نعم. بغنة توقّف «أ. دهر» عن كتابة رسالته حين دخلت الممرضة إلى

الغرفة التي تحويه مع جريحين آخرين. وكان قد دأب، منذ استعاد قدرته على الانتكاء، بظهوره إلى طرف سريره، على كتابة رسالته التي لم تكن لتنتهي فقراتها إلا بدخول الممرضة، فيدسها تحت الوسادة. وكنا نحن الخمسة اللامرئيين يضيئنا الضجر من الحوار المعاد ذاته، مثل تساقط قطرات المصل في الأنابيب المتصلة بسواعد الجرحى هناك:

- «ما الذي تخفيه؟» تسأله الممرضة.

- «لا شيء» يردُّ.

- «قلت لي الكلمة ذاتها في المرة الماضية» تقول الممرضة.

- «ما المريب في هذه الكلمة؟» يجيب، ثم يفرقان مبتسمين، هي إلى خارج الغرفة، وهو إلى استعادة أوراقه. وكان في ودنا، نحن الخمسة اللامرئيين، أن نتحدث من هو المعني بـ «عزيزي» في رسالة «أ. دهر» لكننا لم نفع على تحديده. وهي رسالة بدأها في اليوم الثاني والعشرين من إصابته بأربع طلقات في فخذه، حين حاول أن يحول بجسده بين صديقه الرسام وأولئك الذين قتلوه. وكان يتوقع تخفيف اندفاعهم إذ رفع يديه صارخاً: «يا إخوان، فلتتحدث». «لكن أحدهم صوب رشاشه إلى فخذي «أ. دهر»، وكان واضحاً أنه لا يقصد إلا تنحيته، بهذه الطريقة القاسية، لما وقف مستغرباً اندفاعهم. وحين سقط أرضاً، أطلق آخرون وابلاً من رشاشيهما على صديقه المستطلع تلك الضجة غير المرتقبة، فسقط بدوره على العارضين الخشبيين، اللذين يحملان اللوحة الفارغة إلا من نافذة في جهتها اليمنى.

عقلاء، وانصاف عقلاء توافدوا على عمارة «أبي كير» لتصحيح سوء التفاهم المميت الذي جرى. فقد اتضح أن المداهمين أخطأوا الشقة، غير أنهم كانوا يتصيدون شخصاً بشارين كثيرين، في الطبقة الرابعة، وشارباً صديق «أ. دهر» الكائن زادا الخطأ خطأ، برغم وجوده في الطبقة الخامسة.

نعم. نحن لنا، نحن الخمسة اللامرئيين، لوقت قصير، أننا سنكون في جل من مصاحبة «أ. دهر» بعد إصابته تلك، بسبب غيبوبته الطويلة. ثم تناقصت آمالنا، برغم أننا لم نكن نعرف أين سنمضي إذا تحررنا منه. وأول

إشارة على خسارتنا كانت همسته المتعَبَّة: «لا. فلتتحدث». واسترسل، بعدئذ، يوماً بعد آخر، لتتسع تلك الجملة: «خذوا اللوحة. النافذة لا تعيننا». «لم يرسم العمارة. لم يرسمكم». وحين أفاق، للمرة الأولى، في اليوم الثاني والعشرين من إصابته، متمالكاً نفسه وجسده قليلاً، طلب أوراقاً وقليلاً، ليبدأ:

(عزيزي. لا. لست عزيزي، غير أنها كلمة لا تعني شيئاً، لذلك أخضك بها. واسمح لي، في بداية هذه الرسالة، بتذكرك أنك أقتنهم بوضع العبوة تحت جباله الاسمنت، أمام العمارة الجديدة التي ارتفعت سبع طبقات غربي عمارة «أبي كير». أتعرف ماذا جئت؟ كنت أقودهم أبها الأحق، كنت أقود أولئك الذين تعرفهم، أعني الشبان ذوي المعاطف القديمة التي درجوا على ارتدائها حتى في الصيف. لم يكن لهم إلمام إلا بحقول القطن. من أرسلهم؟ لا أدري. لكنهم جاؤوا إلى البلد بطرق شرعية، وحصلوا على أذونات بالإقامة فيه، مثلي. وكانوا ينامون ليلهم في مدخل تلك العمارة ذات الهيكل غير المكتمل، وعلى الأرضيات الاسمنتية المتراففة واحدة فوق الأخرى، والغارية من جهاتها الأربع.

كنت فضولياً، فهم ليسوا عمال بناء، أو عتالين، مع علمي أن عمال البناء، والعتالين، قد غادروا المدينة بعد اندلاع هذه الحرب الأكثر رفاذية بين الحروب الكبيرة. ولم يكونوا يغادرون تلك الهياكل الاسمنتية حتى في ساعات السُّعار وطيش قذائفها. أما كيف يعتاشون فذلك أمر ما ساءل أحد نفسه فيه. وقد بادرت بعضهم، ذات يوم، مُستدرجاً إياهم:

- متى ستهون هذا البناء؟

- نحن لسنا عمال بناء.

- «ها» نطقها، مردفاً: «أنتم تنظيم جديد، لكنني لا أرى أسلحتكم»، فردوا بجواب على فكاهتي المبطن:

- لسنا تنظيم. نحن قُطافو قطن ميامون.

بادرتهم ببديهة غير سريّة: «لدينا حقول قطن في قبو عمارتنا»، وتوقفت عن الابتسام، محتمضاً من سخريتي الخفيفة، لكنهم تحلقوا من حولي، مشيرين

بأيديهم ، أو يعميهم ، إلى عمارة «أبي كير» :

- أتعني تلك العمارة ؟

فرددت : «أنا أمزح . كان قصدي أن أتحدث إليكم ، فقط . ولما رأيتهم جادين في النظر إلى عمارة «أبي كير» ، حَشَشْتُ قِطْنِي على معاورة أقل مزاحاً ، وأقل إشكالاً :

- ما من حقول قطن في البلد . ماذا جاء بكم ؟

- «القطن» ، ردَّ بعضهم .

- «هناك من غشكم ، إذا» قلتها .

- «لا . كنا نعرف أن الحقول قريبة مِنَّا ، لكننا لم نعرف أنها على هذا القرب» ، قالوها مشيرين إلى عمارة «أبي كير» .

لقد أدركت يا عزيزي ، في تلك البرهة ، أنك أقتنعهم بأمر القطن ، ووضعتني أمامهم في صورة الدليل . وأنت تعرف ، بالطبع ، أن عليّ ، في موقف كهذا ، تبني ما تُقنِّع الآخرين به ، فقلت لنفسني : «لا بأس . لدينا حقول قطن في قبو العمارة» ، وتمنَّعت في أقرهم إليّ :

- كم أنتم ؟

- ثمانون .

- أنتم قليلون . لكنني قد أتدبر معكم أناساً آخرين .

فردَّ الذي أمامي : «لا ضرورة لذلك . سنبعث من يأتي بنسائنا في يوم واحد» .

همست في استغراب : «نساؤكم ؟» ، واستدركت فقلت : «لا بأس» ، وقد مُتُّهم مشيراً أن يتبعوني فبِعُونِي ، وإذا وصلنا إلى مدخل «أبي كير» أشرت عليهم بالنزول إلى القبو فنزلوا ، واحداً وراء الآخر ، في صمت لا يُسمَع فيه إلا حفيف معاطفهم الثقيلة ، بينما صعدت الدرج إلى شقتي ، كأنها أديت ما عليّ ، وقسمت الوقت ذاته بيني وبينهم .

نعم تلك كانت المرة الأولى التي يكتب فيها «أ . دهر» ، وقد رأيناه متجهماً حين أنهى آخر جملة ، فنضد أوراقه في نعب ، ووضعها تحت الوسادة ،

ليتحسس فخذه المغلقتين بالجيس . ثم نظر إلى أحد السريرين اللذين يجاوران سريره من جهة الشمال ، فابتسم للشخص الملفوف رأسه إلا عيناً واحدة ، وموضِعاً صغيراً في زاوية من فمه يسمح بمرور أنبوب المصل . ثم غمز ، فاهتز جسد ذلك الشخص . وثمادي «أ . دهر» فأخرج له لسانه ، فاهتز سرير الشخص . فاستخرج «أ . دهر» ورقة من تحت المخدة ، ثم كورها ورمى الشخص الممدد بها ، فَعَلَّتْ هممة غتقة من بين اللثائف البيضاء المحكمة على كل رأسه .

نعم . كان ذلك هو داب «أ . دهر» كلياً أنهى فقرةً ، أو نصف فقرة في رسالته : يتفكَّه بالجريح الذي لا يستطيع إلا المهمة من غيظه . ولربما تمادي فسرَّ لذلك البائس ما لا يُتمُّه في الرسالة : «اسمع يا ابن . . ابن من أنت ؟» ويرفع رأسه ملقياً ببصره إلى الجريح الثاني ، البعيد عنه : «يا أبا السَّعْلة ، ابن من هذا ؟» ، فيسعل ذلك الشاحب ، الذي شدَّ رأسه بسلسلة إلى قضبان سريره حتى لا يحرك رقبته . وهو يسعل أبداً . يسعل حتى تحفظ عيناه ، دون أن يتحرك جسده قط ، فتسعه الممرضة ، من وقت إلى آخر ، بحقنة تجعل نفسه منتظماً .

«ابن من هذا ؟» يوجَّه «أ . دهر» سؤاله إلى رجل السَّعْلة ، فيميل الأخير بعينه ، وحدهما ، صوب الشاب ، مبتسماً ابتسامة لا تُرى ، وهو يتمتم : «إنه ابن هذا» ويشير بيده الحرة إلى ما بين فخذه ، فيضحك «أ . دهر» بقوة ، بينما تُسمَع طقطقة الجيس على جسد الجريح الذي بينهما ، كأنها سيتفجَّر لحمه من الغضب . إذ ذاك يتابع الشاب مخاطبة ذلك البائس ، الذي يحذق بعينه الوحيدة ، من ثقب قناعه الأبيض ، في يياض السقف : «اسمع . كنا نستطيع أن نجمع من مدخل عمارتنا ، كل صباح ، قطناً يكفي لصنع فراشين» ، ويتنحى : «ويكفي ضياداً لثلاثمائة جريح مثلك» ، ثم يفتح يديه مخاطباً فراغ الغرفة : «جَمع سكان العمارة ، في هذات القصص ، لهم ، ولجيرانهم ، ولجيران جيرانهم ، ما يكفيهم ، ولم ينته القطن . فاض مدخل العمارة ، ثم فاضت الأدراج به ، في الطبقات الثاني ، ثم زحف القطن إلى الشقوق ، فاضطربنا إلى

فتح أبواب المطابخ المطلة على الشارع، حتى ينحدر القطن منها، عبر الشرفات، خارجاً، فلا نخنق، وتوجه إلى الجريح الغارق في الجبس، من جديد: «ماذا تفعل في وضع كهذا؟ أنا أبيض. الشفة بيضاء. الدرج أبيض. الشرفة بيضاء. الشارع أبيض، وقبو العمارة... لا أعرف ماذا يجري هناك. أهو أبيض أيضاً؟ قل لي ماذا تفعل يا ابن...»، ويغمز الجريح ذا السعال، الذي يبادل جلته بإشارة من يده إلى ما بين فخذيه، كأنها يقول «ابن هذا»، في تفككه شاحب.

«نعم يا جميل» يقول «أ. دهر» للجريح الغارق في الجبس، مضيقاً: «كان علينا أن نبعد أولئك الشانين عن قبو العمارة، بطرق مهذبة، لكن عزيزي... أعني عزيزي الذي لا تعرفه، وضع عبوة تحت جبالة الإسمنت، في مدخل العمارة ذات البناء غير المكتمل، حيث ينامون عادة، فاختصوا. لا أعرف إذا كنت متواطئاً في ذلك، لكنني، أقسم بالجبس الذي عليك، لم أفكر إلا في توجيه ملاحظة إليهم: «يا اخوان، لا نريد قطعاً خارج القبو. أنتم تضايقون الحي». نعم. لم أفكر بأكثر من ذلك. وقد قصصتهم، مساءً إلى هيكل الإسمنت غير المكتمل، لأبلغهم ذلك:

- «أعرفون» وتحننحت: «أعرفون أننا لا نريد هذا القطن؟»
- «أي قطن؟» رد أحدهم. فضحكت: «أين تحتزنون ما تحتزنونه؟»
سألت.

- «نحني ماذا؟»
- «تحتزنون الرُفْت. أين تحتزنون القطن الرُفْت؟»، فرد الشخص ذاته:
- نحن لا نحبي القطن، بل نجنيه.
قلت: «أعرف أنك تبول عليه أيضاً. إحفظه في القبو، فقد ضقتنا بالذي تنثرونه على درج العمارة ومدخلها»، فابتسم في الظلام:

- أنزل إلى قبو العمارة لتعرف السبب.
قلت: «لن أنزل. أنا أبلغك»، فرد:

- أنزل.

- لا.

- «بل ستنزل»، قالها في هدوء، فرددت في هدوء مثله:
- «تعال لأريك حقول قطن أخرى، يا صاحبي، في قبو هذه العمارة أيضاً»، فنهض مستغرباً:
- «هذه العمارة؟»

- «نعم» قلته، وتقدمت إلى مدخل العمارة غير المكتملة، في الظلام، كأنها أعرف الدرج المضي إلى قبوها، لكن عزيزي...
وتوقف «أ. دهر» عن سرده، ليستخرج أوراقه من تحت مخدته، هامساً:

«اعذرني» وهو يغمز الجريح الغارق في الجبس، ثم انكب بقلمه ليكتب:
(عزيزي، كنت أقود أولئك الشانين إلى القبو حين انفجرت عبوتك تحت جبالة الإسمنت ذات الحديد المغلف بقشرة من الرمل الحش. وفي لحظة صرت خارج مدخل العمارة. صدفتني أنني طرت، وإذا هويت كان الموقع الذي سقطت عليه ليئاً، والمكان أبيض أغرورقت من وهجه عيناى. نعم. لوهلة تبادر إلي أن القطن قد اجتاحت كل شيء، لكن البرودة، التي دفعت بي إلى أن أنفض يدي مما علق بهما، وضعتني أمام الثلج وجهاً لوجه. وأنا، يا عزيزي، لم أفاجأ، وبى قدرة على التفكر في مخرج، على الفور، دون الاستسلام للذهش وأسئلته. والأمر، على أية حال، بسيط: كنت في مدخل عمارة، صيفاً، وألقى بي انفجار عبوتك إلى حقل من الثلج. إذاً هذا هو المراد. فليكن. وقد كدت أضحك، وأنا أتففس الهواء المذغذغ ملء رئتي، لولا بعض دم تحسسته نازلاً، في سخونة، من صدغي الأيسر. غير أنني وجدت على مقربة مني مجموعة مدججة بالآلات وأحجار ما كدت أقرب منها حتى عرفت أنها «لجنة الخبراء».

أنت تعرف، بالطبع يا عزيزي، «لجنة الخبراء» الصامتين، الذين قدموا لتقصي الحقائق في المدينة، ومعهم مترجمون بلغات عديدة. إنهم بدناء، تكاد تختفي صيوتهم تحت ظلال قبعاتهم، ويحملون عصياً قصيرة كالتى يحملها عسكريون متوسطو الرتب. ولما دأبتهم أشار إلي أحد المترجمين:

- «أنت من عمارة أبي كبير» .
 فقلت وأنا أنظر إلى دم بدأ يجفّ على أصابعي : «نعم» ، وأردفت منطلقاً
 إليه : «رايتك مراراً من قبل» ، فهزّ رأسه وغمزني قائلاً :
 - «إنهم يحبون الحقائق» . والحقائق كثيرة هنا .
 فقلت : «تعني هناك» ، وأنا أشير بيدي إلى جهة ما خلف ظهري ، كأنها
 أعني المدينة التي كنّا فيها ، وليس هذا الحقل الثلجي ، فأبدى ذلك الترجمان فهماً
 لإشارتي ، قائلاً بدوره :
 - لا فرق . الحقائق كثيرة هنا ، أيضاً .
 فسألته : «يوغنت . . أعني كيف . .» ، فقاطعتني :
 - تعني كيف انتقلنا إلى هذا المكان ؟
 - «تقريباً» قلت ، فأكمل الترجمان : «وما هي «تقريباً» هذه ؟» ،
 فابتسمت :
 - بالتأكيد تسألت كيف انتقلتم إلى هنا ، وماذا تفعلون ؟
 - وماذا جاء بك ، أنت ؟
 - إنها حكاية صغيرة .
 فابتسم لي ، وهو يضيّق ما بين جفونه :
 - «الحقيقة مقسّمة بين الأمكنة» ، وأردف مجيئاً على سؤال السابِق : «إنها
 حكاية صغيرة أيضاً» .
 فسألته ممازحاً : «وما الذي جمعتموه حتى الآن ؟» ، فأشار إلى البدناء ،
 الذين كانوا منصرفين إلى ههناهم : «إسألهم» .
 - «أنت الترجمان» قلت ، فردّ :
 - «سيفهمونك . إنهم يفهمون دائماً» .
 سألته : «أنتظهم يعرفون حكاية السفينة ؟» ، فسألتني بدوره : «آية
 سفينة ؟» فشرحت له : «تلك الراسية قبالة عمارة أبي كبير» ، لم يكن ثمت ميناء
 هناك . غادرنا المدينة عليها ، وإذ بها ترسو في المكان الـ . . . ، فقاطعتني :
 - «أوه» قالها كأنه يتساءل .

عاجلته : «المسألة أكبر من أوهوه» ، فردّ :
 - «لا . المسألة صغيرة» .
 فعذت بسؤالي إلى أوله : «أهم يعرفون حكايتها ؟» ، فردّ :
 - حكاية السفن كلها .
 - «آية سفن ؟» ، سألته .
 - «السفن التي عادت» ، قالها وتطلّع إليّ متخصّصاً :
 - أظننت أنها السفينة الوحيدة التي عادت ؟
 فأومأت برأسي : «أهناك غيرها ؟» ، فردّ : «أوه» في ضجّر .
 لكنني استرسلت بحمّي فضولي : «وعليها محاربون ؟» .
 - نعم . من لحم ودم ، ويدخنون .
 فرجعت أسأل : «أهم ، أيضاً ، يبقون على ظهور السفن ولا ينزلون ؟»
 - نعم .
 - «ولماذا لا ينزلون ؟» سألته متضايقاً ، فردّ في ثقة :
 - «ولماذا ينزلون ؟ لقد اكتملت الحقيقة» ، ورفع إصبعه هامساً في أدب :
 «اعذرني» ، ثم أُنْجِه إلى حيث تحلّق الأشخاص البدناء ، لينخرط ، مع المترجمين
 الآخرين ، في حديث تتخلّله إشارات إلى الأفق القريب والبعيد ، وإلى
 الهضبات الوطينة والعالية .
 ورفع «أ» دهر» قلّمه عن الورقة ، وقد باغته صوت صادر من الجريح
 الغارق في الجبس ، فحدّق فيه ملياً ، ثم جاوزه إلى الجريح الآخر ، المشهود له
 بسعاله ، فسأله : «أظنني سمعتُ صوته» مشيراً إلى رجل الجبس ، فأغمض
 الجريح ذاك عينيه معاً موافقاً . فعاد «أ» دهر» يتطلّع إلى الغارق في الجبس :
 «ماذا تريد أن تقول ؟» ، ثم رفع عينيه إلى رجل السعال صارخاً : «فبخلعوا هذا
 الجبس عن رأسه حتى لو مات ، بحق الله» ، واستدرك فأضاف : «أن يقول
 كلمة وهو يموت ، أفضل من بقاءه أبكم تحت هذا الـ . . .» ، وبحث عن كلمة
 مناسبة لوصف فتاع الجبس ، لكن رجل السعال أشار فجاءة - وهو يقاطعه -

إلى ما بين فخذه، كدابه حين يسأله الشاب «أين من هذا؟» أي يشير إلى إحليله، مخدداً. وهنا انفجر «أ. دهر» مقهقهاً من حركة رجل السعال، ثم توقف بغتة، متأوهاً من ألم طارئ، اعترى إحدى فخذه: «قحبة» قالها وعض على أسنانه، وعاد فكّر: «قحبة هذه الساق».

نعم. كنا نستطيع، نحن الخمسة اللا مرتين، أن نترجم ألم الرجل الغارق في الجبس وهو يحاول أن يتحرّر، ولما أدرك عقم الاعتماد على أعضائه الضعيفة لتحطيم طبقة الجبس قرّر، في صرامة، أن يستسلم استسلاماً لا رجعة فيه، فاتحدر بأنفاسه، ويجسده، وبالجبس، وبالخيالات التي مهيأت له في نوبات الحمى الطويلة، إلى الأبدية التي بلغها بشهقة واحدة، تردد صداها في حديد الأسيرة الأخرى. وحين نقلوا الجثة البيضاء من الغرفة، دون عناية أو رفيق، بدا «أ. دهر» كئيباً، بينما اغرورقت عيناه رجل السعال المحدثين في السقف، وهو يتمتم للمرة الأولى، أو هكذا خيل إلى «أ. دهر»: «أسيدفونه بالجبس الذي عليه؟»، فالتفت إليه الشاب، متأثلاً رجل السعال وصوته معاً، ثم أطرق قليلاً ليعود فيسحب أوراقه، قائلاً: «الحظة من فضلك»، فهمهم الآخر في سخرية هادئة: «إلى أين أنت ذاهب؟».

- «إلى الترجمان» ردّ «أ. دهر».

- «أجاءوا بترجمان إلى السرير الشاغر؟»، سأله رجل السعال، فلم يردّ

«أ. دهر» بل زمّ شفتيه وهو يكتب:

(عزيزي، لقد تقدّست بدوري من خلف ذلك الترجمان النحيل، ذي العينين المرهقتين، حتى صرت على بعد شبر منه. وأنا أهس: «عفواً...» لألقت نظره فالتفت لي فardاً أصابع يده كأنها يصدني عن التقدّم: «انتظر قليلاً»، وعاد يكمل حديثاً خافضاً مع واحد من أولئك الخبراء، فيما توزّع المترجمون الآخرون على الجتمع، كل ثلاثة، أو أربعة، معاً، وهم يتحدثون الحديث الخافت ذاته، بالكثير من حركات الأيدي، والاستدارة بالرووس والإيماء بالأعين إلى الجهات، فيما تصاعد بخار خفيف من الأنوف والأفواه بين كل مقطع من الكلام والذي يليه.

لقد انتظرت أن ينهي الترجمان حديثه بناءً على إشارته، فوضعت يدي تحت إبطي، دون أن أشعر بأي برد إلا فيهما، فأنا، يا عزيزي، قدّمت إلى الحقل الثلجي بثياب الصيف الخفيفة، وإذا تأملت الآخرين وجدتهم في ثياب صيفية أيضاً، إلا أنهم كسوا أيديهم بقفازات بيضاء.

أنت تورطني يا عزيزي في المواقف، عادةً، وعلى أنا أن أشرحها لك. فأنت لا تصل إلى شيء إلا بي. نعم. أنا رهائنك. ذلك ما تعرفه وأعرفه. والحق أن في مستطاعي إطلاق عنان الخسارة لهذا الرهان، لكنني أجاهد كي أربح، حتى أورطك، شرطاً بعد آخر، في المراهنة عليّ إلى ما لا نهاية له. لذلك ارتأيت أن أنتظر الترجمان، برغم ما أثارته إشارته فيّ من الإمتعاض. فأنا لم أعود صدأ بهذه الطريقة، وبخاصة حين لا أكون في حاجة إلى جواب.

إنني، بحق، لست في حاجة إلى جواب الترجمان، ومع ذلك تراجعمت خطوة لأترك له إنهاء محادثته الخافتة. وإذا استرعى بصره وقوفي، بعد الحظات، كأنها كان قد نسيتي، تقدّم صوبي كمن سيني جملته اعتراضية، سائلاً: «نعم؟».

- «أعرفون كيف انهارت عمارة أبي كير؟» سألت، موجّهاً بصري إلى حلقة الرجال البذناء، فتسوّرت عيناه اللتان كانتا عجولتين، من قبل، عليّ:

- «أتريدني أن أسألكم؟» قالها.

- «نعم» أجبت.

- «الانهارت العمارة، حقاً؟» سألتني.

- «كنت هناك»، أجبت.

- «كنت هناك، ونجوت؟» سألتني.

- «لا»، أجبت. فانفجر ضاحكاً، متمتماً من بين شذقيه: «أكنت هناك

أم لا؟»، فأجبت: «نعم. كنت هناك»، فتفرّس فيّ، قائلاً وقد كنتم انفعالة الساخر: «لم تنج»، فأجبت: «لا أعرف». وهنا ازداد فضوله الممتزج بالمداعبة، فسألني:

- «إستمعت بانهارها؟».

فاجبته: «أستطيع أن أصف الذي جرى، وعليك استخلاص ما

تريد».

غير أنه حوّر المحادثة في لباقة، سائلاً:

«لا تهتم. نحن إلى جانب الحقيقة هذه، حيث تقف»، وأشار إلى

قدمي، فابتسمت من طريقتة الساخرة الرصينة، قائلاً: «هذا ليس كل

شيء»، فأجابني:

«أعرف».

«تعرف ماذا؟» سأله.

«الحقيقة التي قريك»، رد. فالتفت، ساخراً، من حولي، مردداً:

«أينها؟ أين فردة الخذاء؟»، فباغتني: «لا تبحث عنها».

«ولم لا؟» سأله. فرد: «إذا لم تجد الفردة الأولى من الخذاء ستستغي

عن الثانية». فقلت: «ذلك منطقي». ماذا أفعل بفردة واحدة؟».

«أشرت إلى الحقيقة التي قريك» قال، مردفاً: «لا إلى خذاء».

فاجبته نصف ساخر: «ذكرت الخذاء مازحاً، وأنا أعني الحقيقة».

وتوقفت متفرباً فيه: «أغابت عنك دعائتي؟»، فرد: «لا. لكن عليك البحث

عن الحقيقة في الجهتين، في الوقت ذاته»، فاسترسلت مداعباً برغم وطأة

الحديث: «تعني أن أجذ الفردتين معاً؟»، فرد: «نعم. حتى تحتاز الحمى التي

فيك».

ابتسمت، ثانية، يا عزيزي. بل ضحككت، سائلاً:

«لماذا اجتاز الحمى بحدائين في قدمي؟ تكفي حقنة بنسلين».

فرد الترجمان: «الحقيقة هي، أيها الجار، أن تحتاز الحمى شيئاً، الآن».

ثم قاطعني دون أن أنفوه، سائلاً: «صف انهيار عبارة أبي كبير»، والتفت إلى

الوراء داعياً أولئك الأشخاص من خلفه حتى يتحلّقوا حولي.

فبادرت: «أتريدني أن أصف انهيارها لك، أم لهم؟»، فرد: «لهم».

قلت: «قلت لي إنهم يعرفون...»، فرد: «نعم. لكنهم نهمون، ويحبون

التكرار».

قلت: «لماذا يعرفون الحقيقة، فلماذا يبحثون عنها؟».

قال: «دعني أشرح لك قليلاً. أعني»، وتلمّس جيبه، قبل أن يشير إلى

منفرد الأسارير: «الحقيقة هي التكرار»، فرفعت كتفي دليل ضجر من

إجاباته، دون أن أبدي انفعلاً على وجهي، لكن عن لي سؤال مباغت:

«لماذا يريدون هذه المقامات في أيديهم؟»، قلت ذلك حين اكتملت

حلقة الخبراء من حولي، فرد الترجمان النحيل، ذو العينين المرهقتين:

«لا يريدون أن يتركوا بصماتهم على الحقيقة حين يلمسونها».

بالطبع، يا عزيزي، لم أتوقف عند إجابة الترجمان، لأنني كنت متصرفاً

إلى البحث عن مدخل لوصف انهيار عبارة «أبي كبير» أمام جمع بدا كمن يمنحن

الآخر بنظراته الصامتة. فقلت، أول ما قلت: «لم أحس بشيء». كنت أهيئ

في هدوء كالقطن إلى الفراغ»، وفركت أصابعي بعضها ببعض لكي أقدم

برهاناً على اللبونة: «كالقطن. كالقطن». ثم توقفت متمعناً في الوجهة قليلاً،

فوجدتها خالية من أي تعبير إلا النحديق في، فخطر لي أن أبدا الشرح على نحو

آخر: «ليس دقيقاً أنني لم أحس بشيء». هجست الأمر بإحساس غريب.

لمسته، هكذا، كالقطن»، وعدت أفرك أصابع يدي الواحدة بعضها ببعض،

تدليلاً على نعمة ما. غير أنني استدركت ترددي لكلمة القطن في الوصف،

فجاءتني أن أجذ لفظة أخرى، هامساً: «أعني أنني لمست الأمر ك...»،

فقاطعتي الترجمان النحيل: «لا تتوقف. استمر، فقد أحسوا الذي تعنيه».

لقد شجعتني كلامه، لكنني بقيت حذراً في الوصف: «لا أعرف،

تحديداً، ما الذي بدأ أولاً: صوت الانفجار أم الظلام»، وأنا أسمع نبضي يعلو

في امتحان الوصف هذا، فدرت بيسري يميناً وشمالاً لأنغلب قليلاً على ما بي،

مضيفاً: «لن أطيل عليكم... انهارت العبارة، حين...»، فقاطعتي الترجمان

ذو العينين المرهقتين: «لحظة من فضلك»، قالها لي كمن يحكي شخصاً، ثم

التفت إلى الجلسج مخاطباً: «لن نرهقه في وصف انهيار العبارة»، وأشار إلى،

مضيفاً: «إنه متردد في كونها انهارت عليه».

فصرخت: «أتشككني في أمر أعرفه؟».

فرد دون أن يلتفت إليّ: «لا أشكك في ما تعرفه، بل اسع إلى ضمك إلى اللجنة لتتقصى معاً حقيقة انهيار عمارة أبي كبير».

قلت في عصبية مكتومة: «انهارت العمارة. اندثرت. نفخ الله على أساساتها، ولم يبق في أعماق الأرض التي أقيمت عليها إلا نباح الكلاب»، فابتسم وهو يلتفت إليّ:

- «الحقيقة هناك» قال، فابتسمت بدوري، سائلاً:

- «تعني أنها وسط النباح؟»، فردّ:

- «ولم لا؟».

ولم لا يا عزيزي؟ أنا أيضاً أسأل نفسي ذلك، لكنني أجد الافتناع بالامر صعباً، فالحقيقة، كحقيقة، معرفة مربكة. أعني قد تكون مربكة. بل لا أعرف كيف أصفها، غير أنها شيء ما من قبيل الإستنطاق: إنها في جهة، وأنت في جهة، والجذل على أشده. قد تسألني «جذل حول ماذا؟». لا أعرف. ثم أنني لا أعرف من يستنطق الآخر. غير أن الترجمان اقتحم شرودي:

- بم تفكر؟

قلت: «في قلقي»، فأردف: «قلقتك مم؟». قلت: «من الحقيقة».

ابتسم الترجمان فأزدادت الخطوط تحت عينيه. ثم مدّ يده إلى كتفي فرايت القفاز الأبيض يغطيها، لأول مرة، في حين أنني كنت انتبهت إلى أيدي الآخرين. همس:

- الحقيقة لا تقلق.

قلت كمن يشحد ذكاءة: «حين تفكر في أمر كهذا فإنه يُقلِّقنا». فردّ:

- الحقيقة هي ما لا تُفكر فيه.

وأنا يا عزيزي. ثم لم أ. دهره أوراقه، فجاءة، حين دخلت الممرضة يصحبها شخص آخر، وهما يدفعان عربة صغيرة ذات عجلات مفصلية، تدلني من قضيب معدني طويل في إحدى زواياها كيس مليء بالدم. ولما اقتربا منه أبدى ذهشة: «لن هذا؟»، فردت الممرضة وهي تركزُ العربة إلى

جوار سريره: «لنك». فتقوس صوب الأمام، في سريره: «حدث الله أنني تخلفت من كيس المصل، فلماذا هذا الدم؟»، واستدرك: «لست في حاجة إلى عملية على ما أعتقد. أليس كذلك؟» وحذق برية في وجه الممرضة يستنطقها، فابتسمت مطمئنة: «لا تخف. إنها عملية تحديد دم روتينية»، فصرخ: «ما به دمي؟ أهناك سرطان ما؟». غير أن الممرضة دفعته بيدها إلى الخلف، وهي تصرخ بدورها: «خفض صوتك، واستلق»، فاستلقى وهو يعرف أن ألم ساقيه سيمنعه من القيام بأية حركة. وحين أشرفت المرأة عليه، من فوق، طالبة أن يمد ذراعيه معاً على جانبيه، سألهما في انكسار: «بالله ما به دمي؟»، فابتسمت وهي ترد خصلة من شعرها، غير المغسول من أيام، خلف أذنها، هامسة: «أسعفتك، حين جاءوا بك، بدم من الذي تبرع به أناس تلك اللجنة التي تتقصى الحقائق»، وتساءلت مرفضة: «ألا تتوهم»، في بعض الأحيان، أنك انضمت إلى اللجنة؟»، فتداوك أ. دهره ذهشة من سؤالها المتحكم، مبدئاً استغرابه: «أنا؟ إذا أردت رأيي الشخصي، أحب الانضمام إلى المترجمين»، قالها دون بداية، فضحكت الممرضة من اعترافه المبطن، قبل أن يستدرك، هو، أنه أوقع نفسه بنفسه، وإذا انتبه إلى زلته، كانت الممرضة تشرح له: «كلهم ينضمون إلى لجنة نقصي الحقائق. أصني هؤلاء الجرحى الذين أسعفناهم بالدم الذي تبرعت به الجماعة تلك؛ جماعة البدناء. ومنهم من يسألنا عن السجلات التي كانت في حوزته، لما دخل المستشفى». وعادت إلى ضحكها: «سجلات، وحقائق. أما أنت.»، واتكأت بيدها على طرف السرير متبينة أن تسقط عليه من شدة القهقهة: «أنت تريد الانضمام إلى المترجمين»، ونظرت إلى الذي دخل معها بالعربة المحملة بكيس الدم: «هذه حال جديدة بين حالاتنا»، والتفتت إلى أ. دهره ثانية، متهاككة نفسها: «أأنت ترجمان؟».

- «لا»، رد الشاب الجريح.

- «ولماذا تريد الانضمام إلى المترجمين، إذا؟»، سأله الممرضة.

- «لأنهم يحتفظون بالحقيقة لأنفسهم»، رد أ. دهره.

- «كيف؟» سأله المرأة.
 - «لأن الترجمان هو الوسيط المُستَمع بفكاهة المخاطبات» قال الشاب.
 - «ألا يَضْجُر؟» سأله الممرضة.
 - «الضجر هو الموقع الذي تترصدنا الحقيقة منه»، رد الشاب.
 - «أنت تريد أن تحتفظ بالحقيقة لنفسك، كما تقول»، قالت الممرضة.
 - «نعم»، رد «أ. دهر».
 - «لماذا يتقصصونها؟ أعني لماذا تريد أن تتقصصها أنت، إذا كانت لك وحدك؟» سأله الممرضة.
 - «نلك هي المتعة. أعني أن تقصصها، وحين نصل إلى بعضها لا يعود لدينا ما نقوله»، رد الشاب.
 - «انتحونك إلى بكاء؟» سأله المرأة مزديرة أجويته الفكهة.
 - «لا»، رد «أ. دهر»، ثم غمزها، مضيفاً: «تصير الحقيقة حقا».
 - «هذا ترجمان فصيح» خاطبت الممرضة شريكها في العمل - ذلك الصامت المتبسم الواقف على خطوتين منها، وعمدت، في حركة هادئة ماجئة، إلى رفع ثوبها عن فخذها، أمام عيني «أ. دهر»، حتى أطراف سروالها الداخلي المسور بالدانتيل، هامسة:
 - انظر.
 - «أنا أنظر» رد الشاب.
 - «مارأيك؟» سأله.
 - «رأيت؟»، رد الشاب في تساؤل، والوى برأسه صوب السرير البعيد، الذي يتمدد عليه رجل السعال، فخاطبه بصوت عال:
 - هيه... ما رأيك أنت؟
 فرد الجريح الآخر، ذو الرأس المشدود بسلسلة إلى طرف السرير: «رأيت من رأيك».
 - «أترى ما أراه؟» سأله «أ. دهر» مازحاً.
 فرد رجل السعال: «أرى هذا»، وأشار بيده، كمادته، إلى إحليله،

فقهره «أ. دهر»، ملتفتاً إلى فخذ الممرضة تحديداً:
 - «أقترني»، قالها، فردت:
 - تحيلها إذا انضممت إلى أصحابك المترجمين.
 - «ولماذا تحيلها؟» سأله «أ. دهر» فأجابت:
 - «لأن لجنة تقصي الحقائق، تلك، لا تسجل أموراً من هذه»، فسأله الشاب ثانية:
 - «آية أمور تعين؟»، فردت مشيرة إلى ما بين فخذها:
 - «هذه»، وأسدلّت ثوبها غامزة «أ. دهر»، مضيفاً: «تحيلها».
 سينفعلانك»، ثم استدارت لتخرج من الغرفة، فيما بقي شريكها الصامت المتبسم مشرفاً على تغيير دم الشاب.
 نعم. دم يدخل ودم يخرج. خدر كالدغدغة يتمدد ويتقلص في شرايين «أ. دهر»، بينما تشرف، نحن الخمسة اللامرئين، على الغرفة كهواية تنبض نبضاً في فراخ أبيض تقطعه أنابيب دقيقة يجري فيها السائل الحبيث الآخر.
 «آه لو توقفت» نقول نحن. بات كل شيء مضجراً، لكن صوت رجل السعال يرتفع فجأة:
 - عذ إليهم أيها الأحق.
 فبرغت الشاب المستسلم إلى عذوبة ما:
 - «أخاطبني؟» سأل «أ. دهر» جازة.
 - «لست أخاطبك أنت: أخاطب ما تبقى منك»، رد رجل السعال، فسأله الشاب بامتعاض:
 - «متى ستصير جاداً في كلامك، لمرة واحدة؟». فرد جاره الجريح:
 - أنا جاد. عذ إليهم يا أحق.
 - «إلى من؟» سأله «أ. دهر».
 - «إلى المترجمين»، رد رجل السعال.
 - «وماذا تعرف عنهم؟» سأله «أ. دهر»، فأجابه جاره الجريح جواباً في غير سياق:

- هذا الدم الذي يعطونك .
 فقاطعه «أ. دهر» : «ما به؟» فرد جاره : «يردك إلى المناهة» .
 - «أية مناهة؟» سأل «أ. دهر» ، فرد رجل السعال : «إلى أن تبقى في موقعك الأخرق على الشرفة» .
 - «أتعني شرفة شقتي؟» سأل «أ. دهر» ، فرد الجريح الآخر :
 - «نعم . إلى متى ستظل متفقداً تلك السفينة من الشرفة؟» ، فتملاه الشاب سائلاً في هدوء :
 - «أتعرف أنت ، أيضاً ، بأمر السفينة؟» ، فرد رجل السعال متأقفاً :
 - «ضجرت من ظهورك اليومي على الشرفة كأنك تُحصينا» ، فسأله «أ. دهر» :

- «أحصي من؟» ، فرد جاره الجريح :
 - نحن . أعني أنا والآخرين . كنت على ظهر السفينة .
 كاد «أ. دهر» أن يقفز عن سريره ، وهو يصرخ : «ولماذا لا تقلعون؟» . أنا كنتُ على ظهرها أيضاً . غادرنا في اتجاه الغرب ، وإذ بها ترسو أمام عمارة أبي كبير في الشرق» . واعتلى وجهه أسى شفيف وهو يكمل : «اختفت البيوت في الجهة الشرقية من العمارة . اختفى المسجد بطوله وعرضه ، لتظهر المياه ، ما الحكمة يا ابن الد . . .» ، وتأمل جاره الجريح : «ما الحكمة في رجوع السفينة إلى هذا المكان الذي لم يكن ميناء قط؟» ، فعلت ابتسامة وجه رجل السعال المتجة إلى السقف :

- «لأخذ السفينة ما نسييت أن تأخذ معها» ، قالها في برود .
 - «وما الذي نسيته؟» سأل «أ. دهر» ، فرد رجل السعال :
 - لتكتشف هذا عليك أن تنضم إلى المترجمين أيها الأحمق .
 - «وما الذي سأكتشفه أيها السهمل؟» صرخ «أ. دهر» ، فرد جاره الجريح بصراخ عائل :

- لتكتشف أنك كنت هناك أيها الضائع .
 - «أين؟» تساءل الشاب ، فرد رجل السعال :

- «معهم . معهم . معهم . مع . . . هـ هـ هـ م» ، وهمس : «انزع انزع أنبوبي الدم المتصلين بساعديك» ، فتطلع «أ. دهر» إلى شريك الممرضة الواقف قبالة ، سائلاً في تفكُّه : «أأستطيع نزعها حقاً؟» ، فعلا صراخ جاره الجريح : «انزعها . انزعها» ، فصرخ «أ. دهر» بدوره محتدياً : «أيسمح لي هذا بنزعها؟» مشيراً إلى الشخص المبتسم أمامه ، فرد رجل السعال : «إنه شبح . انزعها» .

نعم . نزع «أ. دهر» الأنبوبين المنتهين بإبرتين من ساعديه ، واستخرج أوراقه المطوية ، مبتسماً ، من تحت مخدته ، وهو يرمق شريك الممرضة الواقف أمامه كبلاهة اختلقها بياض الغرفة ، لا أكثر :

(عزيزي ، سأرجع إليهم ، فاستبعد لتمضي معي إلى ما سأتدبره لك ، لأنك اعتدت أن تدبر لي أمراً أتيناها ، من قبل . اعتدت أن تورطني في ماضي أحداث لم يكن لي يد فيها ، ورغم ذلك تبنيها كجزء من اللعبة ، لكنني سأورطك ، الآن ، في ما لم يحصل بعد . أعني سأخذك معي إلى جهتي . هكذا هي جهتي . لا تتأفف . خبني يدك تحت إبطيك لتقيها البرد ، ولتتقدم ، على مهل ، من تلك . . .) ، وتوقف «أ. دهر» عن الكتابة وهو يرى الدم المتسرب من إبرتي الأنبوبين يتكؤم على جانبيه قطرة قطرة ، ثم يسيل على أرض الغرفة . ابتسم رافعاً بصره إلى رجل السعال الذي يفصله عنه سرير فارغ :

- «هيه . . . ناداه .

- «ماذا؟» أطلقها رجل السعال خافته من بين شفثيه .
 - «إنه يتأمل هيأته في بركة الدم» ، قال «أ. دهر» ، وهو يقصد شريك الممرضة ، الذي كان قد وقف ، فعلاً ، فوق المرأة الحمراء المتشكلة من الدم المتجمّع قرب إحدى قوائم سرير الشاب . فأجابه جاره الجريح :
 - هكذا هي أشباح هذا المكان .

غير أن «أ. دهر» رجع إلى أوراقه ، كأنها لم يسمع جملة جاره الأخيرة :

(سنتقدم، يا عزيزي، على مهل، من تلك الهضبة التي تشرف على ما كان «مطاراً» ذات يوم. لم يكن من مطار هنا؛ أعني في هذه الجهة التي يغمرها الثلج، لكنني أجزم أن لجنة تقصي الحقائق هي التي جاءت به. كيف جاءت به؟ لا أعرف. وما هم أن عرفتم أو عرفت، فهو مطار لا يصلح حتى لمرور الماعز، لكن له هيئته: انظر إلى البرج البعيد الذي يعلو المبنى الصامت. انظر إلى المدرج بثلجه المنبسط على مدى الرؤية. إنه مريح. أعني أن عبوره مريح، وبخاصة إذا تتبعنا هؤلاء الذين يجرؤون مدفعهم الضخم في اتجاهه. أترأهم؟ يبدوون كخيوط أسفل الهضبة. كنا نسميهم «الفصيل الشاحب». عليهم ثياب عسكرية رثة جداً، ويؤدون مهمتهم على أكمل وجه. سبع سنين وهم يؤدون المهمة ذاتها على أكمل وجه: ينتقلون بمدفعهم الضخم من شارع إلى شارع، ومن حي إلى حي، ومن ضاحية إلى ضاحية. يجرؤونه دون كلل في هدنات الحرب وفي شعار الحرب، كأنها ينتظرون مهزلة أكبر من هذه ليعلموا اشتراكهم، إلى جانب القدر، في خضم الموت. أتدرك ما أقول؟ سيحسمون الموت. لا أعني المعركة. لا أعني خسارة هنا، أو ربحاً هناك. لا أعني اقتحام موقع أو إخلاء موقع، بل أعني الموت. تقدمت لثراه. تقدم معي خلف «الفصيل الشاحب»، لنلتفت معهم، من الجهة الجنوبية للهضبة، على الخواف القريبة للمدرج المطار، وسنشرف، جميعاً، من هناك، على الموت.

لا تضحك. أنا اصطحبك معي يا عزيزي، لذلك أمتنى عليك ألا تضحك. الموت لا يضحك. الموت هو برج المطار المشرف على المدرج، ونحن سنشرف عليه وعلى المدرج معاً. تقدم معي. الثلج يستر بياضه. الثلج فضيحة الموت، و «الفصيل الشاحب» دليلنا إلى آخر موقع في التماس مع الغد الذي لا يتقدم. نحن سنتقدم إليه. أنا وأنت و «الفصيل الشاحب»، ووسطنا هذا المدفع الضخم المصنوع لتوجيه القدر ذاته، لا للقصص.

سأتقدم بك دفعاً أمامي، أو أجرك، لا فرق، لم تعد بي رغبة في محاججتك، فنحن أمام الثلج الطليق مثلي من لعبتك. لكنني أحذرك، سلفاً، من الموجات الفراغية في هذا المكان. كانوا يشرحون لنا بإسهاب معنى

«الموجات الفراغية»، ولم أجد أتذكر سوى أنها خلل ما في الزمن، أشبه بفقاعات الهواء التي نجدها في سبيكة من الزجاج. نعم. الموجة الفراغية هي فقاعة من ماضٍ سحيق عالقة بكثلة الحاضر، فأحذرهما.

ربما عن لك أن تسألني: «كيف أعرف الموجة الفراغية؟». هذا من حقلك بالطبع، ما دمت أنا الذي أتقدم بك على كفاية الحقيقة. إنها - أعني الموجة الفراغية - تبدى على أعراض عدة، منها الأكثر شيوعاً، وهو أن يبت فيك مكان تراه لأول مرة حيناً غربياً، كأنك كنت فيه في وقت ما، مُبَلَّل لا تستطيع حصره. أما بعض أعراضه الأخرى فهو «البرهان». لا تقدم برهانك على شيء، لأنك ستخسره. والماضي يحرك - وأنت مُسَمَّن لهذا الإنجرار - إلى تقديم البرهان، حتى يتسنى له، وحده - أعني الماضي - أن يكون برهان الحاضر على كل شيء، فلا يكون للحاضر، من ثم، برهانه الخاص به.

للك الحق، وأنا أحذرك من هذا العارض أيضاً، في مساء لي: «وكيف أثبت أنني في الحاضر دون برهان؟». هيه. الأمر بسيط. تشاغل بالخيال. انسج الخيل لا البراهين. دون أرقاماً خاطئة في مسائل صحيحة، وتشرذ ليبحث عنك المكان. لا تقنع مخاطبك. لا تقنع نفسك. اسرح في حضور الآخرين، أبداً. وأدم إطالة الشيء؛ أدم إطالة أي شيء حتى لا تستنفذه فتستنفذ خاصته فيك. تمهل واستمع جمل. كن مشدوهاً حتى لا تغويك الموجة الفراغية.

تعال. لا تعبت بالسلام المرمية التي ترى بعض أطرافها من تحت الثلج. وإن تعثرت بشباك رقيقة فحرر رجلك منها دون سحبها، ومررها بالثلج من جديد. إنها شباك صيادي الأسماك المختبئين في مكان ما من جوانب الهضبة. ستسألني: «ماذا جاء بصيادي أسماك إلى مدرج مطار مغطى بالثلج؟». لا بأس. كان هذا المطار على مبعده فراسخ قليلة من البحر، قبل أن أجده في هذا المكان الذي لا بحر فيه، أو من حوله. استبدالات. ولم لا؟ الأمكنة تتبادل مواقعها أيضاً على سبيل التجريب، وأبقاها أكثرها خبرة. بالطبع لا تخفي، أو تزول، الأمكنة الأقل خبرة، بل تسهجر. أقول ذلك للتوضيح، أما أمر

صيادي الأسماك فهو أنهم وقعوا في بظالة بما فعل المحاربون بالبحر: قصفت عليه. فنص علىه. إلقاء متفجرات على سمكة لا يجاوز طولها الإصبع. بوارج حديد هاذية بالآلتها الهاذية. سلب الذاهبين إلى الشواطىء أو العائدين منها. يضاف إلى ذلك «من سيشتري؟». لا كهرباء لحفظ السمك. لا غاز لظهوره. السيادة للمعلبات. السيادة للصفيح في السماء وفي الأرض. غير أن هؤلاء الصيادين لم يستسلموا لقدّر لم يشاورهم، فتراجعوا بشباكهم إلى مداخل الشوارع ينصبونها بين العمارات، مرفوعة على عمّد خشبية، بينما تتدلى كرات الرصاص من حوافها على الإسفلت.

كانوا يقتعدون المداخل وعميونهم على الشباك، بينما يعمد ما تبقى من المارة، مع الوقت، إلى فتح ثغرات فيها، والعبور منها، دون مساءلة في فحوى وجودها، ودون اعتراض من الصيادين. نعم. إتفاق صامت مرفوع على صحن اللعبة. وحين اقتحمت المتاريس مداخل شوارع المدينة من جهاتها الغربية أيضاً - جهات البحر، تراجع الصيادون أكثر إلى داخل المدينة بشباكهم، لكن الضبية المشاغبين كانوا يعمدون إلى إحراق النفايات قربها فيطاولها الحريق أيضاً، لذا ارتأوا - أعني الصيادين - التزوح إلى الجهة الجنوبية من المدينة، حيث التخوم المتصلة بأفقي من الرمال، لا يحده إلا المطار بالطريق المفضي إليه وسط صفين من نخيل شاحب، متباعده بعضه عن بعض، مائل كثيراً بإهمال من عمال التشذيب، أو ساقط بفعل القصف المدفعي. غير أنهم استقروا، نهائياً، على مدرج المطار الفارغ، حيث لا يزعم شباكهم أحد، فنصبوها في إثنان، بينما أقاموا، هم، وسط نوع من قصب قزم، نها كثيراً حيث تصب مجاري المدينة، على بعد أمتار من المدرج، كأنها لم تستطع البلدية مد الأنابيب بضعة أمتار أخرى لتصب السائل الكريه في البحر لا في العراء. وقد اقتدى عمال النفايات بمهندسي الأفنية فانبهروا، هم أيضاً، إلى كب ما في شاحنتهم على أطراف المدرج المحاذية للبحر، حيث الشارع العريض الذي أوكلت إليه مهام سياحية، دون أن يمر عليه سائح إلا ساداً أنفه. وقد غلّت أكوام النفايات، بين موضع وآخر، جثث أبقار، أو أغنام، أو بغال. أما الكلاب والقط فكانت

مدفونة بين الركام، على الأرجح، لضالة حجومها.

قد تسألني، يا عزيزي، ما الذي يتصيد هؤلاء، في العراء الثلجي هذا؟ علي أن أنقل الجواب إليك همساً، لأنهم سيسمعوننا من جوانب الهضبة. نعم. باتوا حاذي السمع من طول تنصتهم على الفراغ؛ باتوا كشافة الفراغ، يتحينون الزعانف الكبيرة التي ستقود الغيب إلى شباكهم.

هذا جوابي يا عزيزي: يتصيدون الغيب. لا تضحك. ليس في وسعك أن تضحك. أنت موجود على ورقتي هذه، وسأخاطبك بما يؤكد التوازن بيني وبينك. أنا شهم. ألا ترى أنني شهم؟ لم ألق بك في موقف كالذي ألقيتني فيه. لم أحرّجك. لكنني سأتركك مع هؤلاء.

لا ترفع يديك معترضاً. لست في حاجة إلى شبكة تنصبها مثلهم. لست في حاجة إلى الاختباء قرب الهضبة.

أنصت.

أنصت.

أنصت، فقط، إلى ما سيتخبط في شباكهم.

.. وداعاً...).

ثم ألقى «أ. دهر» بالورق كله إلى سماء الغرفة السباحة في بياضها: «أقرأني» صرخ. «أقرأني». وبدأ يحبط بيديه على الجبس الذي يغلف ساقيه: «أعطوني منشاراً»، بينما كانت القصاصات تتساقط، على مهل، في بركة الدم التي علاها غشاء متخثر رقيق، وسط الغرفة.

نعم. كنا نحن الخمسة اللا مرتين، على تعودنا الضجر مما يجري في مكان واحد، نتفاسم أمكنة شتى، بدءاً من غرفة «أ. دهر» وشريكه، وانتهاء بالشوارع الخلفية في الحي الغربي، حيث ظهرت، فجأة، شريحة جديدة من الأدميين، ترتدي أحذية ضخمة في أقدامها اليسرى، فتجر نفسها جرّاً وهي تمشي.

ظهر الأبناء أولاً، ونبعهم الأبناء، في تسارع غريب، ممسكين

أحدهم برؤن الآخر، أو بأطراف السُّرُرات. ولم يكن صعباً التعرف إلى أسباب هذا الظهور. فهم - نعتي ذوي الأقدام اليسرى الضخمة - كانوا متعهدي بناء لم ينجزوا غير أساسات قليلة، في أول الحرب، من الأبنية التي تعهدوها، ثم اتخذوا الحرب ذريعة ليتواروا بالنقود التي في عهدهم، والمخصصة، أساساً، لاتفاقها على البناء. ولما تمكن المحاربون، وقراءهم، من الاستئثار بتصرف شؤون المدينة، لجأ أصحاب العمارات غير المنجزة إليهم، منفقين عليهم أضعاف ما يريدون تحصيله من البنائين الفارّين، بدافع من انتقام مسنون. وبالفعل جرى ضبط هؤلاء فرداً فرداً، فعرضوا، في منازلهم، أن يعيدوا النقود إلى أصحاب العمارات لتسوية الوضع، لكن الآخرين رفضوا، طالبين بالعقوبة لا باسترداد النقود، وهذا ما جرى:

جسيء البنائين وبعائلاهم معاً، فوضع في القدم اليسرى لكل فرد فيهم قالب كبير، وضُب فيه الإسمنت. ولما جفَّ أطلقوهم، تحت طائلة القتل لمن ينزع «حذاءه» الصلْب.

نعم. كان في وسعنا، وفي وسع أي أحد آخر، أن يميز من الطبقة السادسة في عمارة «أبي كبير» بين عابر من سلالة البنائين وبين الأطراف الصناعية التي باتت تتجول وحدها على الأرصفة، في الهدنات، وفي القصف.

خمسائة ألف طرف صناعي، من التي يلصقونها بأعضاء الآدمي المبتورة، دخلت المدينة. خمسائة ألف طرف من المطاط والمعدن المشغولين فنياً، دخلت المدينة، في سبع سنين. وكان ثمت فرق في الصوت بين نقرها على الأرصفة، وخشخشة أقدام البنائين الثقيلة، التي تُجَرُّ جِراً.

ما هم. كان «أ. دهر» بعد عودته إلى البيت من المستشفى، يتحسس ساقه في حَمْد مكتوم، كلها سمع نقرأ على رصيف الشارع. ولربما ابتسم في بعض الأحيان، وقد ذكره الصوت بحوار فضفاض كنبطاله مع صديقه الرسام:

- «كيف جرى التعرف إلى أثر الإنسان؟»، يسأله صديقه، فبرّد هو:
- بما ترك من أدوات.

- «وللأدوات أشكال. اليس كذلك؟» يسأله الرسام، فبرّد «أ. دهر»:
- لكل شيء، شَكْل.

- «الصوت شَكْل؟» يسأله صديقه مدافعاً عن أمر ما، فبرّد هو:
- نعم. باتت ذبذبات الصوت تُخَذُّ بالرسوم البيانية.

- «ليكن. دعنا نُعَدُّ إلى الأشكال» يقول الرسام. «الأشكال، وحدها.

هي ما يمكن تصويرها، ولما كانت الأشكال هي نتاج خيال الإنسان، فقد بقيت لتدل على وجوده». فقاطعه «أ. دهر»:

- تعني أن خياله هو نتاج الأشكال؟

فصمت الرسام كأنها يتدبر غرجاً من المحاورة، ثم ضحك: «خياله نتاج هذا» وأشار إلى خصيتيه. وأردف:

- «ليكن. دعنا نُعَدُّ إلى الأشكال. الأدوات أشكال. الأدوات صور.

الصور تدل على وجود الإنسان». وتوقف ليبدأ سؤالاً آخر:

- ما الذي أنقذ البشرية من الإنقراض؟

- «الرسامون». ردّ «أ. دهر» متفكهاً.

- «أسألك جاداً» أضاف الرسام، واسترسل: «الصوت هو الذي مدّ في عُمُر البشرية».

- «الصوت؟» سأله «أ. دهر»، فرد صديقه:

- «نعم. الصوت إنذار. الصوت هو الحذر. الصوت هو نذير

المكيدة. الصوت هو الميزان الرحيم. الصوت هو غياب العُدْر.». فقاطعه «أ. دهر»:

- وماذا بعد؟

- «أعني...» أردف الرسام مُسنداً شاربه: «كان الإنسان، باستخدام

سمعه، يتجنب أن يكون ضحية هيئة».

- «يا للإكتشاف» هس «أ. دهر» ساخراً، فرد صديقه، ساخراً بدوره:

- «اكتشافي، يا صاحبي، هو أن ما أعرفه أنا، وأنت، سيكون مستقبل

الأرض إلى أبجل غير معلوم. ستسود الصورة والمؤثرات الصوتية، وحدهما،

بينما يتفرض الكلام». فعاد «أ. دهر» إلى تفكُّهه:

- إذا بقيت الكهرباء.

- «المستقبل ليس عبارة أبي كبير وحدها» ردَّ الرسام ضاحكاً، واستطرد بشاربيه المرتعشين: «هذه المدينة توفر الكهرباء على المستقبل».

نعم. خمسمائة ألف طرف صناعي دخلت المدينة في سبع سنين. أعضاء تستطيع تخمين حاملها بالحركات الاستعراضية التي يفتعلونها، أو بالمبالغة في البهانة المغلفة بالسخرية، في محاولة يائسة لإبداء موهبة تتشوّص كلها استحضرها. وكان بعضهم، إمعاناً في مؤاساة نفسه باستدراش شفقة الآخر، يعمد إلى وضع طرفه الصناعي (يده مثلاً) على المنضدة في المطعم المجاور لعمارة «أبي كبير»، حيث يؤمُّ المحاربون بكثرة، وهم في كامل عتادهم. ولربما عمد بعضهم الآخر إلى وضع سيفانهم المعدنية على المناضد، أيضاً، بعد سبع أقداح من البجعة الألمانية، وسط مجادلات جادة، بكلام كلُّه تخمين، عن الوكالة الجديدة التي شاع صيتها، أكثر فأكثر، مع ارتفاع وتيرة الحرب. ولربما همس واحد من ذوي الأطراف الفاتنة اسم الوكالة على النحو التالي: «وكالة الحال»، فصَحَّحه جليسه: «تعني وكالة الخيال».

«اتحاد وكالات الخيال»، ذلك هو اسم المؤسسة الرحيمة التي ظهرت كقنبلة مضيئة في كشافه الموت. إعلانات صغيرة، في الصفحات الداخلية المهمة للمصحف والمجلات تقدّمت، رويداً رويداً، لتستقر على الصفحات الأولى والأخيرة معاً، مُتَقَنَةً في خطوطها ذات الحروف النافرة من معدن مصهور: «لا تتصل بنا إن كنت ميتاً». هكذا كان التدوين النافر، فتهافت الأحياء على مقرِّ الوكالة في الجزء الجنوبي من المدينة. وإذا اتصل بها أناس من الأجزاء الشرقية للمدينة، وهم غير قادرين على اجتياز الخط الفاصل بين الجهتين، عمد القائمون على «اتحاد وكالات الخيال» إلى إنشاء فروع لها في الجهة الشرقية أيضاً، ثم توسَّعوا في بَثِّ مراكزهم بحسب التقسيم الطائفي، والمذهبي، والعائلي أيضاً، باتفاق مع المتنفذين في الأمكنة والجهات.

«انتصارك ملكك». تعالِ نعلّمك إدارة الحرب دون دم». ارتفعت هذه

الكلمات، تالياً، على أطراف الإعلان، ولحقها: «ثمت الكثير مما ينبغي عليك أن تفعل. تعالِ إلى هدنة طويلة، تحدّدها بنفسك، مع الموت». وبأثر من هذه الكلمات ارتفعت أصابير مصفوفة في ثمرات الشَّقَق التي استأجرتها الوكالة - أمُّ الوكالات، ثم أحاطت المنافذ كلها، من حول الشَّقَق، بمتاريس من الرمل، طلّتها باللون الأصفر، «حتى لا يعيب القصف الطائش» - بحسب ما يقول الموظفون - «بعرق الناس»، مشيرين إلى الأوراق في كلِّ إضبارة، الرقيقة منها والسميكة.

كانت وكالة رحيمة بحق. تدفع رسماً ضئيلاً في انتسابك إليها، فيعطونك ورقة محدّدة بأسئلة قليلة:

١ - واضح أنك لا تحبُّ الحروب، ولست ميتاً، أجب بـ «نعم» أو بـ «لا».

٢ - أقتلت أحداً؟ لست مضطراً للإجابة إذا أخرجك السؤال.

٣ - سجِّل على هذه الورقة أولى رغباتك، ريثما يتسنى تسجيل رغباتك الأخرى، متسلسلة، فيما بعد. (انتهى).

وينزوي الوافدون في عُرَف جانبية، لتدوين ما عليهم تدوينه، مُطيلين حتى أنهم أنفُسهم يضجرون من البحث عن تحديد رغبة أولى، فيختصرون الجواب على مقاس آخر لحظة: «أن تنتهي من هذه الحال»، في حين يتجرعون كزوساً من الماء البارد يسبقهم إلى الطاولات التي يجلسون إليها للكتابة، على مرمى من العطش الذي يلفُّ المدينة، وما من سائل بارد إلا الدم يحفظونه للمجرحي برحة مولدات الكهرباء المبثوثة في أقبية المشافي.

غير أن جملة «أن تنتهي من هذه الحال» يحوّجها التوضيح، فتطلب الوكالة من قاصديها العودة بعد أربعة أيام - تحديداً - لاستكمال «الباقى».

ويعود العائد فيسلم ورقة عليها: «أن تنتهي من ماذا؟»، فيجلس إلى الطاولة من جديد، في عُرَف غير عُرَف زيارته الأولى، وأمامه الماء البارد ذاته، وكوب عصير، وصحن نقل ساخن جاء من تحمصة ما تَوَّأ، إضافة إلى هواء مكيف يستغرق استنشاقه نفس منه ألف جملة، قبل أن يصل الذي يدوّن طلبه إلى

مراده، فيؤجل، في آخر لحظة يجدها مناسبة لإنهاء مكوثه، ما ينبغي قوله دفعة واحدة، إلا حروفاً قليلة: «اعني أن أنتهي من الحرب». فيطلب موظفو الوكالة أن يعود صاحب الطلب بعد أربعة أيام - لتحديد - ليكون قد صار إلى درس رغبته. ويقاضونه، حين يعود من جديد، مبلغاً ضئيلاً آخر، ثم إذ يجلس إلى ورقته، في غرفة اختلف طلابها، يجد سؤالاً منطقياً في سياقه، مدوناً على الورقة ذاتها، فيلوم نفسه على تفصيله هو: «ما الطريقة التي تريد أن تنهي بها الحرب؟». نعم. يزم شفثيه قائلاً في داخله: «لماذا لم أحدد؟». ويصمم على أمر خطير: «أريد أن تنتهي الحرب ب...». ويتفكر.

كان على أصحاب الطلبات التقيد بالصيغة النهائية، والمفتوحة في الوقت ذاته، لشروط الوكالة: «سنتهي الحرب، بالتأكيد، فنحن لسنا ناور في ذلك، لكن ترجيح طريقة وقفها سيتم بحسب ميزان الرغبات»، وذلك أمر منطقي يبعث على الإطمئنان في كل حال. وفي كل حال ينكب المكتوبون على الورق: «نريد أن تنتهي الحرب ب...».

كلهم متفقون على إنهاؤها. ذلك ما تعلنه الوكالة بخط عريض على مدخل أروقتها، وعلى البوابات. «الحظ إلى جانبكم». يقرأها الفخورون بانتسابهم إلى «الساحة الرحيمة» المركزية وفروعها. ولم لا؟ الخط هو اتفاق مصادقتين على نحو غير محسوب، فكيف بحظ مبنئ على اتفاق لا مصادقة فيه، بل مليء برغبات إنسانية جرى تدوينها بالأقلام، وحفظت في مراتب الأضابير؟ إنه حظ الخط، وأمه، وأبوه، وأخته، وعشيق الأم والأخت معاً.

«نحن متفقون» يرددها الخارج والداخل إلى فروع الوكالة، ولكنهم لا ينسون التهامس: «أكتب كيف نهيها؟» يسأل أحدهم الآخر، فيجيب: «ليس بعد. في المرة القادمة ربما. الأمر يسير، لأن الجواب بات ملئنا».

ولربما ضجر البعض - والشواذ لا يؤبه له - من انتظاره لأن ترجح كفة رغبات ما على غيرها، فعاد الوكالة صارخاً: «أريد نفسي. جدوا حلاً لي»، فقادت موظفات أُنقيات إلى غرف مخصصة لهذه الأحوال، ذات مقاعد مستديرة يخصص فيها الجالس، وأمامه تلفاز مضاء يثبت صورته هو، مُدْ يدخل الغرفة

برفقة الموظفات إلى حين جلوسه، فيستغرقه الأمر لبرهة فيبتسم، ثم يتلفت من حوله فلا يجيبه ما يبحث عنه: آلة رصد تصويري تركز إلى زاوية من الغرفة. لكن مسألة التهدة هذه لا تنطلي عليه، فيعزد إلى احتجاجه: «أريد تسوية الحكاية الآن».

تبتسم الموظفة الأكثر أناقة من زميلاتهما للشخص الذي يحتج، هامة: «انظر لحظة»، وتختفي لتعود: من ثم، حاملة ورقة سُطر على فراغ فيها: «تستطيع أن تنهي الحرب. قل لنا كيف نهيها من أجلك». فيتأملها الشخص المستوفز، ويكوّرها في قبضته، صارخاً من جديد: «لا أريد أن أنهي الحرب. لا أعرف كيف أنهيها. فلتبق مشغلة إذا شاءت. لكنني أريد الخروج منها».

«أوه» تهمس الموظفة مبتسمة على عادتها، مضيفة: «تريد أن تخرج وحدك؟»، فيرد الشخص: «وحدي. نعم. وحدي». «أليست لك عائلة؟» تسأله الموظفة، فيرد: «لا. وحدي. أنا وحدي». فتتهمهم الموظفة في ملاطفة واضحة: «لدينا استمارات خاصة لمن هم في حالك. سأجيتك بواحدة منها». وتغيب ثانية، لترجع بواحدة من استماراتها تلك، هامة في تدلّه: «إملأها رجاءاً».

وينظر الشخص في السجل التي تترجح أمام عينيه على بياض الورقة الأنيقة: «المسألة هيئة حين تكون وحدك. مستخرج من الحرب بإشارة منك، لكننا نتمنى عليك مساعدة الآخرين بإيداء نصيحة لا تكلفك شيئاً: قل لهم أن يُنهِوا الحرب بالطريقة التي أنهيها». هذا هو المدون على البياض الأنيق، المحير، الذي يجعل الشخص ذاته مرتبكاً، ويرفع رأسه إلى الموظفة الأنيقة المتبسمة الواقعة أمامه: «كيف أحدد للآخرين طريقة إنهاء الحرب؟»، فرد الأنثى: «بالطريقة التي أنهيت بها الحرب. تمعن في السؤال أمامك». فيستغرق الشخص في الورقة التي أمامه، يمحّص في السؤال المضطرب مثله، ويعود رافعاً وجهه في خجل صوب الموظفة، متمناً على نحو مرتبك: «أنهي الحرب؟»، فرد عليه الموظفة بسؤال مشابه: «أنهي الحرب؟»، فيرد الشخص: «لا، بالطبع»، فتعاجله ذات الغنج: «لا تكتب، إذا، النصيحة».

المطلوبة منك .

ويستخدم الشخص، آنثي، باستخدام الشك فيه :
 - «الذي هذه الوكالة مقدرة على إنهاء الحرب؟» ، فترد الموظفة المبسمة :
 - نعم .
 - «أهي غفلة بذلك ، أم ماذا؟» يسألها الشخص ، فتجيبه الأنثى :
 - غفلة جداً . الوكالة ذات صلة بمن أشعلوا الحرب .
 - «ولماذا لا تطلب الوكالة منهم أن تنتهي الحرب؟» يسألها الشخص ،
 فترفع الموظفة كتفها في رقة : «سنتهي حين تفوز الرغبات الأكثر» ، فيصرخ
 الشخص :

- رغباتنا هي الأكثر . ألا تريد الوافدين إلى الوكالة ؟ .
 - «ما تراه نراه نحن أيضاً» ترد الموظفة الأنثى .
 - «وماذا ، إذا؟» يسألها الشخص ، فترد :
 - وماذا إذا؟ .
 - «أعني ، ألا يعني ذلك شيئاً لكم؟» يسألها الشخص ، فترد :
 - يعني ما يعنيه الأمر لك .
 - «يعني الأمر أن على الحرب أن تنتهي» ، فتسائله الموظفة :
 - «أطلعت على ما يريد الداخلون إلى الوكالة؟» ، فيتسم الشخص في
 ثقة :

- يريدونها أن تنتهي .
 - «لا» همس الموظفة الأنثى ، وترد : «إنهم يؤجلون رغباتهم» . ثم
 تنظر إليه في تأمل أقرب إلى استدراج المرء إلى الإعراف : «أبديت ، أنت ،
 رغبتك ، في كيفية إنهاء الحرب؟» .

لا نعرف ، بالطبع ، ماذا سيحصل في داخل الشخص الملقى ، عارياً ،
 على سؤال عارٍ ، فهو لم يدون رغبته ، في الواقع ، على ورق الوكالة .
 نعم . وكالة ذات ألقي وسط النقرات المعدنية الخمسة الف طرف

صناعي على الأرصفة ، متجولة وحدها ، كما يتجول الآدميون الأحياء ، لكنها
 أكثر انتظاماً بنقلاتها من الخطى الأدمية ، ولا ترتبك في حدوث قصف مدفعي ،
 أو تفجير لا سلكي ، ولا تهرع إلى مداخل الأبنية . كما أن في استطاعة «أ . دهر»
 تمييز أنواعها ، وأصناف معادنها ، من شقته : «هذه ذراع تمشي على أطراف
 الأصابع . المفصلات تحتاج إلى تزييت . وهذه ساق من النيكل ، تحسّش من
 حولها المشدات الجلدية التي تربطها بفخذ صاحبها . هذا إحليل . . .» ويفرق
 في المفهمة : «سيوزعون علينا أحاليل من النحاس المطلي بالذهب ، حتى يعرف
 القاضي والداني أن الإنسان قد ينقرض ، لكن الفحولة ستبقى» ، ويشتم في
 هرجه : «النكاح الميمون هو صورة القيامة حين نندثر . مني ورياح . فجوات
 وفروج . ظلام وضوء متعاقبان ، أو متجاوران ، على ضفتي الخصية . لهاث في
 كل شيء صلب أو زطّب . هيااا» ، ويرتد إلى الخلف ، ناظراً إلى سقف غرفة
 بيته ، يتمعن فيه بعد طول إقامة في المستشفى .

حين عاد «أ . دهر» ، متكئاً على المحارب الذي أنزله من سيارة
 «اللاندروفر» العسكرية ، ثم اتجه وحده ، بعكاز لا بد منه إلى أن يشتد ساقاه
 أكثر ، وجد مصعد العمارة معطلاً ، فأطلق شتائم بدءاً بالمصعد ذاته ، مروراً
 بالقبو ، والشقق ، وانتهاء بالأدراج «التي تبول عليها الشيطان» . وإذا عمالك
 أنفاسه المتلجلجة صعد الدرجة الأولى بأني خفيف ، فيما وضع بين أسنانه
 كيس الأدوية الذي كان يحمله ، فصار الكيس يحبط صدره كلما ارتقى درجة
 جديدة ، بفعل دعساته غير الثابتة من أثر ألم لم يزل في ساقه . ولما بلغ شقته ،
 في الطبقة السادسة ، وأدار المفتاح في قفل الباب ، أطلقت امرأة جاره من الباب
 الجاور ، برأسها فقط ، كعادتها حين تسمع الخطى في ردهة تلك الطبقة ،
 وبادرتة شبه متحبة :

- «الحمد لله على سلامتك» ، فردت مجفلاً قليلاً :
 - «أوه . بارك الله فيك» ، وكتم لهاثة المرتفع ، بينما استرسلت الجارة :
 - أخذوا زوجي .
 فاستدار «أ . دهر» إليها بكلمة :

- «زوجك؟ من أخذه؟»، فردت:

- «التنظيم هذا» وأشارت بإصبعها إشارةً إلى مكان قريب، فهم بها

«أ. دهر» مَنْ تعني، فرفع كتفيه متسائلاً:

- «ما الحكاية؟»، فأجابته:

- «اتهموه بالتجارة بالحشيش.

- «وما العيب في ذلك؟ يحششون وقوفاً على حواجزهم. وكشاشوا الحمام،

من أصحاب هذا التنظيم، ينفخون في مناقير الحمام دخان الحشيش، على سطح المبنى المقابل يا جاري»، فقاطعت بصوتها المنهدج:

- «قلتُ لهم لدينا أربع مخدرات ملأى بالحشيش. خذوها وأطلقوا

سراحه، فردوني قائلين: أتريدون أن نملأ لك مخدّة خامسة؟ عندنا قبو تخرج

الجردان دائحة من الذي فيه. ندخنه، وتأكله الجردان فلا ينتهي»، وتماكت

شبهقاً خفيفاً عراً صوتها: «والله، هذا ما قالوه لي. فتوجهت إلى أحد

مسؤوليهم متوسلة: أطلقوا سراحه وسيبوا أمامكم مقيساً بالطلاق، فضحك

المسؤول. سألتُهُ: ما المطلوب بحق الله؟ فردّ: زوجك حمار. فجاريته من

غضبي على حالنا: كلنا نعرف أنه حمار. والحمار لا يُحْتَجَزُ لأنه حمار. فردّ أنه

حمار خطير. ثم طلب مني الإنصراف إلى البيت». وحذقت في عيني «أ. دهر»:

- «أتعرف أحداً منهم؟» فأجابها:

- «نعم. لكنني...» ونظر إلى ساقيه يتشفع بحالهما لتأجيل إلحاحها، في

هذا الوقت في الأقل، فهمست همساً:

- «تعال، رجاء». فتقدّم من بابها دافعاً نفسه دفعاً، بعدما استعاد مفتاحه

من قفل بابه، ثم دخل شقة جاره حين أفسحت المرأة له.

الأرجح أن «أ. دهر» لم يتقدم غير خطوة واحدة، لأن المقر، وحده، كان

مهيشاً لاستقبال الداخلين، على نحو واضح، إذ مدّت طنائس صغيرة في

أرضه، ورُكِّبَت الوسائد إلى الجدران، بينما تكوّم الأولاد الخمسة - الصبيان

والبنات الثلاث - في جهته الجنوبية، قرب باب غرفة النوم، دون فزع بالطبع،

بل بها يمليه دفء أرواحهم الصاخبة. فارتدّ «أ. دهر» على المرأة يسألها:

- «لماذا يجلسون في الممر؟ لم نسمع قصفاً منذ أيام»، فردت بجارته:

- «تعوّدوا عليه»، وتمتمت في اعتذار خجول:

- «فلندخل إلى غرفة الجلوس يا جاري»، لكن «أ. دهر» أسند ظهره إلى

الحائط، وانزل قليلاً قليلاً حتى استوى قاعداً: «أنا أيضاً أحب الجلوس في

ممر شقتي»، فأغلقت المرأة الباب من خلفها، ثم جاءت بكرسي أسندته إلى

الزاوية الشمالية من الممر، فكانت وحدها تعلو الجالسين بنصف متر. ولربما

أتاح موقعها لـ «أ. دهر» أن يركز عينيه، حين يدير وجهه صوب أولادها،

جنوباً، على ابنتها المقبلة على الرابعة عشرة بحباسة جسد عجول. وكانت الفتاة

ذات النعاس الواضح، تشدّ فخذها إلى صدرها، في جلوسها ذاك، برهة بعد

أخرى، فيكشف ثوبها عن سرواها الداخلي، مما يزيد في اقتناص الشاب

لنأملاته الساخنة، غير أنه كان يستنشق الهواء، متحمساً رائحة ما، بين جملة

وأخرى من كلام المرأة المتقطع، الذي تصله أواخر كلماته، أو بداياتها، فيقدر

هو، على سهوه، أن يجمع ما تقول.

إنها رائحة يعرفها، وقد جاهد أن يخفي سؤاله عن مصدرها أمام المرأة

المضطربة، الجالسة على كرسيها العالي، لكنه أفلت ما يتوجب في مقام كهذا

من قلّبات لسان غير صريحة:

- «أعاد كشاشو الحمام إلى السطح، في العبارة المقابلة؟» سأل المرأة،

فردت:

- اختفى الحمام.

- «أأكلوه؟» سألتها، فأجابت مبتسمة:

- «أأكله القصف. القذائف أكلت صناديق أعشاشه، وشردته. يحوم

من فوق السطح فتسقط قذيفة. يعلو فتسقط قذيفة. يتجمع فتسقط قذيفة.

يتفرق فتسقط قذيفة. يتعدّ رفّه فتقتنصه بنادق المتحاربين بالطلقات المضيفة

المخصصة لتحديد التصويب الليلي. انتهى...»، وألوت رأسها معتذرة:

«انتهى الحمام. فلماذا يرجع الكشاشون إلى سطح العبارة المقابلة؟» فردّ «أ.

دهره:

- «أعني هذه الراححة...»، فقاطعت المرأة تساؤله:

- «تعني رائحة الحشيش؟»، وغطت يديها ابتسامة طفرت على الشفتين المُنْتَرَيْنِ، بينما ابتسم «أ. دهره» بدورها، من مبادرتها الصريحة، ثم رفع وجهه إلى الصبي الذي وقف أمامه، فجاءةً، وهو يمدُّ إليه كُفافة غير منتظمة الشكل، فبوغت الشاب، واستدرك فمُدَّ يده، بصورة تلقائية، يتناولها من الصبي، هامساً:

- «ما هذه؟»، والتفت صوب الأم بغريزة غامضة، مُستنجداً، فغمزته

المرأة:

- «انفخ الدخان إذا لم تُرد أن تبلعه يا جاري»، كأنها تخفّف عليه بعضاً من حيائه. ولما أشعل الصبي الواقف، ذاته، تلك الكُفافة له «أ. دهره»، اشتعلت كُفافات أخرى في الممر دفعة واحدة.

كان كل واحد من الأولاد يشعل كُفافة خاصة به - البنات الثلاث والصبيان - أمام عيني الأم المبتتين على زوج لا يرى. أما «أ. دهره» فاتخذ من المسألة، برغم طرافتها، مدخلاً لمسامرة تبعث على الإنشغال:

- «من منكم يستنشق أكثر؟» سأل الأولاد، فردت الفتاة الناعسة بصوت ذي بحة خفيفة:

- أنت.

- «أنا؟» قالها «أ. دهره» وأشار بإصبعه إلى صدره متسائلاً، ثم ضحك من دعابة جوابها. فاسترسلت الفتاة الناعسة:

- «أنت تستنشق الحشيشة أكثر، لأنك خائف منّا»، فالوى «أ. دهره» شفته السفلى في تساؤل صريح:

- ولماذا أخاف منكم؟

- «لأن أمنا حذرتك» قالتها الفتاة، فنظر «أ. دهره» إلى الأم متسائلاً، فالفأها مبتسمة في بلاهة. فعاد محدّقاً في الفتاة يسألها:

- «مِمَّ حذرتني أمك؟». فأجابته الناعسة:

- «منّا». واستندت برأسها إلى الحائط: «إنها تظن أننا أخبرنا مكتب التنظيم هذا»، وأشارت إلى مكان غير محدد، مضيفة: «تظن أننا أخبرناهم بما كان يفعل والدنا». فحاول «أ. دهره» أن يصرف الفتاة عن حوار كهذا، يُثْقِلُ على الأم المتربصة، ببلاهة، في كرسيها الحزين، قائلاً:

- «منذ متى تدخن الحشيش؟»، فالتفت نظرة على كُفافتها، ثم رفعت عينيها إليه:

- «لم نقل لأحد إن والدنا يرسل معلومات إلى الجهة الشرقية من المدينة عن مرابض المدفعية في الجهة الغربية». فبوغت «أ. دهره»، سائلاً:

- «لم أفهم...»، فقاطعت المرأة:

- إنه كلام حشاشين.

إذ ذاك انتفض الأولاد الخمسة، معاً، صارخين بأصوات متداخلة:

- «أنت أخبرتهم»، فهبت المرأة واقفة، تتوعدهم بيديها معاً:

- «سأنظف هذا البيت، والله، منكم ومن براز الشيطان الذي تدخنونه».

فهب الأولاد بدورهم، إلّا الفتاة الناعسة، متهددين:

- «سنفرمك وتدخنك مثلاً فرمت والدنا يا بنت ال...»، وغابت عن

«أ. دهره» آخر كلمة في جملة الأولاد، لأن النظرات المتواطئة بينه وبين الفتاة الناعسة، الجالسة مثله، كان تتخذ شكل تهديد علني للإفصاح عن رغبة شاب يحذق في لحم مكنز لا يحدده عمر، ورغبة فتاة مقبلة على استعراض هيئة اللحم ذاك على عيين مُمْتَحِنَتَيْنِ. ولم يكن «أ. دهره» ليهمل، برغم سرخانه، أن يلقي بنظرات على المشهد الجاري في الممر، من فوق رأسه ورأس الفتاة معاً، حيث تشير الأيدي من جهة إلى أخرى، بالتناوب، في صيغة اتهام مخفورة بشتائم يتفنن الأولاد والأم في تأليفها:

- «أنتم قطعتم مزبلة» تقول الأم، فردد أولادها:

- أنت مزبلة.

- أنتم مدعسة الباب.

- أنت لصة.

- أنا؟ يا ليلها تم.

- أنت، نعم. شخيرك كمؤخرة الكلبة.

- شخيري أنا؟ مَن والدكم ملوث بالسُّل، يا أولاد الفضيحة.

- أنت فضيحة.

- «أنا؟ أترى؟»، وتلثفت مكسورة إلى «أ. دهر»، فترأى شارداً في ابتتها،

فلا تعباً:

- «هي، أيضاً، ستأجر بالحشيش في سرواها»، تقول الكلمات هذه

وتجلس على كرسيها من جديد، شاردة دون حزن واضح، فيجلس الأولاد

بدورهم، كأنها كان الحوار الصاخب مرسوماً على نحو متناظر.

اللفافات غير المتقنة تتعاقب على الأيدي. الأولاد يتبادلون إلى الأمام

وإلى الوراء، يعيون يعرفونها شحوباً وتعَبٌ كالمُذِين في جفون الكبار، أما

الأم فتصير نعداً على أصابع يديها غداً مبهاً، ونطاطي، باحة في أعماقها

المتناثرة عن صورة مَرَحٍ لزوجها العابس أبداً. بينما تزداد جسارة «أ. دهر»،

والفتاة، بتزايد اللفافات التي يجرقانها نفساً نفساً، حتى أنها ينشغلان عن وجود

الآخرين، فيقترب الشاب منها زحفاً حتى يجاورها، فيضع يده على ساقها

مُسنداً من أسفل إلى أعلى.

- «ليكن» تقول الأم في مكان ما من روحها، مضيفة: «إنها ابنته»، وهي

تنظر إلى الجسارة المتنامية للشباب الجالس لصق ابتتها في آخر الممر. «ليكن».

وتتمنى على نحو جارح أن تنقل بخواطرها المشهد الذي تراه إلى الأب الغائب:

«يد أ. دهر ترتفع على ساق ابنتك. إنه يتحسس ركبته. مالذي ستفعله؟

ستصرخ؟ تصرخ. الشاب لا يعبأ. يده على فخذه. لن أتكلم. تكلم أنت.

إنها تسترخي. فخذاها تسترخيان كل إلى جهة. لو ترى سروال ابنتك. لو ترى

أولادك غير العائدين بما يجري. لو تراني. أنا. آه. مالذي ستفعله؟ عينا ابنتك

التاعستان على يد الشاب، تستحان في كسل، والشباب جَسُور. فليأخذها.

لن نبال حتى لو أخذها أمام أعيننا في الممر. عليك أنت أن تفعل شيئاً.

أصرخ. تكلم. كنت قوياً عليّ وحدي. عسى أن يمضي بابنتك إلى غرفة

النوم. من سيمنعه؟ فليشدّها من شعرها، أو من قدمها. سننظر صرختها على

السري. لا. ابنتك لن تصرخ. إنها تريد. ألا ترى؟». ورفعت رأسها

المطاطي، إلى الشاب هامسة بإشارة من يدها: «خذها إلى غرفة النوم»، فبوغت

«أ. دهر» برغم ثقل جفونه، وأعماقه، معاً: «ماذا؟»، سألها، فردت: «خذها

إلى غرفة النوم»، فسحب الشاب يده التي لم تجاوز ركبة الفتاة شبه النائمة،

فصرخت المرأة:

- «لا تسحب يدك»، فأفاق «أ. دهر» أكثر، وقد اعتراه خجل خفيف،

فهمس بدوره:

- «ينبغي أن أغادر يا جاري». لكن المرأة تقدمت منه، وأعادت يده إلى

حيث كانت، على ركبة ابتتها شبه النائمة: «ضعها هنا»، ثم صعدت بتلك

اليدي إلى فخذ الفتاة، وانحدرت بها إلى سرواها:

- «ابحث هنا». فأبقى «أ. دهر» يده في المكان الذي بلغت، سائلاً:

- «أبحث عم؟». فردت المرأة:

- «عنك. أبحث عنك، وعن أبيها، وعن العمارة»، ودفعته دفماً

خفيفاً صوب ابتتها، حتى مأل عليها، مضيفة:

- «خذها إلى غرفة النوم». فأتكا «أ. دهر» على يديه، مستنداً بظهره إلى

الحائط، وقام منتصباً على ساقيه الضعيفتين، ثم تناول عكازه المعدني:

- علي أن أتفقد شقتي يا جارة.

كل شيء كان على حاله. في شقة «أ. دهر»، برغم أنه لم يتفقد شيئاً.

لقد دخل وأغلق الباب من خلفه. ثم توجه إلى الشرفة مباشرة، غمر المطبخ،

وإذ وصلها، في ذلك الوقت الذي لم يبلغ الظهيرة بعد، ألقي بنظره إلى أسفل،

فوجد السفينة الراسية على خالها، والمحارين يتبادلون اللفافات، فيما توجه

أنظارهم إلى جهة أبعد من العمارة، حيث تتدلى خيلة «أ. دهر» من الفراغ

المعدني كورق الزينة الملون في بيت منبهب. وإذا يلتفت الشاب نفسه إلى

خيلته، التي تتجسد بعيداً عنه كما ثوب نزع لا يسه، يبصرها منشغلة بجسور

سرتفع من فوق عمارات المدينة، في الجهة الأقرب إلى البحر غرباً؛ ضخمة

معلقة إلى لا شيء، تبدأ أطرافها من أماكن غامضة في المدينة، وتنتهي أطرافها الأخرى في الزرقة العارمة للمياه.

كان في ود «أ. دهر» أن يلوح بيديه للمحاربين، من شرفة شقته، لكن الحذر، الذي استشرى فيه من أثر اللفافات ذات الأشكال غير المنتظمة، أبقت كسلاً حلولاً في مفاصله، تحت الجلد، وتحت العضل، وفي التقاء الغضاريف والعظام، فاكتفى بابتسامات موزعة على أشكال تساوت، قليلاً قليلاً، بالمياه المنثقة شرقاً، فيما تفتحت الأعناق المرمية، على بعد أمتار منه، عن مصاعد مضبئة تتسلق الهواء إلى الأعلى، كأنها ألعاب في مهرجان، مصاعد كروية، ومكعبة، مستطيلة الأضلاع أو مربعة، وأخرى موشورية، وبضابوية، ذات أبواب من قضبان خفيفة تتلألأ كالتيون، ومن زجاج مخدب، سميك ورقيق، يرتقالي أو أزرق، مصاعد ترقى، في خيلاء هادئة، معارجها المرسومة في الفراغ الشاخص إلى مرآته. وبين مصعد وآخر تزاوجت ادراج مضبئة أيضاً، ذات استدارات، يكفي النظر إليها من شرفة «أ. دهر» ليحس المرء بخفة خطراته عليها، كأنها ترفعة درجة إلى درجة، منحرواً من الثقل، يؤكد الهواء، وخذله، ببرهان الهواء.

تمت تعاقبات متلاحقة للرؤى من شرفة «أ. دهر»، تخرج المصاعد بالأدراج، بأشياء أخرى ليس آخرها البرادات. نعم. برادات تتوقف عندها القلوب في حرب كهذه، وكذلك عينا الشاب المتعبان إلى درجة النوم. غير أنه يفتحهما بأصابعه حيناً، وبروحه ذات الشرخ العسيفي الرطب حيناً آخر، إذ يرى إلى أبواب تلك البرادات، السابحة ككواكب صغيرة، مفتوحة على مكعبات من الثلج البهيم، وزجاجات مياه يعرفها ضباب خفيف من شدة ما هي باردة. ولقد مد «أ. دهر» يده مراراً، يحاول التقاط مكعب من الثلج، أو زجاجة ماء بارد، لكن كسله ونعاسه اختصرا محاولته، فعاد إلى داخل شقته، متوجهاً إلى الحمام الحديد، ثم خلع ملابسه ووقف تحت رشاش الماء، غير عابئ، بجروح ساقيه، فلم يحظ إلا بقطر متسارع خف بعدئذ، فأضحى قطرة قطرة. لكنه لم يهتم. لعن شفته بلسانه، ودعك عينيه. كان يواجه المرأة التي

تكشفه إلى ما فوق سرته. تقدم منها ومد رأسه إلى زجاجها كأنها هي شباك، فاخترقها. ثم اتكأ بيديه على إطارها السفلي ونسلقها داخلًا إلى الجهة الأخرى، عارياً.

لقد تعود «أ. دهر» أن يفعل ذلك؛ تعود أن يخفي في مرآة حمامه ليخرج في مرآة بيت آخر. وكان عارفاً أن من احتمالات اختفائه في المرأة أن يبقى، إلى الأبد، في المسافة غير الملحومة التي تفصل المرئي عن اللا مرئي. لكن يقينه الغامر بوجود حتمى سينتشلونه، يجعله جريئاً في إقدامه ذلك.

على أحد ما أن يتذكر «أ. دهر» من مكان بعيد أو قريب، في اللحظات التي يخفي فيها في مرآته. وعلى ذلك «الأحد» أن يسارع، بدفع من إلهامه الفجائي، إلى حمام بيته - هو - ليتنشل «أ. دهر» من المرأة. سيمد يده إلى الفراغ الذي يجد ذلك «الأحد» صورة شخصه فيه، لكن يده ستمسك بعصا «أ. دهر»، وسيجذبه آنئذ، صارخاً به: «كم مرة ستعيدها؟».

بالطبع سيعيد «أ. دهر» الكرة تلو الكرة. فالبرهات التي تجعله خفياً، منذ دخوله مرآة بيته، وخروجه من مرآة بيت آخر، هي برهات لإشراقه على توسيع رقعة الحرب، لتشمل التماثيل في ساحات الجزء الغربي من المدينة. ولم لا؟ هذ الرموز الصامتة تثير الحق بفظاظة ترشعها الثابت. وهي، يقيناً - كما يقول أ. دهر لأنصاره الممثلين جهامة، من عصر إلى عصر - بكل ما فيها من برونز، أو إسمنت، أو حجر - أدلاء الحاضر إلى مازقه، بسبب المطابقة غير الممكنة بين ماضٍ واثق (هكذا قرؤوه)، ومستقبل واثق (هكذا قرؤوه)، بات لا بد من غلبة لأحدهما، في حلبة الحاضر الثقيل كتماثيل الساحات ذاتها.

الشئف يشمل الكثير، الحديث والتقديم، من أنصاب السياسيين أو المرئيين فكراً وحماقة. عمامات تنطير، وطرايش، وقبعات، ومعاطف، وخوذ، وبناطيل، وأحذية، وأوراق حجرية من التي تلوح بها أيدي بعض التماثيل. وكذلك تنطير قواعدهما، وينشق التراب العاري متنفساً هواء الحرب التي يعرفها.

وإذا انتهت تلك الأنصاب، يجد «أ. دهر» مشاغل أخرى يقود أنصاره

الصارمين إليها، في الفسحة ما بين اختفائه وظهوره. كان يَحَقُّقُ، كرجل القانون، في أمر الرمل الذي بات يتململ في الأكياس المقامة كمتاريس. «إنه حي» يكتب «أ. دهر» على ورقة صغيرة، ويربها لأنصاره، واحداً واحداً.

رمل حي، يتململ ويزحف حين تَنَقَّبُ الأكياس. و «أ. دهر» يجيئ لأنصاره مسائلة المحاربين، دون استثناء، عن مصدره، فحجر الأسئلة الأسئلة بعدئذ، طوال دخول الشاب إلى المرأة وخروجه منها في جهة ثانية. ومما يُضْحِكُ، أن شخصاً لم يكن «أ. دهر» على صلة به، قط، جرء، ذات مرة، فأخرجه من المسافة غير الملحومة، التي تفصل الرئي عن اللا مرئي. وقد شُِدَّة الشاب إذ وجد نفسه وجهاً لوجه مع امرأة تفهمه ملء رثيها، قائلة: «ظننتك شخصاً آخر»، فازدادت حيرته:

«أهناك غيري في المرأة؟»، فردت، وقد ثالكت ضحكها:

- زوجي هناك، أيضاً.

كلُّ كان يُسَوِّي أموره، في فسحة دخوله المرأة وخروجه منها. وقد ظن «أ. دهر» أن المسألة سرٌّ من أسرارها، لكن، حين باغتته المرأة التي لا يعرفها بجوابها ذاك، أصيب بكتابة لم يستطع إخفاءها كما أخفى أجزاء من جسده العاري بالمشقة التي ألقت المرأة ذات الحول الخفيف بها إليه. أترأه يَرِّعُ كلُّ تلك الأقاليم على أنصاره كأنها هو الوحيد القادر على ذلك؟ بدأ بالمينا العريض، الذي لم يتبق فيه إلا بعض زوارق مهترئة، وباخترتان مقصوفتان، غاص نصفاهما في الماء. نعم. قال لثلة من أنصاره أن يستثمروه، وأشار على آخرين بالمطار، وعلى البقية بمفارق الطرق الكبيرة، المؤدية إلى الجبال. واحتاط لسطوته فعلاً أقبية عمارات الشطر الغربي من العاصمة ذخائر لم يجد الأهليون غضاضة في افتراشها، حين يلجأون من القصف إلى الملاجئ، فيها كان الأطفال يعمدون، أمام أنظار الأمهات والآباء الخائفين، إلى عض الطلقات ليروا آثار أسنانهم على رصاصها، ويخرجون القذائف، بعضهم في اتجاه بعض، فتطير قلوب الكبار، وهم يصرخون: «مهلاً... مهلاً».

لم يَدِّمِ الحوار طويلاً بين «أ. دهر» والمرأة ذات الحول الخفيف. حدّد

لها موقع العمارة التي يقطعها فابشمت، شارحة أنها لا تبعد عن عمارتهم إلا شوارع قليلة، وناولته قميصاً وبنطالاً يعودان إلى زوجها، ليستطيع العودة إلى بيته. وفي طريقه إلى الباب استوقفته ابنة الحول سائلة أمها: «أهو من حرس عسي؟»، دون أن تعني عساً حقيقياً، وإنما ذلك الرجل الأنيق، ذا الشاربين المستقيمين، الذي يقدّم للعائلة خدماته كمتفقد متمكّن، فردت الأم متخابئة: «ليس الآن. قد يصير حارساً فيها بعد»، فالتفت «أ. دهر» إليها، متطلعاً إلى تحابئها الفكي، لا إلى عينيها المترققتين اللتين لا تثبتان على عينيها:

- «لا. لن أكون حارساً عند عمها، بل سأزوجه»، وابشمت، فقهقهت

المرأة، عائدة إلى معابئها:

- «وماذا ستترك لي؟»، فتطلع «أ. دهر» إلى ابنتها، معالكة نفسه من

إجابة قد تخرج الفتاة، ثم أطرقت: «سنرى»، وخرج من الشقة مرّداً الباب من خلفه.

كان حافياً حين عاد أدراجه صوب عمارة «أبي كبير». نسي أن يسأل المرأة عن حذاء، أو خجل من ذلك، ونسيت المرأة بدورها. شقَّ كَمَيَّي القميص ولفَّ بهما قدميه، ليجرؤ على عبور الممرات المليئة بالزجاج المتناثر، وبالحجارة والخشب. ولما بلغ العمارة ألقي نفسه وجهاً لوجه مع البحر، من واجهتها الشرقية، وكان دأبه، من قبل، أن يرى البحر من شرفته فقط، حين يتفقد السفينة التي يعرفها. نعم. وجهاً لوجه مع ذلك البحر الذي لم يكن هناك من قبل، قط، بل كان يقرم في المساحة تلك مسجداً، وعمارات واطنة، وشوارع متوازية بأسرارها وناحييها المولدين على الدم العائلي، فتفرس فيه، ثم اتجه إليه، لا إلى مدخل العمارة، وشاح في الماء، رويداً رويداً، ميمماً صوب الشرق.

حائراً تقدّم «أ. دهر» في المياه، على أية حال، إذ وجد نفسه، خطوة تلو خطوة، يتجه إلى عمارة «أبي كبير»، وهو الذي أدار ظهره لها غرباً، وأُجِهَ إلى الشرق، في الزرقة المفتوحة على كَمَيَّيها. نعم. كانت ثمت انعكاس للجهات كما في المرايا تماماً: «أ. دهر» يخوض في المياه شرقاً فبرى نفسه مراجعها للعمارة غرباً، دون أن يبدو أثر للسفينة التي دأبت على الرسو هناك، قرب

مدخلها كما لو أنها ترسو في ميناء. لكن، على الرصيف الملتصق أمام العمارة، بسبب الرطوبة الخفيفة، ارتفعت خيام متقاربة باكتظاظ، وامتدت حبال غسل بين أعمدة هنا وهناك، ونناثر في المكان بطن ودجاج، وعرابات خضار منخفضة، وطاولات وطبقة كالحلوة يجلس إليها محاربون قلقون، وأطفال يجرون صفائح فارغة من خلفهم، مربوطة بخيوط، وبراميل مطلية بالقار وقف البعض عليها ملقياً بشصوص الصيد في الماء، وطواويس افردت أذيالها، غائدة رائحة، في وداعة، بمنمنمات اللون وسط الصخب ذاك.

ماذا كان في استطاعه أن يفعل؟ لقد تقدم - إلى حيث قدّر له أن يتقدم - صوب العمارة ذات الرصيف المكتظ، فخرج من الماء بكامل ملبسه التي أعارته الحولاء من خزانة زوجها، وإذا تطلع إلى الوجوه التي انبسمت له كما تبسم لطفل سقط في الماء على غفلة، رفع بصره إلى شرفة الطبقة السادسة، حيث شقّت، فألقى خمسة ينظرون إليه من هناك، متكئين بصدورهم على سياج الشرفة الحديدية، فاندفع، بفضوله، إلى بهو العمارة ليسلق الأدراج، فتبعته الطواويس وحدها من بين كل الطيور التي كانت هناك. هكذا. تبعته بأذيالها المختالة كزينة لا مكان لها، فتوقف والماء يتسرب من ثيابه إلى عقيقه، فجاوزته وهي تعبر الأدراج قفزاً، فتبعها وإطناً أرجلها حيناً، أو مرتطماً بها حيناً آخر، ضاحكاً من إجحالاتها، أو صارخاً ينهبها: «يا بنات الله».

«يوم الأحد خلّق عزرائيل، وهو «طاووس ملك»، رئيس الجميع»، ذلك ما يقوله كتاب إحدى النحل الشرقية، ويضيف: «يلي رئيس الآلهة «طاووس ملك»، الذي يتولى سنّ الشرائع، وينزل بنفسه إلى الأرض».

وماذا في استطاع «أ. دهر» أن يتذكر من قراءاته القليلة؟ كان متعلقاً بصحيفة أسبوعية تصدّرها صور نساء أميرات، يجعلن من أنفسهن - دون تصريح - شريكات لله في يقين الشاب و يقينه العائم كالزيت على الماء. أما الطواويس فتستثير فيه رهبة ما، يمازجها افتتان، من غير أن يتنامى إلى سماعه شيء من كتاب النحلة الشرقية المعتصمة بجبالها أسماؤها، وثلوجها. وها هي تتقدمه قليلاً، أو يتقدمها قليلاً، على الأدراج في عمارة «أبي كير»، وفي ذاكرته

أخبار رقيقة عن تنافس السفارات الأجنبية في اقتناء هذه الطيور، مبالغاً منها في تغليب الجمال على آلات التنصت، وأحابيل أشباحها السرّيين.

طواويس... ولماذا لا؟ إنها تلامس قدمي «أ. دهر» في صعوده إلى الطبقة السادسة، ولما يفتح باب شفته داخلاً تدخل معه، منجبهة بغريزة ما إلى الشرفة، لتقفز إلى سياجها غير العالي، كأنها تستشرف المدى المائي مثله، فيما يرمى، هو، في اطمئنان داخلي، تلك السفينة التي لم تزل راسية أمام رصيف العمارة.

كان ذاك فيها مضي من وقت غابر، أو هكذا بدا الأمر لـ «أ. دهر» بعد عودته من المستشفى، ذلك اليوم الذي استوقفته فيه جارته، والذي لم يجد فيه ما يستحق به فدلّف إلى المرأة، عارياً، ثم لم يخرج منها، لأن ما من أحد تذكره آنئذ، أو بعد ذلك، ليتمّ خروجه من مرآة بيت آخر. أي، بتأكيد يمكن البرهان عليه، بقي «أ. دهر» بين أنصاره الصارمين، في الفسحة المديدة غير المنظورة فيما وراء المرأة، في الفسحة الرّجبة الممتلئة جسوراً يشتغل عليها آلاف صامتون، وقد امتدت أطرافها، بشكل قوسي، من المدينة إلى الزرقة الموعلة في مياه البحر.

بالطبع سيبقي «أ. دهر» هناك، حتى انهيار عمارة «أبي كير»، بعد أربعة أيام من ذلك الوقت، أي إلى حين ظهوره على سطح السفينة التي تبتلّ المحاربين غرباً، وسط نظرات الخمسة اللا مرثيين، المكثفين بالتدقيق في مصيره المثلن الذي لا يحوجه تدقيق. وكأنها التيس الأمر عليهم فظنوه اختفى لحظة انهيار العمارة، كغيره ممن اختفوا، وظهر بعد ذلك بأربعة أيام على سطح السفينة. لكن الواقع أنه اختفى في المرأة، قبل انهيار العمارة بأربعة أيام، مما يجعل محصلة اختفائه ثمانية أيام: أربعة قبل انهيارها، وأربعة بعد انهيارها. وهذا ما غاب إحصاؤه على اللا مرثيين الخمسة، ذوي الكثافات التي لا تحصى، فأسقطوا من حسابهم، وهم الموكلون الصارمون بالتدقيق، أربعة أيام تاهوا فيها - بنفوسهم - كمرثيين، في التحرف على حدود أشكالهم المرئية.

أثمت حاجة إلى سرد ما فعله «أ. دهر» قبل انهيار عمارة «أبي كير»، منذ

دَخَلَ المرأةَ ولم يخرج منها؟

تقدّم هناك، في الجهات الأكثر خراباً من المدينة، بأنصاره، وهم يسجلون مواقع العمارات، وزوايا الشوارع، والفراغات التي تجعل هذه الجهة، أو تلك، أقدّر في السيطرة بأسلحتها. وفي تقدّمه ذاك كان يقع على أفراد من آخر طبقة في «طبقات اللصوص»، محمّلين بالسواح حجرية من أراضي البيوت، في إرهاب يُزيده بخس الغنائم. فقد تولّت ثلاث طبقات، من قبل، نهب الأغل، بحسب تدرّجه، في مناطق الحرب المتوجهة: الأولى، وهم المتحاربون أنفسهم، سطّط على النفيس، ذهباً وجواهر، وحلي أخرى. والثانية تسلّلت بتغاضٍ من المتحاربين أنفسهم، أو بتغطية منهم، فنبهوا الأثالثات. أما طبقة اللصوص الثالثة، التي لم تتمتع بحصانة الانتباه بنسب إلى المتحاربين، فقد تقدّمت إلى الأمكنة التي جلا عنها المتحاربون وأقرباؤهم إلى أمكنة أخرى بعدما استفدوها. ولم تكن لتتفع، بعد تلك الاستباحة، إلا على زجاج النوافذ وإطاراتها الخشبية، وكذلك بعض الأبواب. وكانت هذه الغنائم قليلة على أية حال، بسبب القصف وحرائق القصف، أو إشعال النار فيها، عمداً، ليتدفأ عليها حراس الخطوط الخلفية ليلاً.

نعم. كانت الجهات الأكثر خراباً، التي تقدّم فيها «أ. دهر»، مرّتها مرّتها للطبقة الرابعة من اللصوص المُرهبين، فلم يُعجزهم التفاتاً، ولم يعبروه. كذلك لم يُعجز المحاربين الذين دخلوا المسلّح الكبير، غربي المدينة، على خيول شردت بعد تحوّل حلبة سباق الخيل إلى مكان مواجهة بالمدافع المباشرة. التفاتاً، وهم يطالبون بحصص يومية من أكباد الخراف. أما الذي شغله قليلاً، وأثر أن يدوّن أتباعه شيئاً عنه، فهو المنطقة التي لم يُعزّ كثيراً بتحديد موقعها، وكان سكانها لا يطأون الأرض قط في مجوالهم، بل ينصبون السلام بين الشرفات، ويصلون ما بين العمارات بجسور قصيرة. وما كان، بالطبع، ليُخفي السبب في ذلك، نظراً إلى الأحافير في الشوارع والأرصعة، مما يدل على حقول الغام، كما بدت البوابات مفضّخة على نحو واضح، كأنها جرى الأمر في عجلة خوف اقتحام مفاجيء للمنطقة. والواضح، أيضاً، أن خبراء الألغام «الصغار» قد

نسوا العودة إلى إزالة الألغام، بعدما تأكّد، عياناً، أن ما من أحد اقتحم شراً من تلك الشوارع والعمارات، فبقي الأمر على ما بقي عليه: موت ساهر على مرمى ظلال الناس، وأناس على مرمى ثائرة الموت.

لا يعرف «أ. دهر» كم من الوقت بقيت تلك المنطقة على حالها، بعد رحيله، لكنه، آنذاك، وهو يرى العابرين فوق الجسور والسلام، خطّ كلمات قليلة في ورقة وأراها لأنصاره، فتداولوها بينهم، ثم أضافوا إليها تعليقات حتى امتلأت، وأعادوها إليه فطواها هامساً: «هذا برنامجنا. سنعيد ترتيب المدينة». خارجاً هناك، في المرأة، ليس على «أ. دهر» إلا أن يعيد ترتيب روحه. فالمشاهد تنحلّ وتتداخل، وتلدّ الصورة شقيقتها: انظروا: هذا هو «القناة الثامنة». إنه يسمّي نفسه «القناة الثامنة». نحيل ضائع يحمل تلفازاً صغيراً ذا مقبض من الأعلى، ويعترض المارّة: «أنا القناة الثامنة. انتظروا البثّ جئنا». هكذا، قرّر أن يكون «القناة الثامنة»، وليس في تلفاز المدينة غير قناتين. انظروا: هذا هو العريس الذي وصل في مصفحة إلى بيت عروسه. وهذه آثار أقدام آدمية على الهواء، لأن الشارع بات معكوساً بالخاصة ذاتها التي تجعل المشاهد مقلوبة في سراب الصحراء. هذا هو الشيطان الصغير، المتوسل أبداً إلى الأطفال كي يدلوه على طريقة يخفي بها نفسه. هذه الجماعات الزرقاء، التي ترونها في الآليات المحترقة، هي التي خرجت من الحبر الذي اندلق من قلم «القائد»، في المؤتمر العاشر لمهندسي الأنفاق والخنادق. هؤلاء هم بقايا حرس الدولة اللياليون. لن تفهموا لغتهم: كلّها إشارات بالمصاييح اليدوية في النهار. هذا هو موقف السيارات التي لا تغادر قط: يدخلها أصحابها لفترات هي المسافة الزمنية بين المكان ومنازلهم، ثم ينزلون منها دون أن تتحرك، ويمضون في حال سبيلهم. وهذا هو «السجن الخامس». إنه فارغ تماماً، وهؤلاء الذين يجرسونه، من الخارج، هم مسجونون سابقون، كانوا مشاغبين دمويين، فأخرجوهم، واحداً واحداً، موكلينهم بالحراسة مقابل أجر معقول، ولقب نظيف، فلم يارحوا الوظيفة حتى في الحرب، في انتظار روايتهم المتأخرة. وهذا البيت... أتسمعون الضجيج الذي فيه؟ أخلق صاحبه الباب على حشد من

الملائكة أخطأ التقدير في معرفة البيت الذي يقصده. والمكان الذي تدخله الملائكة، عن خطأ، يغدو كتيماً أمام أثريته جسومها فلا تستطيع اختراق جدرانها، ما لم يكن فيه منفذ. أما هذه الساعات الجديدة في معاصم البعض، التي تصدر ما يشبه الأنين، والمتصقة باللحوم، فهي آخر ابتكار جلبه المهربون، ومن خاصتها أنها إذا تأخرت عاد حاملها إلى الماضي بمقدار الوقت الذي تدل عليه عقاربها، وإذا تقدّمت عن خطأ، تقدم حاملها فصار في المستقبل، بالمقدار الذي تدل عليه عقاربها. أما مشهد محلات بيع التسجيلات الموسيقية فيبدو على غير ما تعودت الناس. إنها، وهي المحتفظة بكهربائها بفعل المولدات الخاصة، مكتظة بخليط من المدنيين الشاحيين، والمحاربين، وهم يضعون مجسات متصلة بالآلات على أماكن مختلفة من أجسامهم. بعضهم على الأذن، وبعضهم على السواعد، وبعضهم على الأقدام، وبعضهم على الظهر، وبعضهم على الأصابع. والحال، بحسب آخر غايات العلوم، أن الصوت الموسيقي يصير حُكراً على العضو الذي يتصل به المجس الشبيه بمجس فاحص القلب، أو الدماغ، فينقلب العضو إلى كيفية موسيقية بذاته.

خارج المرأة تنحل المشاهد، وتتداخل، أما «أ. دهر» فيعيد ترتيب روحه، طالما لا يتذكره أحد؛ وطالما ستهار العمارة دون أن يتذكره أحد. إنه ترتيب صغير لما تبقى من أيام. وهي، تحديداً، أربعة أيام، قبل انبهار العمارة: فليكن، إذا، ما ينبغي أن يبوخ به «أ. دهر»: «أنا. .». سينصت قليلاً، ف «أنا» هذه غير مشغولة بالثقة الممكنة لقولها. «أنا». آه. عليه أن ينطقها ثانية كمن يدرّب حنجرته. «أنا اااا»، وسينصت إلى رنين كلمته في ما وراء المرأة، حيث هو والمعرفة التي تمتحن نفسها على نحو مشاكس، معاً، يؤولان ما فاتهما. نعم. سينصت طويلاً إلى رنين كلمته «أنا»، وسيتشظى، فجأة، في الجهات كلها، ناظراً إلى أعضائه، كأنها يسكن خارجها، وهي تتطاير في حقة لا ألم فيه. سيرتطم بعضها ببعض. سيلتصق بعضها بإسمنت الجدران وبخشب الأبواب المتناثرة، مثل جسده المتناثر، في

الفراغ ذي الجاذبية. سيصل بعض أعضائه قبل الآخر إلى الأعماق المفتوحة للإنفجار، بينما يعلو هو - المنفصل عن خاصية الثقل التي يتمايز بها الدم واللحم عن كل شيء - في الويض، متجهاً، بالغبار الذي يتبعه، إلى الطريق ذاته الذي سيقبل منه جدّه القادم إليه قبل أربعين عاماً من مولده. وسيهتف هو، لا جدّه، هذه المرة: «لقد خدعتني».

نعم. انهارت عمارة «أبي كير»، فخرج «أ. دهر» من المرأة التي انكسرت، محسكاً بقبضه محصص للبعال عادة، وهو يتوعد: «خدعتني».

الفصل السادس

وصل جدّ «أ. دهر»، القادم قبل أربعين عاماً من مولده، إلى مشارف المدينة، بعدما أقلته آليّة من نوع «توربيدو». ولم يخطىء بالحدس الذي فيه الطريق الذي يؤدي إلى عمارة «أبي كير»، فمرّ بأزقة تفضي إلى طرق أوسع، وبيوت واطقة تفضي إلى عمارات أكثر عُلوّاً، تنتصب من فوقها أدغال من هوائيات التلفاز. وكان عليه، بالطبع، أن يتحاشى متاريس من الرمل تسدّ الشوارع بين أمتارٍ وأختها، بعدما بذت مقفرة في الهدنة الأخيرة قبل رحيل الراحلين على سفن صوب الغرب، وأن يطوي عباءته على ذراعه في إهمال، مخفياً تحتها القيد الذي جاء به، وسط ذلك القيقظ الرطب.

«لقد خدعني»، تلمّ الجُدُّ الشاب، وهو يعبر بخطوات واسعة زجاجاً وخشباً تناثراً في طريقه، أو يلتفت من حول جذع شجرة سقطت، بطولها، من جراء قصفٍ ما. لكنه، في تعقّبهِ الغريزيّ لخطى حفيده الخفيفة، لم يكن يابه للعمارات الغريبة على وافرٍ مثله، فيجاوِز أن ينظر إليها نظرة تمعّن، بل يُطرق في مشيه، ملتفتاً بعيني أعماقه الترابيتين إلى المنزل الذي خرج من باحته متوعداً حفيده: «خدعني».

«خدعني»: وحده الجُدُّ الشاب يتقن ترددها كحاشية عباءته التي تعفرت بعقبى حدائه، بعد مغادرة منزله ذاك، الذي يلتفت إليه الآن بعيني أعماقه المبتلتين بالحنين وبالغضب معاً. ولربما إذا التفت إلى ظله في الشارع، المزدّثر بالركام، ألفاه ملقن لا على الشارع بل على سور الخروب المحيط بساحة منزله الذي غادره. وإن حاول العودة إلى هناك؛ حيث لم يكن جدّاً بعد، فما

عليه سوى الالتفات إلى الخلف، بزفرة تدلّ على تعبٍ من هذا التعقّب المقلق، وسيجد نفسه وسط الجالسين على بساط ممدود في ظل المنزل اللبني، في ريفٍ ما، هادئاً، ليس يستثير فضولهم وظنونهم بكلمة «خدعني حفيدي»، حين لم يكن له حفيد قط.

لكن الجُدُّ الشاب يلتفت، إلى البعيد المسحور، بأعماقه لا بعينه المطرقتين، ويؤثّر أن يكمل خطاه العجولة، بغريزة القنّس، صوب عمارة «أبي كير».

.. والعمارة هناك. مثلها مثل أية عمارة أخرى تقوّضت جداراً على جدار بفعل تخطيط محسوب، وكُم من المتفجرات يفي بالمهمة. وقد احتشد من حول الانقاض من احتشد: الهلّعون والفضوليون معاً، وعاربون كثر يمرّون أصواتهم العصبية، وأسلحتهم أيضاً، فيطلقون رصاصاً في الهواء دون سبب ظاهر، إلّا حين تأتي الجرافة، فيجدون في الإفراح لها مبرراً لدفع الناس بالمسالك والقبضات: «ابتعدوا»، فتتفرّق الحلقات متفتحة لئلاّ الهادرة بنجاح أشبه بالنجاح الصاعد من أعماق الرّدَم الإسمنتي، ثم تتغلّق من جديد على هاجس أن ترى أول جثة تؤكّد - بالبرهان - فداحة الموت.

نعم. العمارة هناك، في صورتها الثانية التي تجعل الشكل مترفّعاً بالنقائص، والجُدُّ يستجلي بعينه منفذاً بين الحلقات لينضم، بدوره، إلى الباحثين عمّا يرضي غريزة الرعب. غير أنه كان أكثر تأملاً في مسعاه، وهو يتنقل دائرياً من خلف الجمع المتناثر، كأنها يقصد أن يرى مشهداً بعينه، أو يستوضح الخبر من أناس يعرفهم. وبعد جهد ليس كبيراً، بذّا أكثر رصانة في ملاحقه، وأقلّ فضولاً، متهيئاً ليسأل، في ثقة، سؤاله الذي حضر من أجله.

كانوا خمسة أولئك الذين بادروهم الجُدُّ الشاب: «لقد خدعني». وكان في كلياته غير المتسائلة ما يبحث، في وضوح، عن جواب لائق. فاستداروا إليه، وهم المنحنون على حفرة كشفتها الجرافة النايحة، ثم التفت كل واحد إلى الآخر، مستوضحاً بأعماقه: «أيرانا؟». فبادروهم الشاب ثانية: «كنتم تعرفون أنه خدعني؟».

- «نحن؟» تساءلوا، فردّ:

- «ومن غيركم؟» .

- «بِمَ خدعَكَ؟» سأله، فردّ:

- «بهذا كُلُّهُ» وأشار إلى الأنقاض .

فبادروه، هم، سائلين:

- «أُعرفُ . . .» فقاطعهم:

- «أُعرفُ . لم يكن في العبارة» .

فصرخوا معاً: «بِمَ خدعَكَ، إذا؟» .

ابتسم الجُدُّ الشاب وهو ينظر إلى الجرافة ترفع جداراً بأكمله، ثم انسحب، دون أن يلتفت أحد إلى عباة الغريبة، وحطته السميكة التي تدلّت ذؤابة منها على أذنه اليسرى، ثم غدّ الخطى مبتعداً، عائداً من حيث قَدِمَ، فلحق به الخمسة ذور الهيئات المفرطة في كثافتها. وإذا أحسن بهم من خلفه التفت سائلاً:

- «ما الذي تريدونه؟»، فهمّمهموا:

- «نريد أن نستوضحَكَ أمراً يشغلنا»، فردّ وهو يستدير ماضياً:

- «لستُم موكّلين بي» .

حين صار الجُدُّ الشاب خارج المدينة، على الطريق الترابي الذي يصلُ الساءَ القريبةَ بسلامٍ أخرى، تحسّس القيدَ الحديدِيَّ المتدلي من حزامه، هامساً:

- «سأخدعَكَ» .

الجزء الثاني

(الحكاية كما ينبغي أن تُروى)

الفصل الأول

هضبات من الرمال تزداد علوًا بفضل السواثر الخشنة من نبات الأثل
الأخضر، التي بنّها الله في العراء ذاك، وهضبات أخرى تنزح فتستوي
بالأرض، تحت جراءة الريح، لأنها لا تُلقي ما تشبّث به. أما المياه المقطومة
على وحشتها، هناك، في ما بعد العراء الرمل، فكانت أقلّ ألقًا، إذ ليس من
بشر يعاندونها أو يتوسلون بها.

على مرمى قليل من السفوح الغربية لسلسلة الجبال، إذا، كان البحر.
وكان يفصلهما سهل رملٍ مستسلم لوقت مختبئ، بين الأثل القصير. وكانت
ثمت مداورات كاللعب بين البحر والجبل ليتقدم أحدهما في اتجاه الآخر.
البحر ينفخ الرمل شرقًا، والجبل يذروفتات صخره، قرناً بعد قرن، غرباً، فيما
كان على الوحشة أن تستوي كالميزان وسطهما.

لم تكن للمساحة المرسومة، هناك، ما يقتضي الوصف. فالذي ينظر من
السفوح الوطيئة القريبة صوب البحر، لن يرى إلا المشهد المتعاقب ذاته: رمل
وراء رمل، أثل متشبّث بالأرض في دُفء، ورطوبة تشتغل عليها رئة كالقيامة،
ومن ثمّ مياة إلى أبعد جموح للمياه. أما الذي ينظر من جهة البحر إلى الجبل
فلن يرى، بدوره، إلا المشهد المتعاقب ذاته: رمل وراء رمل، وأثل منكود،
وشجر يستر المسافة بين الأكمام، ومحجب الوديان، ومن ثمّ يتدرّج في اخضراره
حتى يغدو، في البعيد، أزرق غامقاً، لالتصاليه بشقيقه الفضاء.

إنه المشهد ذاته في كل أرض تجاور البحر، رتيب قديم، مُخلص
لتعاقبات النهار والليل. لكنّ حَدَث أن اقتحم سربٌ من الماعز، فراغاً صغيراً

من المكان ذاك، مسوراً بالصَّبَار، فبات على الوصف أن يجد كلمات أخرى تنقطع منها وتابعة سياقه.

سرب من الماعز، وعائلة من رجال ونساء وصبيّة لا يجاوزون العشرين، وظهيرة مفتوحة لرياح الربيع: كل هذا اجتمع معاً في حاكورة صَبَار تقع في المسافة الأقصر بين الجبل والبحر، فقامت ركائز وعَمَدٌ، وانبسطت خيام صغيرة ثم غلّت على الأوتاد.

هناك، قطعاً، في الأرض السرملية تلك، كانت الشهوة الخفية لأساسات عمارة «أبي كير»، التي سترتفع بعد زمن.

الفصل الثاني

ليس بحفنة من الناس، وسرب من الماعز، تجرد الأرض غير المسكونة أوّل الأثر في اتجاه التاريخ. على أشياء أخرى، وكائنات أخرى، أن تحضر أيضاً، لتبدأ خطوة القيّاف. فلم يكن كافياً، على سبيل المثال، أن تنضم بعض العصافير إلى الخيام الصغيرة التي ارتفعت في حاكورة الصبار، بين بدايات السفوح والبحر. وكانت العصافير تلك كسولة، لا تتجشّم أن تتعد صوب الأدغال القريبة، فتؤثّر النفائات القليلة التي يخلفها القادمون أوّلئك بماعزهم، أو تتغذى ببعوض أكثر كسلاً، لا يغادر الأثّل، وإن غادر فإنها يحطّ على الأيدي فلا يطير بعد ذلك حتى يسحقها الملدوغون.

ولم يكن كافياً، أيضاً، أن يقتني أوّلئك الوافدون بماعزهم كلاباً باتت تشرّد على طول الشاطئ، راکضة وراء السلاحف الشاردة والسلطعونات. أمّا الجعل الحشرات فكان ظهورها كعذميه، بين البعّ المتناثر حول الزرائب المسورة بأغصان قصيرة كانوا يأتون بها من الدّغل القريب، كل يوم، حيث يرعى الماعز بين الصخر الرمادي المشفق، في المكان ذاته الذي سيرتفع عليه، بعد سنين عديدة، شركة للإسمنت المطحون.

يمكن التكهن، في هذا المسار، بأهمية ما لظهور عائلة أخرى، ضئيلة العدد، إلى جوار العائلة السابقة، نصبت خيمة واحدة، اتخذت نصفها زريبة لعدد من الخراف والماعز، وبضع دجاجات سمينة لكثرة ما تأكل الرمل، يقيناً؟ لا. لم يكن مهتماً قط أن تظهر آلاف العائلات، بأسراب من الماعز والغنم تُحشّر حشراً بين السفوح والبحر. ولم يكن مهماً أن تتكاثر الكلاب

بين الأثل وبين الخيام؛ وأن تظهر رفوف يام بري في المكان ذاك نهراً، وتختفي في الأدغال بعد ذلك، أو أن تصير السلاحف والسلطعونات أكثر جسارة فتدخل الزرائب؛ وأن تظهر أعشاب رخصّة، وأزاهر تبدأ ذابلة وتنتهي ذابلة، في أمكنة النفايات المنقولة من موضع إلى آخر.

لا. ما كانت الأرض غير المسكونة، من قبل، لتجد المدخل إلى التاريخ بكل هذا وحده. فعلى الغيب أن يشتغل أيضاً، بأنواله، وحيله، وسيروراته المتقطعة، وفكاهاته، كأن يُطلق سراح جميع خليط من الكائنات الرقيقة تلك، المختصة بالشؤون الذكيّة التي قرّر الأنسيون ألا ينسبوها إلى أنفسهم. أي: أن يُطلق الغيب، في كل مكان يصير أهلاً، كالمكان ذاك، سراح ملائكة صغيرة مغلوقة على أمرها، وشياطين صغيرة مغلوقة على أمرها.

ذلك، قطعاً، ما سيجعل للمسافة بين السفوح والبحر تاريخها، إذ سيجد هؤلاء الوافدون بماعزهم، وخيامهم الواطئة الضئيلة، ما ينسبونه إلى غيرهم في تحليل الخصومات التي ستنبثق يوماً بعد آخر، بين ابن وأبيه، وأم وابنتها، وأخ وأخيه، وجار وجاره، وخيمة وخيمة، وعمود وعمود، حتى تمتد الخصومة إلى الماعز ذاته، فينطخ التيس التيس، والجذّي الجدّي، وتأكّل الحراف أصواف الحراف من غير جوع.

سينسبونه إلى غيرهم. سينسب الوافدون الرياح المجهمة إلى كآبة الجد الميت، والصواعن الأكثر طيشاً إلى رضى الجدة الميتة، وأمراض الماعز إلى فسق الآباء، واحتدام البحر إلى خلل في نوايا الإنسان، وإنجاب الذكور إلى فضيلة القلب الصالح. أمّا تلك الكائنات الرقيقة - المختصة بالشؤون الذكيّة التي قرّر الأنسيون ألا ينسبوها إلى أنفسهم - فستجد في هؤلاء الوافدين ما يرتفع بضجر الغيب إلى مستوى ولادة مكان له رمل، ويعوضه، وعصافيره، وماعزه، وسلاحفه، وسلطعوناته، وخيامه، ومعدّتون من لحم وعظم ذوو فروج وأحبال، وأطفال فاجرون ينمو معهم القتل كحروف منطوقة؛ وكذلك له تاريخه المستولد من الحروب الأكيدة المقبلة.

هكذا، محديداً، أطلق الغيب سراح ملائكة عذبة صغيرة، وشياطين

عذبة صغيرة، في الفسحة غير المديدة بين السفوح والبحر، حيث سترتفع عمارة «أبي كبير»، ذات يوم، على أساسات من الإسمنت والصخر.

الفصل الثالث

سياجات مضمفورة - في خشونة - من الأثل والأغصان الطرية ارتفعت من حول الخيام ، وطيفة أول الأمر ، ومن ثم حلت أكثر ، بحسب هيئة كل عائلة في جمع الأغصان والأثل . وكانت دائرية في البداية ، موضوعة على عجل . لكن السياجات تلك غدت ، فترة بعد أخرى ، أكثر هندسة ، على أشكال مستطيلة ، ومثلثة . واستبدل الأثل والغصون بجذوع مثبته في الرمل ، وعوارض من الخشب المنجور بمساحيق من حديد ، وقد دقت فيها مسامير تثبت بها حدود البغال ، عادة .

أما الخيام ، ذاتها ، فاستعوض عنها ببراكيات ذات جدران خشب ، وسطوح صفيح تنفجر صاخبة في الريح .

ذلك كان التوزيع الهندسي الأول للمربع الرملي ، الذي سيفرض بيدبن لبتين على أساسات عمارة «أبي كير» .

الفصل الرابع

كان على المصائر ، كمادنها ، أن تتحدد مسبقاً ، لكن بتفاوت في المقادير ، بحسب رغبة الشخص ذاته ، أو العائلة ذاتها ، أو المكان بكل ما فيه . ولما اجتمع في الفسحة غير المديدة بين السفوح والبحر أناس يشكلون عائلات ، بمساكنهم ، وسياجاتهم ، وماعزهم ، وأغصانهم ، فقد بات على المصائر أن تعلن عن نفسها .

كل العائلات ، التي سورت بيوتها الخشبية ، لم يكن لديها ما تعلق عليه ، فالغد محسوب ، وليس على الشخص الواحد ، نصف البالغ ، إلا أن يجدد لنفسه الخطوط الأكيدة التي يجدها مناسبة - دون إسراف - لبقدره ومقامه ، في الزمن .

لكن المسألة القديمة ، التي توطدت مع الذرات الساخرة الأولى للكون ، بسطت ظلها على الفسحة المبسطة بين السفوح والبحر ، أيضاً . وخلاصتها أن الآدمي لم يستقر ، قط ، على تحديد ما هو محوّل بتحديدده . إذ كانت معرفته التي تنامي ، يوماً بعد آخر ، على هذا النحو أو ذاك ، تقوِّض بقلعها ما يكون قد استقر عليه . فما يقرره اليوم ، مثلاً ، يصير عرضة للإضافة عليه غداً ، حين يرى هذا الآدمي أن ما قرره ، كمصير ثابت لنفسه ، لم يكن كاملاً .

والمعرفة - كمادنها - ملاك القلق .

والمعرفة من خواص الآدمي ، لذلك هو كائن القلق بامتياز .

فما الذي يمكن الاسترسال فيه ، إذاً ، أمام مصائر تعلن عن نفسها ، مسبقاً ، للآدمي الذي يعيد ترتيبها في قلقه؟

هكذا، في بساطة معهودة منذ القدم، ستغدو المصائر المعلنة غامضة، في المكان الذي سيرفع بيدين لئيتين أساسات عمارة «أبي كير».

الفصل الخامس

شعرها كان طويلاً؛ شعر تلك المرأة التي نظرت طويلاً، من فوق السياج، إلى ابن جارها، كأنها لم تكن لاحظته ينمو من فتى هزيل إلى شاب لا تخلو بشرته المحترقة من وسامة أخطأت من قبل في تقديرها.

بعد عشر سنين من قدومها مع زوج مبتسم أبداً، وطفل في الثانية من عمره، كان عليها أن تلقي نظرتها المتأمللة تلك على ابن جارها، من فوق السياج، فابتسم الشاب في حجل، فاستدركت هي، قائلة: «تبدو شاحباً»، ولم يكن - هو - شاحباً، بالطبع.

كانت امرأة عادية. كان شاباً عادياً. وكانت العلاقة برمتها، قبل تاريخ تلك الجملة، عادية بدورها، كما ينبغي، بين امرأة كانت ترى فيه صبياً قذراً اليدين، يضرب ابنها ويسرق الدجاج، وبين شاب كان يرى فيها امرأة تنهدده أبداً، وتعزو إليه كل أمر مرذول يحدث من حول سياج بينها.

نعم. جرت الحكاية الصامتة كلها من فوق السياج؛ من النظرة المتأمللة تلك التي استحدثت تاريخاً جديداً في مسيرة عمرين، لكن بتدرج كأنها يجاهد القدر المحسوب أن يجعله مثيراً أكثر.

والواضح الذي ينبغي قوله هو أن المرأة كانت تحب زوجها، دون ريب. كان يدللها وتدلله في ذلك الوسط الرملي الخشن. كانت تداعبه على مرأى من الآخرين، ويداعبها. كانت حنونة معه، وكان حنوناً معها. كانت مؤدبة معه، وكان مؤدباً معها، على نحو غير معهود في أولئك الرعاة المستقرين.

إنها تحب زوجها بطمأنينة من هدى قلبها. إنها تحبه. إنها تحبه. لكن

السيرورة المُحكَّمة التي تَبْدَعُ، أبدأ، بدايةً ما للأشياء، ألهمت المرأة أن تلقي بنظرتها المتأملّة تلك، من فوق السياج، على الشاب، وساقته، بعد ذلك، إلى باب بيتها، فلم يتعفّف.

كانت تحب زوجها دون ريب، لكن كان على خيانة أولى أن تتوطّد - بالضرورة - في المكان ذاك الذي سيُشهد، بأعماقه، أساسات عبارة «أبي كبير».

الفصل السادس

الرقم السادس، عادةً، رقم مُعْضِلٌ. فهو ستة، فقط، يليه سابعٌ يلغيه ويلغى نفسه، في أصل تعداد أيام الله والإنسان معاً. وليس في مقدور أحد، يقيناً، أن يجعله نهاية الأرقام، أو بدايتها. فما العمل؟ لا شيء. الرقم السادس مُخْتَزَلٌ - بالمشيئة الدفينة للأرقام - إلى تبعيّة مُطلقة للرقم السابع الذي يحمل على كتفيه ثقل الكون كله، والأبد الممتلئ، براحته الله.

وهذا الاستطراد في ذكر الرقم السادس لا مبرر له، هنا، لولا عبارة «أبي كبير» التي كانت سابع عبارة قامت في المكان ذاك، بعد أمّ لا يُستهان به. وللتوضيح أكثر لا بد من الإشارة إلى قيام أبنية اسمنتية ضئيلة الارتفاع في المسافة تلك بين السفوح والبحر، متجاورة، وعلى مدى يجاوزُ فراسخ كثيرة، لكن الاحتكام الحقيقي إلى مستوى البناء، ونوعه، كان يتم بناءً على ظهور العمارات العالية، ذات الطبقات التي تزيد على العشر. لذلك جرى إحصاء عبارة «أبي كبير» كسابع بناء عالٍ، بطبقاته الثمانية، بين الأبنية التي ارتفعت، دون تحاور، في المكان ذاك.

لقد كان على حكمة ما، مكتفية بذاتها، أن تردّ للرقم السادس - المُعْضِل - اعتباراً كتوقيف غير محسوب للأرقام، كسخرية، كشطوط، كتوارد للمخاطر بين العدم والأكيد. نعم. كان على حكمة ما، مُرفهة، أن تفوّض عبارة «أبي كبير» عموداً على عمود، وجداراً على جدار، لأنها تقع في الترتيب السابع للعمارات، وهو أمر يترتب عليه إشكال فاحش في البحث عن مغزى أن يكون لأي شيء ترتيبه السابع بين الأرقام.

كانت عبارة «أبي كبير» هي السابعة، بين العبارات الأولى التي انبثقت،
عالية، وسط بيوت واطئة على مدى البصر، وكان عليها أن تنهار، كتعويض
عن قُصُورها في أن تكون رُفياً آخر.

الفصل السابع

قبران مجاورا، أول الأمر، في الجهة الجنوبية من المساكن المسورة ذات
السقوف الضئيل، ليؤسس مقبرة لم يزد تعداد موتاهما على أربعة. لكن ارتأى
القادمون الجدد، الذين أعقبوا رعاة الماعز، أن يقيموا مساكنهم إلى الجهة
الجنوبية أيضاً من المساكن القديمة، بسبب من اتصال البحر بسفوح الجبال
أكثر في تلك الناحية. ولما كان على المقابر أن تكون على تخوم التجمعات
السكنية، لا وسطها، حتى يتوفر للأرواح مدي غير مغلق، فقد قامت مقبرة
جديدة شمال تلك المنازل. أما القبور الأربعة، تلك، فإنما سوي أمرها، فيها
بعد، حين باعها أصحاب الموتى، مُتشاركين في اقتسام الثمن، إلى حلاق
يعمل طبيباً، وبيطرياً، وبناع صابون معطر، فأقام على كل قبر عموداً من
الإسمنت ليبنى حائوته، ومسكنه فوق الحائوت المستطيل.

لم تقترب الأرواح كثيراً من المنازل التي لا يزيد علوها عن طبقة واحدة،
إذ كان عليها أن تتأمل، من تلك المقبرة المطوّقة بالرمل، جهات أخرى بين
سفوح الجبل والبحر، شرقاً وغرباً وشمالاً؛ وأن ترسم المخارج المحتملة لنزهاتها
فيها لو امتلأ ذلك المكان كله بأبنية قد تحيط بالمقبرة الشمالية نفسها.

نعم. كان على الأرواح، أيضاً، أن تشتغل بهندستها على ترتيب
المكان، ناصبة أعمدة غير مرئية، وحدارناً شفيفة، وسياجيات من ألقي المغيب،
وحدائق لا يمسها إلا الليل. ومن ثم قُسمت المكان إلى مقاطعات، وعُيِّنت
لكل مقاطعة طرائق خاصة للتدخل في شؤون الأحياء. لكن حين قامت عبارة
«أبي كبير» لصق المقبرة تلك، بعد زمن، تدخل ساكنوها في شؤون الأرواح

أنفسها، حتى لم يعد معروفاً مَنْ يسهرُ على بسراج مَنْ، وَمَنْ يعبثُ بمصير مَنْ
عَبَثاً له طابعُ المزاح.

الفصل الثامن

كان البحر يتفكر طويلاً في الترتيب الهندسي الذي يجري أمام أعينه
الكثيرة، على الجبهة الشرقية للأفق المشتت بسفوح الجبل، وهو يوازن، من
مُكمنه الواطيء المستوي بالأرض، بين بيوت ضئيلة تهبط ليرتفع في مكانها أبنية
أكثر رصانة، وبين قبور لا شواهد لها، وقبور ذات شواهد، وأسراب ماعز
تُسَبِّدُل، رويداً رويداً، بالآلات صُخَّابة لم يكن آخرها قطار الفحم الحجري،
الذي يطحن ثروة البحر ذاته بمجالات تستولد الشَّرَر، لصق الرمل الرطب
المنتزج بآخر عبق للموج.

وكان البحر ذاك - الذي يتفكر طويلاً في الترتيب الهندسي لما يراه - بحراً
أحقّ على أية حال، بركونه الثابت إلى الحركة ذاتها المتوقّدة بالزبد الشبق، وإلى
الزُرقة المتدرجة بحسب مسافات معلومة تماماً، وإلى ذلك، كله، الضَّجَر الأكبر
للمدى الملتصق بهيكل الفضاء العظمي.

بحرٌ أحقّ، بعيد، ذو هوية من رذاذ، كان يُلَوِّحُ للناظر إذا وقف على
سطح عمارة «أبي كبير»، التي ارتفعت أساساتها، بعد زمنٍ من ذلك التأمل
الهندسي للبحر في ما يجري بترتيب هادئ أمام أعينه الثابتة الكثيرة.

الفصل التاسع

المزيج السائل من الإسمنت والحصى يتغلغل عميقاً، عبر القوالب الخشبية الطويلة، المنتصبة كأعمدة في الأرض المحفورة، والتي تنبت من حوافها قضبان حديد هي هياكل الأساسات في الأبنية.

ههيات كثيرة كانت تدور في المكان. ههيات وعرق، وأيدٍ معروفة تصب صفائح من الإسمنت السائل في القوالب الخشبية. وكان النهار هناك أيضاً، بشعاعاته التي تخترق القوالب قليلاً، ثم يسدل الإسمنت عليها ظلامه الصلب. وكان الظلام، نفسه، يزداد كثافة بفعل الثقل الأكيد للسائل الذي يتخثر رويداً رويداً، فيندو الكتل منصهرات، بعضه في بعض: الظلام، والإسمنت، والههيات، والعرق، وما يُحسب في الثغرات من ضوء طاف كالزيت، وحشرات صغيرة جانحة، وملائكة، ورسائل مهموسة، وتعب، وشكاوى بثها عمال البناء، وملاسنات قصيرة بين المتعهد والمالك، وهواه شارد، وحكايات قليلة سردها قليلون، وشتائم، ووعود من الله يحملها غبار الطلع في شجرات الصبار التي بدأت تنقرض، في المدى الرملي، الممتلئ - الآن - بالبيوت، هناك.

أعمدة ترتفع. أعمدة من إسمنت صلب خلعوا عنها قوالبها الخشبية، فتنفس الجنين الهندسي، الصاعد كلعبة إلى الضوء، هواءً ثقيلاً من مسامه الصماء. لكن الذين نزلوا من السفن الخشبية الكبيرة، التي رست غرباً، رفعوا مناظيرهم النحاسية الطويلة، للمرة العشرين في اتجاه تلك الأعمدة، متممين: «ما هذا؟».

وكانوا قد رفعوا مناظيرهم، قبل وصولهم الشاطئ، غير مصدقين. ولما ألغوا المراسي، وأنزلوا القوارب الصخيرة هابرين إلى تخوم الرمال الرطبة، تأكدوا من جديد، فألفوا - عن حق - أعمدة من إسمنت رمادي ترتفع في الموضع الذي حُصنوه ممراً لهم إلى الجهة الثانية من ذلك العراء المتشعب بالسفوح.

لقد أفردوا أمامهم خرائطهم، وتأملوها طويلاً وهم يهزون رؤوسهم تدليلاً على خلل حاصل لم يكن في الحساب. فالواضح أن الخطوط المرسومة لعبور أولئك القادمين من البحر - ببنادق قديمة طويلة، ومدافع من حديد سميك، ومنجنيقات، وسلالم، وأبراج خشبية محمولة على عجلات ضخمة أنزلوها تباعاً إلى الماء، ثم جرّوها بأسراب من الجواميس - كانت تقضي اجتياز أرض عبارة «أبي كبر»، فاشقّط في أيديهم.

الساحر في نظراته، المسك بناظور مطّعم بالعاج، هههم من موقعه بين الرجال الغاضبين:

- لن أفعل شيئاً. درسنا كل احتمال إلا هذا. لم يكن مقدراً هذا الهيكل أن يُقام هنا. لن أفعل شيئاً.

واستدار، دون أن تفارق السخيرة عينيه: «خيّموا هنا. سننتظر توضيحاً».

وفي انتظار توضيح لن يقدمه أحد، امتلأ الشاطئ، من شماله إلى جنوبه، بالخيام التي نصبها أولئك القادمون من البحر، لكنهم تركوا مسافة لا يستهان بها بين خيامهم وبين المنازل التي قامت وسط المدى الرملي الذي تحدّه سفوح الجبل، مُنكبّين - أبداً - على قراءة خرائطهم، المرة تلو الأخرى، وقد نشروها على الأرض مربوطة إلى أوتاد ضخمة.

نعم. مذ قال الرجل ذو النظرات الساحرة إنه لن يفعل شيئاً، تأجلت المهمة، فربطت التعاج، التي جاءوا بها، بحبال إلى المدافع المرمية في إهمال، وسُلّخت الجواميس، المحسوبة كقوة نقل في المهمة، وهي تندل من تحت الأبراج الخشبية الضخمة ذات العجلات. وأوقدت الشحوم في أرجائها المحمولة على قوائم معدنية، يشوون عليها السمك والسلطعون.

كانوا خَلْقاً كثيراً أولئك الذين جاءوا من البحر، متكبين في جهامة على نَقْل الأحمال من سُفنهم، أسلحة وحيوانات ومؤونة، وأغراضاً أخرى تتراوح بين الخيام، والحبال، والخراطط. وكانوا على عَزْمٍ يتجلى واضحاً في حركتهم، وتوزيعهم للمواقع، وتوزيعهم لكل ما معهم على جبهة من البحر في ترتيب دقيق، حذر، هندسي. لكن ذلك الخلل الطارئ على المهمة المرسومة، أي قيام أعمدة «أبي كير» هناك، أظهرهم دون حَوْلٍ، قاصرين عن مبادرة توقف المهمة، من جديد، على قدميها. والذي لا خَيْد فيه هو أنهم كانوا موكلين بالعبور، من أرض «أبي كير»، إلى الجهة الشرقية من ذلك العراء، بعد عبور في البحر تُحَسَّب سنواته بالظلام:

- «كنا سنقيم أسوارنا هناك» يقول الرجل ذو النظرات الساخرة، ويضيف: «كيف نحمي هذه الجهة إذا لم نقيم أسوارنا هناك؟»، وهو يشير بيده إلى أبعد من عمارة «أبي كير» بفراسخ كثيرة، ويَزِنُ الأمور الخفية بعينه فتزداد سخريتها. كان المكان المديد ذاك، الذي تتوسطه عمارة «أبي كير»، يغدو - قليلاً - نصف المدينة الغربي. وكان مؤكداً، بحسب التخطيط المتقن للغيب، أنه سيكون في عَهْدِهِ هؤلاء القادمين من البحر - بخراططهم الواضحة، وجواميسهم، وخوذهم، وأبراجهم ذات العجلات - ليحموه من أية فتنة قد يحولها الغيب ذاته كامتحانٍ مُثيرٍ لكل، بَشْراً وأقداراً. لكن أولئك وقفوا حيث رست بهم السفن، وهم يشهدون الخلل غير المرسوم في خراططهم الأكيدة، المُعَدَّة في اتقانٍ كالمصائر ذاتها. وآثروا استجلاء المشهد، يوماً بعد آخر، بمنظيرهم النحاسية، أو المُطعمَة بالعاج. ثم استنتجوا أنها حيلة:

- «هذه الأساسات حيلة» قالها الرجل ذو النظرات الساخرة. مضيفاً: «إنها حيلة فاضحة»، وجلس على كرسي مغروز في الرمل الرطب. إحدى وثلاثون سنة مرّت والحيلة على حالها: أي: بقيت العمارة هناك، في الموضع الذي أُعِدَّ - على خراطط أولئك القادمين من البحر - ليكون ممراً إلى شرقي المدينة فيخُمُّوا غَرَبَهَا. وفي الإحدى والثلاثين سنة، تلك، سُدَّتْ طَرُقُ وَفُتِحَتْ طَرُقُ. وارتفعت عمارات أخرى لصق شقيقاتها، أكثر علواً أو أقل.

وانكسرت أقمار على سفوح الجبل وارتفعت أقمار. وضافت خُلجان البحر، أو اتسعت، لتقام موانئ عليها. وابتعدت القاطرات عن مجاورة الرمل الرطب في اتجاه أعماق المدينة، ومن ثم اختفت تماماً.

إحدى وثلاثون سنة، والرجل ذو العينين الساعرتين يرفع المنظار ذاته فيصطدم بخزانات المياه على سطح عمارة «أبي كير»، من موقعه قرب البحر، ومن حوله أبراجه نفسها ذوات الخشب المتآكل، ومدافع الغائصة حتى منتصفها في الرمل، والجلود المُبَعَثَرَة للجواميس والنعاج المذبوحة، وقشور السلطعونات، وهياكل الأسماك، وتفت الخراطط الممتزجة بتفت من أقمشة الخيام. لكنه في يوم من أيام السنة الإحدى والثلاثين، بعد قدومه إلى الشاطئ، قام عن كرسيه المغروز في الرمل، دون سخرية في عينه، صارخاً: - أحزموا كل شيء. - سنعود.

لم يكن على أولئك القادمين من البحر أن يجمعوا كل شيء. تركوا الخيام وراءهم، والجلود، وبعض مَراجِل الشحوم، والأبراج المهترئة، والخراطط المُبَعَثَرَة من حول الأوتاد التي تشدّها إلى الأرض، ثم استقلوا زوارقهم إلى السفن الضخمة، مقتادين، على طوافاتٍ عائمة، ما تبقى من جواميس ذُبِحت أبواؤها وأمهاؤها.

أُنقلوا أشياء أخرى؟ النعاج؟ دنان الشحم؟ سلطعونات حية في براميل؟ مناظيرهم؟ المدافع؟ ربما.

قبل أربعة أيام من انهيار عمارة «أبي كير» رحل أولئك الذين قدموا من البحر تدفعهم حمى أن يَمْرُوا إلى الجهة الشرقية من ذلك المكان كي يجمعوا غَرَّتْ. لم يكونوا غاضبين، أو حيارى. إحدى وثلاثون سنة وهم يجلون الصدا الأخصر عن نحاس نواظيرهم، دون اكتراثٍ كبير، أو قلقٍ داهمٍ على المهمة. كانوا متأكدين، في أعماقهم الغربية، أن الذي وكلهم بحماية المكان - فاجتازوا المياه سنين تُحَسَّب بالظلام لا بالوقت - ألقى على المدى المرسوم في خراططهم بأساسات عمارة «أبي كير» كفكاهة خفيفة أول الأمر، ثم ازدادت ثقلاً حتى باتت المهمة نفسها فكاهة تحت ثقل اللعبة، فقرروا الانسحاب،

مستسلمين إلى خسارتهم التي لم يُتَّخَ لها إلا أن تكون خسارة، إنما دون امتيهاين لهم، أو تصغير.

هكذا، في تعب ظاهري، ابتعدت السفن الخشبية الضخمة عن الشاطئ، وسط ضجر البحر الظاهر كزنده، في الهدنة الأخيرة قبل انهيار عمارة «أبي كبير»، فبدأ الرمل، وحده، مستوحشاً، الرمل الأبدي الأول، الساهر على المياه كأنها يتعقب، في كل موجة تترامى أمام ذكوره، شيخ إله ماء، مطعون في كبده الأثري.

وهكذا، أيضاً، في ذلك الليل الذي أقلَّ سفن المحاربين إلى الجهة الغربية من البحر، إثر المواثيق الدولية الممتنّة في تدبير خسارة لمن لا يملكون خسارة أرض أو جسد، كان في مستطاع «أ. دهر» أن يلقي بنظرات، وسط الكثافة الرمادية لفضاء البحر، على السفن الخشبية تلك، بقلوعها العالية، وأشرعتها المنشورة في مهب رحيم، مبتسماً وهو يشعل لفافة تبغ رطبة: - لا بأس. سنصلُ معاً.

من ١٩٨٥/١٠/١٢

إلى ١٩٨٧/٦/١٩

للمؤلف

- كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج أيضاً (شعر) ١٩٧٣
- هكذا أبعثر موسيسانا (شعر) ١٩٧٥
- كنيسة المحارب (يوميات) ١٩٧٦
- للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك (شعر) ١٩٧٧
- الجماهرات (في شؤون الدم المهرج، والأعمدة، وهبوب الصلصال) (شعر) ١٩٧٩
- الجندب الحديدي (سيرة الطفولة) ١٩٨٠
- الكراكي (شعر) ١٩٨١
- هاتو عالياً، هاتو النفير على آخره ١٩٨٢
- فقهاء الظلام (رواية) ١٩٨٥
- بالشبابك ذاتها، بالثعالب التي تقود الريح (شعر) ١٩٨٧